الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة وهران – السانيا –

كلية الآداب والفنون واللغات

قسم اللغة العربية آدابها

أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الأدب العربي

الموضوع :

جمالية النص النثري عند محمد الغزالي

إعداد :

فاطنة يحياوي

اشراف:

أ.د: مسعود أحمد

لجنة المناقشة:

أ.د بوقربة الشيخ	جامعة وهران	رئيسا مناقشا
أ.د مسعود أحمد	جامعة وهران	مشرفا ومقررا
أ.د بن سعيد محمد	جامعة وهران	مناقشا
أ.د حدوارة محمد	جامعة تيارت	مناقشا
أ.د صدار محمد	جامعة معسكر	مناقشا
أ.د سعيدي محمد	جامعة مستغانم	

السنـــــة الجامعيـــــة :

2014-2013

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة شكر

أقدم الشكر الجزيل

إلى السيد الأستاذ الدكتور المشرف أحمد مسعود

وكل من ساهم في إعداد هذا البحث المتواضع...

الإهداء

إلى.. روح والدي.. رحمه الله

دعني أقولك صمتا.. حين تضيق العبارة..

وحين يصير الكلام.. مؤامرة أتورّط فيها..

أمّي الرؤوم.. **حفظها الله**

ضوء الطريق.. جلاء الضيق.. وقصة عمر..

كلّ النصوص عابرة.. وحدك بيت القصيد

أهدي أفكار هذا العمل.

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

يعرف النثر على أنّه تعبير عن المضامين والأفكار والمشاعر وما يدور في الذهن دون قيود فنية وكل ما يدور في النفس وقلب الإنسان من أفكار وخواطر ولا يتقيد بوزن أو قافية، ويدخل فيه الخيال للتعبير عنه وهو لغة التخاطب وشكل من أشكال التعبير، وهو جنس أدبي تستوعبه تفاصيل الحياة والتجارب الإنسانية.

وقد درج الأدباء في مدوناتهم شروح التنظيم والنثر ومما يجلب النظر هو اختلاف آرائهم حول إشكالية تقدم النثر على الشعر و كان لكل فريق أدلته وبراهنه وحجته.

وقد كان نثر الجاحظ الأدبي يمثل طورا تأسيسيا في تاريخ النثر العربي، حيث لم يتوقف عن تحريك قرارات متباينة ،أو مقاربات جمالية ودلالية حتى اليوم، فالنظر في تاريخ هذا التلقي هو نظر في تاريخ التأويل ،واستحسان للنظم والتركيب.

ولم يحض النثر بمثل ما حظيت به أجناس أخرى من مقاربة وبحث ونقد كالشعر ، ذلك أن المدونات القديمة، صبت جل الاهتمام على دراسة الشعر وأوزانه و أغراضه.

وقد شهد الأدب العربي المعاصر بصفة عامة دراسات عديدة ومختلفة باختلاف الدارسين وتوجهاتهم النقدية والبلاغية، فكان للنثر حيزاً معتبرا من تلك المداخل والمقاربات واختلفت به المضامين والأطروحات، فهناك من اهتم بدراسة القيم الجمالية، وهناك من ركز على الجانب الدلالي، وغيرها من الأنساق والسياقات المدروسة.

والقصد إلى دراسة التركيب والأسلوب وما يترتب على ذلك من تبصر بنية الخطاب عموما، يستدعي العناية بدراسة الأصول اللغوية وتأثيرها في المسائل الأسلوبية لما لهذه العلائق في بنى تلك الحقول المعرفية من صلة والقيم الجمالية من جهة أخرى، والهادفة إلى تحقيق المتعة الفنية في الملتقي.

لذلك فإن أدبية النص النثري وجماليته قد تفوق أدبية النص الشعري، ومن هنا أمكننا اتخاذ النص النثري عند الغزالي وجماليته محورا لهذه الإشكالية.

إن أدنى تأمل في ما خلفه أسلوب الغزالي في المجال الدعوي إلى الله يهدي بالعقل إلى أنه يحوي على نماذج راقية من الصور البيانية الأدبية سواء على جهة الأدبيات الشعرية أم النثرية، جعل من خطاب الغزالي موضع انقسام النقاد والباحثين مثل دراسة بن عيسي بطاهر في مدونته: الشيخ الغزالي: الداعية الأديب والمؤلف أحمد عيساوي: الغزالي فارس الدعوى الإسلامية في العصر الحديث، في تطرق المفكر محمد عمارة ، لفكر الداعية الغزالي وذلك في كتابه: الشيخ محمد الغزالي "الموقع الفكري والمواقع الفكرية ".

لقد تناول هذا البحث تحليل الخطاب عند محمد الغزالي، وذلك من أجل الكشف عن جمالية النص النثري عنده وإبراز خصائصه العامة؛ ومن أجل الوصول إلى هذا المبتغى قسمت خطة هذا البحث إلى مقدمة وثلاثة فصول مترابطة احتوت كل واحدة منها على ثلاثة مباحث، خصصت الفصل الأول للحديث عن شخصية محمد الغزالي الداعية ومحيطه الفكري الذي ترعرع فيه وعن بيئته وثقافته ومكانته الاجتماعية وعن معركته السياسية والنضالية.

أما الفصل الثاني فقد تناولت البعد الأدبي والديني في فكر الغزالي، وكيف جمع بينهما من خلال أسلوب جمالي فذ.

الفصل الثالث كان عن مقاربة جمالية تطبيقية أسلوبية، حيث قمت بانتقاء كوكبة من النصوص النثرية مطبقة عليها المنهج الأسلوبي بمستوياته الثلاثة التركيب والدلالة والإيقاع.

أما أسباب اختيارنا للموضوع فهناك أسباب ذاتية، وأخرى علمية موضوعية دفعتني لاختيار هذا الموضوع، أما الأسباب الذاتية فيمكن أن أوجزها في الآتي:

- إعجابي الشديد بشخصية محمد الغزالي وخطابه المعتدل.
- إدراك خصوبة المشروع الفكري للشيخ محمد الغزالي بشتى أبعاده الإنسانية والأدبية والتي استخدمها في أبهى صورة خدمة للإسلام وأهدافه السامية.
- الحرص على أن لا تكون المعاصرة (معاصرتنا للعلماء والمفكرين) حاجزا يحول بيننا وبين الاستفادة الواعية والمنهجية من ذوي الفكر الناضج والعقول الراجحة والنبوغ المتميز، فضلا على أن الاحتفاء بأفذاذ العلماء والمفكرين يعد من أهم وأخطر واجبات المثقف المسلم. وقد أشار الشيخ محمد الغزالي رحمه الله إلى ذلك بقوله: "لسنا نأسى على الأموات فقد أفضوا إلى الله الذي يضاعف الحسنات، وإنما نأسى على الأحياء الذين لا يحسنون الانتفاع بثمرات المجددين الذين عاشوا مع الزمن يدافعون على الإسلام ويحرصون أركانه ويجلون بريقه"[1].

أما الأسباب العلمية فهي:

- المكانة المميزة لخطاب الشيخ -الغزالي رحمه الله- داخل منظومة الخطاب الإسلامي المعاصر، وهو ما يفسر كثرة إقبال المتلقين عليه كمقروء، وترجمة نصوصه إلى لغات عالمية كالإنجليزية والفرنسية.
- دراسة الخطاب الأدبي لدى الغزالي، ومحاولة الكشف عن المضامين والخصائص التي شكلته.

1 محمد الغزالي: مع الله، دراسات في الدعوة والدعاة، القاهرة، المكتبة الإسلامية، ط 5، 1981 م، ص 342.

وقد واجهتني صعوبات جمة و **أنا** بصدد دراسة خطاب الغزالي، **لعل** أهمها قلة البحوث التي **تناولت أدبية** النص النثري عند الغزالي رحمه الله.

وفي الأخير **لا بد أن** أنوه **بالإرشادات** القيمة التي تلقيتها من **أستاذي** المشرف الذي شملني برعايته وتوجيهاته السديدة، فله مني وافر الامتنان والشكر الجزيل.

فاطنة يحياوي

تندوف 2014.

تعددت مفاهيم الجمال، فإذا ذهبنا إلى لسان العرب ، وجدناه مصدر الجميل ، والفعل جمُل، وقوله تعالى:﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [1]. ي بهاء وحسن. يقول ابن سيده: الجمال الحسن، ويكون في الفعل والخلق، وقد جمُل الرجل بالضم جمالا؛ فهو جميل وجمال[2].وفي التعريفات للجرجاني فإن الجمال: من الصفات ما يتعلق بالرضا واللطف.[3] أما اصطلاحا، فالجمال مرتبط مرتبط بالظواهر الطبيعية ،ويتصل بكل إبداع إنساني من جهة الشكل غالبا [4].

ومن الجمال ظهرت مصطلحات عديدة كالجمالية وعلم الجمال، والمنهج الجمالي فما لجمالية؟ وما المقصود منها؟ إن الجمالية تتعلق بالتجربة الجمالية ذاتها، من جهة الشكل والمضمون؛ وهي تعرف «بالمنهج الجمالي»[5] ، والذي يرتكز في أساسه على نظرية علم الجمال الاستيقا. فالجمالية منهج تحليلي نقدي لدراسة البنية اللغوية والأسلوبية، وما تؤسسه من دلائل ووظائف وأهداف[6].أما مصطلحات الجمال والجميل والجليل فهي مصطلحات فيها تداخل وترابط فيما بينها، فالجميل إنما هو تجلي الروح والأفكار في الأشياء والظواهر... والجميل في الفن والأدب والبلاغة ؛ هو نهاية المطاف من جهة ما تعرف له المضامين ، أما الجليل فهو يتطلع إلى مقام رفيع سام يتجسد بالوجود الإلهي وكل مثل أعلى للجمال ، فالجليل يرتقي لمرتبة الجمال، والجميل إلى حالة الكمال المطلق ؛وهو مرتبط بالمعتقد الديني.[7]

---

1 النّحل 06.

2 لسان العرب: ، منظور، المجلد الأول، دار المعارف القاهرة، ص 685.

3 التعريفات :للشريف الجرجاني ،مكتبة لبنان طبعة جديدة 1985م ، ص82.

4 ينظر: جمالية الخبر والإنشاء :حسين جمعة ،منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق 2005م ، ص 12.

5 منهج نقدي يرفض اعتبار الفن وثيقة للتجربة الإنسانية (تاريخية أو اجتماعية أو نفسية)؛ أي خارج الفن ، ومن أهم رواد : كروتشه

6 ينظر: المرجع السابق، ص13.

7 ينظر: جمالية الخبر والإنشاء: حسين جمعة، ص12.

وظهور هذه المصطلحات الفنية الخاصة بالفن والمشكلات المتعلقة به، قديمة وجدت عند الإغريق، ففي القرن السابع عشر الميلادي هناك عدد من المصطلحات المتعلقة به بين أيدي الدارسين عقليون كانوا أو تجريبيون. وأوّل ما يلاحظ في نظرية الفن عند أرسطو أنّه لم يضع نظرية في الجمال، وإنما اقتصر على إعطاء فكرة من الفن، ولا أحد ينكر بأن الإغريق قد اعتنوا بالجمال عناية فائقة ،وكان الجمال أهم ما يشغل فلاسفتهم ومفكريهم،وفي محاولات« أفلاطون » مادة وفيرة في محاولة إدراك الجمال وفهم طبيعته .والحقيقة التي ندركها بصورة أو بأخرى أنهم عرفوا الجميل، لكنهم لم يعرفوا [redacted] الاستيقى[1] حتى جاء الفيلسوف الألماني «بومجارتن»[2] الذي صاغه للمرة الأولى ،فالجمالية عنده مصدر صناعي يقابل الجمالي[3].

أما عن نظرة العرب عن الجمال فقد كانوا يعرفونه معرفة أولية ساذجة، يشترك فيها جميع الناس؛ ذلك لأن مظاهر الحياة الفكرية كانت تدور حول إنتاجه الفني والشعري على وجه التحديد، ومن الطبيعي أن يكون قد وصل إلى مرحلة الإنتاج الفني الراقي- الشعر و نظرته إلى الكون وتذوقه لمظاهر الجمال والقبح فيه - فالشعر في هذه الصورة يكون انفعالا بجمال الأشياء أو قبحها وهذا يدل على إدراكه للجمال إدراكا بسيطا[4].

وتجلت نظرة الإسلام إلى الجمال من خلال لفت القرآن لمظاهره في هذا الكون، وهذه وحدها نقلة لها قيمتها من ناحية تاريخ التطور الفكري العربي، إلاّ أنّ الميدان الفني لم يتأثر بها ولم يحدث [redacted] تحولا في موقف العربي العام من الجمال؛ أي أن الشعراء وقفوا عند الجمال الحسي دون الآفاق البعيدة للجمال الحقيقي، وهذا يفضي إلى طريقين لكل من يحاول تمثل النظرية الجمالية عند العرب ،أما الأول فهو الذي يدرس النتاج الأدبي ليصور منه موقفهم من الجمال وانفعالهم به، والثاني هو ذلك

1 ينظر : الأسس الجمالية في النقد العربي: عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي القاهرة 1412ه 1992م، ص 14 ص 15.

2 الكسندر جوتليب بومجارتن (1714م 1762م) : عالم الجمال والفيلسوف الألماني، وهو تلميذ للايبنتز و فولف، وهو من ادخل مصطلح علم الجمال ليصف به الدراسات الإنسانية لتعريف الجميل .

3 ينظر: جمالية الخبر والإنشاء: حسين جمعة ص12

4 ينظر: الأسس الجمالية في النقد العربي: عز الدين إسماعيل، ص109

الذي نجده عند المفكرين الذين تمثلت مشكلة الجمال في عقولهم فراحوا يدرسونها بحللونها [1]

والخلاصة أنّ أيّ محاولة لكتابة التاريخ في فلسفة الجمال لا تصور النظرية الجمالية عند العرب؛ لأنها

محاولة لا يمكن الاكتفاء بثمراتها، وتعد حلقة من سلسلة تاريخ الوعي الجمالي العالمي لا تقل قيمة عن

النظريات التي شاعت في العصور الوسطى عند الغربيين[2] .

جمالية القرآن الكريم :

لقد سحر القرآن الكريم منذ الوهلة الأولى، سواء من شرح الله صدره للإسلام، أو من جعل على بصره غشاوة، فنجد في الحديث عن العرب المعاصرين لنزول القرآن صورة معينة للجمال الفني، الذي سموه تارة شعرا وسموه تارة أخرى سحرا، والدليل على ذلك إيمان عمر بن الخطاب حين سمع القرآن فقال:« فلما سمعت القرآن رق له قلبي فبكيت ودخلني الإسلام». أما عن الوليد بن المغيرة حين سمع شيئا من القرآن الكريم، فكأنما رق له فقال:« إن لقوله لحلاوة وان عليه لطلاوة وانه ليحطم ما تحته وانه ليعلو وما يعلى »، ولما فكّر قال فيه:« إن هذا إلا سحر يؤثر أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله ومواليه»[3].

وفي هذا يقول القرآن الكريم:﴿ انَّهُ فكَّر وقدَّر فقُتلَ كيف قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيفَ قَدَّر ثُمَ نَظرَ ثم عَبَسَ وَبَصَر ثُم أدبرَ واستكبرَ فقَالَ إِن هَذَا إِلاَّ سِحرُ يُوثَر﴾[4] ، وهنا تلتقي قصة الإيمان بقصة الكفر في الإقرار بسحر هذا القرآن، وتلتقي على الإقرار به شخصيتان قويتان؛ الأولى شرح الله صدرها بالإيمان، والثانية صدت كبرياءها إلى الإذعان والاعتراف بحقيقة هذا القرآن [5].والقوم في شغل عن

1 عز الدين اسماعيل : الأسس مرجع سابق ، ص 14

ينظر: السابق، ص120 2

3 ينظر سيد قطب : التصوير الفني ، دار الشروق ، 1968 ، ص 141.

4 المدثر 25

5 ينظر: المرجع نفسه، ص 14 25

بيان هذه الصورة بما يتمنوه منها في نفوسهم وما يحسون منها في شعورهم، وتلك مرحلة تذوق الفطرة للفنون .

فإذا تجاوزنا عصر نزول القرآن الكريم، رأينا بعض الصحابة يتعاطون تفسير القليل منه اعتمادا على القليل المنقول من النبي صلى الله عليه وسلم، وبعضهم يحاول في حذر وخشية أن يؤول بعض الآيات، وبعضهم يمتنع عن هذا خيفة أن يكون في مأتم ديني[1] . إلا أن عملية التفسير بعد عصر التابعين أخذ منحى جديدا متطورا ، وذلك بفضل الحركة العلمية الجريئة وانفتاح الأمة وامتزاج الثقافات في العصر العباسي ، فصار للتفسير والبلاغة والإعجاز شأوا آخر .

وفي خضم الحديث عن التفسير لابد من الإشارة إلى الموروث البلاغي العربي العريق ونظرية النظم؛ لأنها تجاوزت الجملة إلى النص، فقد عززت جهود عبد القاهر الجرجاني ،واكتملت بتداخلها مع العلوم الأخرى، وهذا ما يغلب على المناهج العلمية الحديثة –فلا وجود لعلم دون بقية العلوم الأخرى- .

والكلمة في القرآن الكريم ؛هي صوت النفس الذي لابد منه في التركيب البليغ حتى يستجمع الكلام به أسباب الاتصال بين الألفاظ ومعانيها ،وبين هذه المعاني وصورها النفسية ،فيجري في النفس مجرى الإرادة ويذهب مذهب العاطفة وينزل منزلة العلم الباعث على كليتها .وهذا هو الجمال الحقيقي فصوت النفس ؛هو الصوت الموسيقي الذي يكون من تأليف النغم بالحروف ومخارجها وحركاتها ومواقعها ، ذلك من تركيب الكلام ونظمه على طريقة متساوقة حتى تكون الكلمة كأنها خطوة للمعنى في سبيله إلى النفس.

وجمال القرآن الحقيقي؛ هو اجتماع صوت النفس وصورته في العقل والإحساس به وتذوقه ،ويكون الافتتان بالجمال بالنظر إلى الوجه الجميل نظرة كاملة، وهذا هو القرآن الكريم[2].

1 ينظر:سيد قطب ، مصدر سابق ، ص76 77

2 ينظر: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي بيروت 1425ه 2005م، ص125

الخصائص الجمالية في الخطاب الأدبي:

إن الحديث عن الخصائص الجمالية للخطاب؛ معناه البحث في بلاغة الخطاب والكشف عن خصائصه وصفاته البلاغية، وسماته الأسلوبية، وذلك لأن الجمال من أبرز صفات البلاغة، ومن أظهر مميزاتها، فهي تقدم الكلمة والكلام بأسلوب جمالي جامع للفكر ومثير للمشاعر. والبلاغة كعلم اهتمت منذ نشأتها بالبحث عن الخصائص الجمالية والأسلوبية التي تميزت بها النصوص الأدبية بصفة عامة والقرآن الكريم والحديث النبوي بصفة خاصة. لما لهما من بيان وجمال خاص، ولما كان البيان والجمال بهذه الأهمية والمكانة أولى العلماء منذ القديم عناية في البحث والكشف عن المعالم الجمالية في اللفظة والتركيب والصورة .

ولما كان الخطاب يملك صنوف البلاغة، وألوان الجمال والفصاحة، نحاول أن نورد جملة من الأسس الجمالية والفنية التي يبنى عليها الخطاب ومثلها فيما يلي :

1. جمالية الألفاظ

اهتمت الدراسات البلاغية العربية القديمة بجمالية اللفظ اهتماما بالغا؛ إذ اعتبرت جمال اللفظ وإعجازه، وجمال الأدب شعره ونثره في بلاغة اللفظ وعذوبته. وقد أرجع علماء البلاغة جمال اللفظ المفرد وفصاحته إلى أمور عدة عرضها ابن سنان في كتابه: سر الفصاحة نذكر منها:

- أن تكون حروف الكلمة متباعدة المخارج..
- أن لا تكون الكلمة غريبة متوعرة أو وحشية لا يمكن استيعابها وفهمها..
- ألا تكون الكلمة عامية مبتذلة تنفر منها الأسماع والأذواق..
- أن تكون الكلمة معتدلة في عدد حروفها [1] .

1 - ابن سنان الخفاجي: سر الفصاحة، وما بعدها. بيروت، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1:(1402هـ/1982م)، ص64.

[redacted] هذه بعض الشروط التي وضعها البلاغيون لتجميل اللفظ وتزيينه وتنقيحه وتهذيبه. وهي كلها شروط تخدم الجمال الفني والصياغة الأدبية؛ إذ تركز كلها على اختيار الألفاظ، وسلامة النطق، وتحقيق النغم والانسجام الصوتي، إلا أن عبد القاهر الجرجاني رفض أن يكون للكلمة المفردة أية مزية أو فضيلة إلا إذا استخدمت في سياق ما، وانسجمت مع ما قبلها وما بعدها؛ فالكلمة المفردة مجرد [redacted] علامة اصطلاحية للإشارة إلى الشيء، وإنما تكتسب الكلمة جمالها ودلالتها من علاقاتها بالكلمات [redacted] السابقة لها أو اللاحقة بها، بحيث يصبح لها وظيفة نحوية وأخرى بلاغية ترتبط بالإمتاع والفائدة. يقول عبد القاهر الجرجاني: "لا نظم في الكلم ولا ترتيب، حتى يعلق بعضها ببعض، ويبنى بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك. هذا ما لا يجهله عاقل، و لا يخفى على أحد من الناس."[1]

ولتوضيح فكرته والاستدلال على صحتها يقول في موضع آخر: "وجملة الأمر أنا لا نوجب الفصاحة للفظة مقطوعة مرفوعة من الكلام الذي هي فيه، ولكنا نوجبها لها موصولة بغيرها، ومعلقا معناها بمعنى ما يليها. فإذا قلنا في لفظة اشتعل من قوله تعالى: ﴿واشتعل الرأس شيبا﴾[2]. أنها في [redacted] أعلى مرتبة من الفصاحة، لم توجب تلك الفصاحة لها وحدها، ولكن موصولا بها الرأس معرفا بالألف [redacted] واللام، ومقرونا إليهما الشيب منكرا منصوبا [3]."

ونعتقد أن المنهج العلمي الموضوعي هو الذي يسعى إلى استخلاص الجمال البلاغي في اللفظ المفرد، ويبحث عنه أيضا في التأليف والنظم، حيث ترتبط الألفاظ بعضها ببعض بعلاقات نحوية [redacted] وبلاغية؛ فجمال الألفاظ له أثر كبير في إمتاع النفوس وإطرابها، وتهيئتها لقبول تأثير المعاني التي [redacted] تتضمنها. ولا تبلغ الألفاظ مداها في الجمال والإبلاغ والتأثير إلا إذا وضعت في تركيب معين ونظمت في سياق خاص، وارتبط بعضها ببعض داخل العبارة أو الجملة. يقول حسين جمعة:

---

1 عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ، تحقيق محمد محمود ومحمد شاكر ، مكتبة الخانجي القاهرة ، ط 2، 1989/1410، ص 55

2 مريم 03

3 المصدر نفسه ، ص 402و403

"فالكلمة في العربية ذات ظلال وإيحاءات كثيرة، وهي، أيضا، ذات طبيعة علمية؛ إذ تعبر عن الحقائق كيفما كانت، وفي أي اتجاه اتجهت. فكيفما قلبتها لبت لك ما تبتغي وكأنها لا تنفذ، بل كأن كلام الله تعالى الذي لا ينفذ يصدق عليها في قوله سبحانه: ﴿قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفدَ البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا﴾[1] . فالكلمة في العربية تقوم على معان نحوية وصيغ بلاغية لا نظير لها في اللغات الأخرى. وكلما تأمل فيها الباحث العارف والعالم بأسرارها، وأدرك إشاراتها وغاياتها البعيدة والقريبة تأكد له ذلك [2] ."

2. جمالية المعاني

ويتجلى هذا الجمال في عمق المعاني ، وغناها بالدلالات البلاغية، وورودها في صور متعددة، كالتشبيه والاستعارة والنهي والأمر، وتكثيف المعنى في عبارات قليلة، أي الإيجاز وهو عند البلاغيين من شروط جمال الكلام وبلاغته. ومعناه: "تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى [3]؛ فلا يكون في الكلام إيجاز حتى تأتي الألفاظ على قدر المعاني لا تزيد عنها ولا تنقص، وإنما الشرط أن يتم ذلك من غير إخلال بالمعنى، وإلا كان الكلام تقصيرا. فالإيجاز بلاغة وجمال لأنه لا يظهر فيه إخلال بالمعنى المدلول.والجمالية هي ذلك الاستعمال للألفاظ القليلة للتعبير عن المعاني الكثيرة، مع وضوح في الألفاظ ودقة في التعبير وتكثيف في الصورة ، وعندما يملك الخطاب هذه الخصائص، يصبح حاجة جمالية لعلماء البلاغة يبحثون في ألفاظه ومعانيه وأساليبه عن أسراره الجمالية مما يفيد ويثري البلاغة العربية .

1 الكهف 104 .

2 حسين جمعة: في جمالية الكلمة: دراسة جمالية بلاغية نقدية نقدية، دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب. 2002م. ص55

3 الرماني : لنكت ،في إعجاز القرآن ، ت محمد زغلول ومحد خلف الله ، مصر دار المعارف ط 04 ، ص 74 .

3. جمالية التصوير

ونعني بها اتخاذ الطرق الفنية المتعددة لإيصال المعنى للمتلقي، ومن بين هذه الطرق التعبير بالصورة؛ ونقصد بالصورة ذلك التركيب اللغوي الذي تمتزج فيه الألفاظ بالمعاني في سياق بياني خاص وموح بمعان ودلالات، تحمل التأثير والتوصيل لتخلق انفعالا لدى المتلقي ومشاركة معه. إن وظيفة الصورة لا تنحصر في توضيح المعنى أو تحققه؛ لأن المعنى يمكن أن يتحقق بدونها أو بغيرها، وإنما تتجاوز ذلك إلى خلق معان خاصة غنية بالإيحاءات، التي لا يمكن أن يفي بها التعبير الحقيقي أو المباشر، لتحدث أثرا واستجابة في نفوس متلقيها.

وقد اهتمت الدراسات البلاغية القديمة بموضوع الصورة الفنية، وبتحديد ماهيتها ووظيفتها في العمل الأدبي بشكل عام، واهتمت كل الاهتمام بالتحليل البلاغي للصورة القرآنية وتمييز أنواعها وأنماطها المجازية بشكل خاص، باعتبار أن القرآن كان وسيظل المثل الأعلى للبلاغة العربية. وقد وجه كثير من العلماء عنايتهم إلى الآثار النفسية والجمالية التي تحدثها الصورة في نفوس متلقيها، ومدى قدرتها على تبليغ المعاني وتمثلها. ويعد عبد القاهر الجرجاني من أبرز النقاد والبلغاء العرب الذين اعتنوا بالصورة الفنية وأثرها في النص الأدبي، وبين النواحي الفنية والجمالية فيها، ووقف عند ماهيتها ومكوناتها، وعلاقتها بنفسية وذوق المبدع والمتلقي. يقول عبد القاهر الجرجاني: "واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني، أو برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته، كساها أبهة، وكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشب من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفا، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفا [1] ."

فعبد القاهر الجرجاني في هذا النص يربط الصورة بدوافع نفسية، بالإضافة إلى الخصائص الذوقية، حيث تتضافر هذه الخصائص فيما بينها في نسج متين السبك، لتعطي الصورة شكلا ورونقا

1 عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، تحقيق محمد رشيد رضا، دار المطبوعات العربية ص 92، 93.

وعمقا مؤثرا. والتصوير فاعلية فنية ترمي إلى التأثير في السامعين، واستثارة انفعالهم ، فيكسب ساعتها الخطاب قيمة فنية جمالية .وعلى حد قول الشريف الرضي في وصفه للصورة النبوية الجميلة، من خلال الانفعالات المختلفة التي توحي بها العبارة المجازية يقول : "بأنها من أنصع العبارات وأروع الاستعارات[1]." ولكنها لم تستمد نصاعتها وجمالها من كونها تشبيها حذف أحد طرفيه، وإنما اكتسبتها بما أثارته من قيم جمالية ومشاعر نفسية.

وحين نتدبر الملامح الفنية التي ترفع الخطاب الفني الراقي من حيث الصورة، وتحديد خطوطها وألوانها، سنجد أن أسلوب التشبيه يؤدي دورا أساسيا ، لأن الوظيفة الأساسية والبلاغية له إنما تقوم على أساس من التصوير للمعنى ، وتقديمه تقديما محسوسا، وذلك عن طريق ربط الصور الحسية، بأخرى أشد منها تمكنا في الصفات الحسية، وهذا ما يجعله قريبا من مجال الإدراك الإنساني، ويجعله أكثر قدرة على التأثير والتأثر [2] .

مفهوم النص في الكتابة النثرية:

1- مفهوم النص عند العرب :

1 الشريف الرضي: المجازات النبوية: تحقيق مروان العطية ومحمد رضوان، الهداية، (1408هـ/1987م) ص 08 .

2 جابر عصفور: الصورة الفنية، بيروت: المركز الثقافي العربي، ط03، 1992، ص 261 و262 .

يدور مفهوم النص في معاجمنا اللغوية القديمة على عدة معان من أهمها :

1– الرفع :

فنص الشيء رفعه، ونَصَّ الحديث يَنُصُّه نصًا : **رفَعَه وقال عمرو بن دينار : ما رأيت رجلا** أنَصَّ للحديث من الزُّهْري، أي أرْفَعَ له وأسْنَدَ. **يقال** : نَصَّ الحديث إلى فلان، أي رفَعَه إليه وكذلك نصَصتُه إليه، ونَصَّت الظبية جِيدَها : رفَعَتْه.

2- الإظهار :

جاء في معاجم اللغة أن كل ما أَظْهرَ فقد نُصَّ. ف "**نَصَّ** " العَرُوسَ " يَنُصُّهَا نَصًّا : **"أقْعَدَها على المِنَصَّةِ بالكسْر** " لِتُرى، أي على غاية **الشهرة والظهور**. " **والمنصة هي ما تُرْفَعُ عَلَيْهِ العروس** " **كسَرِيرِهَا وكُرْسِيِّهَا وقد نَصَّهَا** " **فانْتَصَّتْ**. " هي. **والمَاشِطَة تَنُصُّ العَرُوسَ فتُقعدُهَا على المِنَصَّةِ وهي تَنْتَصُّ عَلَيْهَا لِتُرَى مِنْ بَيْنِ النِّسَاءِ.**

3– جعل بعض الشيء فوق بعضه :

فنصصت المتاع أي جعلت بعضه على بعض.

4– بلوغ الشيء أقصاه ومنتهاه :

فنصُّ كل شيء : منتهاه. **قال أبو عبيد : النَّصُّ** : التحريك حتى تستخرج من الناقة أقصى سيرها،... **والنَّصُّ والنَّصِيصُ** : السير الشديد، والحثُّ، ولهذا قيل :

نَصَصْتُ الشيء : رفعته، ومنه مِنَصَّة العروس، وأصل النَّصّ : **أقصى الشيء وغايتُه**، ثم سمي به ضربٌ من السير سريع [1].

1- **انظر** : أبو الفضل جما الدين محمد بن مكرم بن منظور : لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، 1414 هـ/ 1994م، المجلد السابع (نصص) ص 98. وانظر مختار الصحاح، ت. محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 1415 هـ /

وهكذا يتضح أن مادة نص في معاجمنا القديمة ذات معان متعددة أهمها أربعة هي : **الرفع، والإظهار، وجعل بعض الشيء فوق بعضه، وبلوغ الغاية.** ويرى الزمخشري أن الرفع هو المعنى الحقيقي أو الأصلي للنص وما سوى هذا المعنى فهو من المجاز[1] .

وإذا تتبعنا معنى كلمة النص في **المعاجم العربية الحديثة فسنجد أن له مفهومات عدة بعضها** يتفق مع ما جاءت به المعاجم القديمة وبعضها جديد كقولهم :

النص هو : صيغة الكلام الأصلية التي وردت من المؤلف.

أو أنه : ما لا يحتمل إلا معنى واحدا، أو لا يحتمل التأويل، ومنه قولهم : **لا اجتهاد مع النص. وهو عند الأصوليين : الكتاب والسنة** [2].

وإذا أمعنا النظر في هذين التعريفين فسنجد أنه لا يوجد فرق كبير بينهم وبين المعاني التي طرحتها المعاجم القديمة فرفع الحديث إلى صاحبه هو إسناده إليه بصيغته دون تحريف أو تأويل أو تفسير، أي رفعه كما هو ونقله عنه كما هو.

فالنص يرفع إلى منشئه الأصلي وكما يقول طرفة بن العبد:

ونُصّ الحديث إلى أهله فإن الوثيقة في نصه

أي أرفع، أو أنسب هذا النص بصيغته إلى صاحبه دون تحريف **أو تأويل فإن ذلك مدعاة** لثقة القارئ وقبوله لهذا النص الموثق.

2– مفهوم النص عند الغربيين:

1995 م، ص ج 1،276، انظر جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري : أساس البلاغة، دار بيروت، بيروت، 1404 هـ ، / 1984 م مص. 635- 636. وانظر، محمد مرتضى الزبيدي : تاج العروس من جواهر القاموس، المطبعة الخيرية، جمالية مصر، 1306 هـ ، دار مكتبة الحياة، بيروت، المجلد الرابع، ص 440.

1- الزمخشري : اساس البلاغة، ص 635.

2- انظر :المعجم الوسيط، ج 2، ص 962 – 963.

أما حين نعود إلى الأصل اللاتيني لكلمة " نص" في اللغات الأوربية، فسنجد أن مصطلح نص Texte في الفرنسية، و Texto في الإسبانية ، و Text في الإنجليزية، و Tekta في الروسية وكلها أصلها اللاتيني كلمة Textu و هي تعني النسيج [1].

فالأصل اللاتيني يحيل على النسج، ويوحي بالجهد والقصد، ولعله يوحي أيضا بالاكتمال والاستواء . " أفليس؟ النسج مجموعة من العمليات التي يتم بمقتضاها ضم خيوط السدى إلى خيوط اللحمة لنتحصل على نسيج ما يُعتبر تتويجا لهذه العمليات ؟ ثم ألا يعني النسج بمعناه الواسع الإنشاء والتنسيق في ضم الشتات والتنضيد ؟ [2] "

ولو قارنا بين معنى كلمة نص، كما وردت في معاجم اللغة العربية، وبين معناها كما وردت عند الغربيين فسنجد أن المعنيين يحيلان على الاستواء والكمال، بل وعلى النسيج أيضا، على الرغم من أن ابن منظور في مادة نصص لم يشر إلى ذلك، ولكن إذا عدنا إلى مادة ن.س.ج نجد ما يحيل على ذلك نسج : النسج ضمّ الشيء إلى الشيء، هذا هو الأصل .. والريحُ تَنْسجُ الماءَ إذا ضرَبَتْ مَتْنَهُ فانْتَسجتْ له طرائق كالحُبُكِ. ونسجت الريح الرَّبْوَ إذا تعاورته ريحان طولا وعرضا. ونسج الكذّابُ الزور : لفّقه.

ونسج الشاعر الشعر : نظمه، ونسج الغيث النبات : أنماه حتى التفّ [3] .

ومقارنة ما ورد في اللغتين العربية واللاتينية يؤدي معنى بلوغ الغاية والاكتمال في الصنع.

كما أن النسيج والوشي كانا شائعين في تراثنا النقدي في وصف الشعر، ثم شاعا بعد ذلك في وصف النثر أيضا، ويُعنى به في الغالب إحكام الصنعة وتميزها، ثم تسرّبت إلى المصطلح البلاغي النقدي العربي ألفاظ من قبيل التوشيع، والتطريز، والمتن ...، وغيرها من المصطلحات التي تدل على

1 -Diccionario de la lengua espanola, Madrid, 1992, II, p. 1973, (textil).

2- أحمد الحذيري: من النص إلى الجنس الأدبي، الفكر العربي المعاصر، ع / 100 – 101، 1988 ، ص 41.

3- لسان العرب : المجلد السادس، ص 623.

التنظيم والتشابك والتداخل الذي توحي به كلمة نسيج، ولعل مصطلح النظم الذي تبناه عبد القاهر الجرجاني في كتابيه : دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة من أكثر المصطلحات لصوقا بهذا المعنى [1].

وبالجملة فمن الممكن أن نقيم تقاربا بين معنى النص في المعاجم العربية وبين معناه كما ورد عند الغربيين؛ فالرفع مثلا يعيد النص إلى صاحبه ، والتحريك صفة من أهم صفات النص الأدبي، فهو حوار بالدلالة، أما الإظهار ففيه معنى الإنجاز والتمام، وإذا كانت العروس تُنَصّ على المنصة لترى في أجمل حُلّة وصورة لها فكذلك شأن النص الذي لا يخرجه صاحبه إلى الناس إلاّ في حالته التي يراها جميلة، أو عندما يصل إلى الغاية أو منتهى الجودة والبلاغة [2].

3- مصطلح النص عند المحدثين :

أما النص في اصطلاحات المحدثين، فقد تنوعت تعريفاته بتنوع التخصصات العلمية، وبتنوع الاتجاهات، والمدارس المختلفة، ومن أبرز تعريفات النص أنه :

1- " كل بناء يتركب من عدد من الجمل السليمة مرتبطة فيما بينها بعدد من العلاقات " [3].

وهناك من يرى أن النص لا ينبغي أن يحدد بمفهوم الجملة، ولا بمفهوم الفقرة التي هي وحدة كبرى لمجموعة من الجمل، فقد يتصادف أن تكون جملة واحدة من الكلام نصا قائما بذاته مستقلا بنفسه، وذلك ممكن الحدوث في التقاليد الأدبية: كالأمثال الشعبية، والألغاز، والحكم السائرة، والأحاديث النبوية التي تجري مجرى الأحكام .... وهلم جرا " [4].

1- انظر : ابن أبي الإصبع، تحرير التحبير، ت. حفني محمد شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 1963، ص 314-316.

2- خليل الموسى : النص لغة واصطلاحا، جريدة الأسبوع الأدبي، عدد 823، 2000 .

3- طه عبد الرحمن: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، بيروت – الدار البيضاء - ، الطبعة الثانية، 2000 م، ص 35.

4- عبد المالك مرتاض: في نظرية النص الأدبي، مجلة المجاهد، عدد 1424.

وبناء على ذلك فقد يعرف النص بمعنى واسع فهو كل ملفوظ مهما كان منطوقا أو مكتوبا، طويلا أو موجزا، قديما أو جديدا، فكلمة " قف " هي نص مثله مثل رواية طويلة، فكل مادة لسانية تشكل نصا، يكون قابلا للتحليل إلى صفات هي نفسها قابلة للتجزئة إلى أقسام وهكذا إلى أن تنتهي إمكانيات التقسيم هذا عن النص بشكل عام [1].

2- وهناك من يرى أن النص " خطاب تم تثبيته بواسطة الكتابة " أي أن النص هو ما نكتبه. أو هو عبارة عن " بناء لمعنى مأخوذ من معجم ليس لمفرداته معان خارج البناء الذي يضمها [2].

3- واعتبر البعض النص نسيجا يشبه النسيج الذي كون لنا ثوبا نرتديه، أو نسيج العنكبوت وشبكته، فكما ينتج النسيج لباسا نلبسه، ونختفي فيه، ويصبح جزءا من شخصيتنا، فالنص هو أيضا منتج لعملية التشابك المستمر، والانسجام والتماسك التي يقيمها الكاتب للكلمات، والجمل، والمعاني التي تعطينا – في النهاية – نصا كما يعطي العنكبوت شبكة من ذاته، فالكاتب يعادل أو يوازي العنكبوت – في هذا التعريف. والشبكة توازي أو تعادل الكلمات والجمل والمعاني التي تؤلف النص [3].

4- ويجمل محمد مفتاح تعريف النص فيرى أن النص مدونة حدث كلامي ذي وظائف متعددة.

ويعني بأنه مدونة كلامية أنه مؤلف من الكلام، وليس صورة فوتوغرافية، أو رسما، أو عمارة، أو زيا ... وإن كان الدارس يستعين برسم الكتابة وفضائها وهندستها في التحليل.

أما قوله حدث فيعني أن كل نص هو حدث يقع في زمان ومكان معينين. أما الوظائف المتعددة للنص فمنها أنه :

1- عدنان بن ذريل : النص والأسلوبية بين النظرية والتطبيق، اتحاد الكتاب العرب، 2000، ص 54.

2- عبد العزيز حمودة : المرايا المحدبة، سلسلة عالم المعرفة 232، الكويت، ذو الحجة 1418 هـ / أبريل – نيسان 1998، ص 160.

3- انظر : عدنان بن ذريل : النص والأسلوبية بين النظرية والتطبيق، ص 58.

تواصلي، يهدف إلى توصيل معلومات، ومعارف، ونقل تجارب.... إلى المتلقي.

تفاعلي، حيث يقيم النص علاقات اجتماعية بين أفراد المجتمع.

توالدي، فرغم أن النص مغلق من حيث سمته الكتابية، أي له بداية ونهاية إلا أنه ليس منبثقا من [redacted] عدم، وإنما هو متولد من أحداث تاريخية، ونفسية، ولغوية... وتتناسل منه أحداث لغوية اخرى لاحقة له [1].

وقد حاول البعض الجمع بين كل هذه التعريفات في صياغة تعريف شامل للنص فقالوا بأنه " وحدة كلامية مكونة من جملتين فأكثر، تحقيقًا وتقديرًا، منطوقة أو مكتوبة، لها بداية ونهاية تتحدد بها، وتتداخل مع منتجها ولغتها في علاقة عضوية ثابتة، وهي تتجه إلى مخاطب مُعَيَّن أو مُفْتَرَض، [redacted] ويمكن أن تصاحب تلك الوحدة الكلامية بعض الإشارات السيمائية غير اللغوية التي قد تؤثر فيها.

وهذا التعريف من وجهة نظره يتوافق هذا مع الفهم اللغوي للنص في العربية المعاصرة، وينسجم مع الاتجاهات الحديثة في التحليل النصي، إضافة إلى أنه يعطي كل لغة نوعًا من الخصوصية في بنيان نصوصها، فالنص الإنجليزي على سبيل المثال لا يمكن أن يكون كالنص العربي مهما حاولت الترجمة التقريب بينهما، فلا يمكن المقاربة بين أي نصين مترجمين من لغتين مختلفتين إلا بإضافة حواش وتعليقات إضافية، لأن النص علاوة على اختصاصه بروابط خاصة في كل لغة، فإنه يحمل رصيدا ثقافيًا مقصورًا على ناطقيه الأصليين، ثم إن علاقة النص بمنتجه علاقة عضوية تداولية، ولكل منتج للنص روابطه الخاصة به في نصه، وطريقته التي يمكن كشفها من خلال نصوصه الأخرى، فنص فلان من الناس يختلف عن نص آخر. إضافة إلى أنه يمكن إدخال بعض الإشارات غير اللغوية المصاحبة للنص اللغوي في ضوء تأكيد العلاقة بين النص ومنتجه، إذ لا يخلو نص شفاهي في الغالب من مثل تلك الإشارات ثم إنه لابد من أخذ متلقي النص في الاعتبار، فالنصوص تتأثر، بل تختلف باختلاف

1- تحليل الخطاب الشعري : إستراتيجية التناص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 2، 1986، ص 120.

المخاطبين؛ فقد يؤدي وجود مخاطبين بصفة ما إلى إيجاد نصوص معينة بسمة ما تناسب أحوال تلقيهم النص [1].

من كل ما سيق يتضح أن تعريفات النص كثيرة ومتعددة، وقد انطلقت من اتجاهين :

الاتجاه الأول: يقوم على أساس النظام اللغوي، وقد اعتمدت معظم التعريفات فيه على علم اللغة البنيوي، والنحو التحولي التوليدي؛ إذ يظهر النص كتتابع متماسك من الجمل.

الاتجاه الثاني: ويقوم على أساس نظرية التواصل؛ فيُعرّف النص بوصفه فعلا لغويًا معقدًا يحاول المتكلم به أو كاتبه أن ينشئ علاقة تواصلية معينة مع السامع أو القارئ.

3- أنواع النصوص :

يجدر بنا في البداية وقبل أن نعرض لطبيعة النص الأدبي أن نحدد أنواع النصوص التي تعدد بتعدد المعارف الإنسانية في العلوم والآداب والفنون وليس من السهولة أن نقرأها كلها، بل ليس في الإمكان ذلك وإنما نتواصل معها تبعا لتخصصاتنا. ويمكن أن نقدم الأنواع التالية حسب طريقة عرضها :

أ – نصوص يسيطر عليها السرد، ويمكن أن نسمي النص منها بالنص السردي، وهو عبارة عن عرض الأحداث حسب تراتبها الزمني، ويبرز هذا النوع من النصوص في التحقيقات الصحفية، والروايات، وكتابة التاريخ.

ب – نصوص يسيطر عليها الوصف، ونستطيع أن نطلق عليها النصوص الوصفية، وفيها يعرض الكاتب منظرا أو مشهدا يكون الهدف من ورائه إعطاء صورة حية وواضحة عن وضع ما أو حالة ما، ويتمثل ذلك في أجزاء من الروايات أو القصص.

1- انظر: عبد الكريم جمعان: مفهوم النص من النص إلى النص، بحث منشور على شبكة الانترنت، وانظر أيضا، عمران رشيد، نحو لسانيات نصية عربية : مقاربة في مفهوم النص والتماسك النصي (مرجع سابق).

ج – نصوص يسيطر عليها التحليل، ونستطيع أن نسمي نصها بالنص التفسيري، وفيه تعرض الأحداث أو الأشياء بطريقة تحليلية تفسيرية، ويبدو ذلك في المداخلات العلمية، والدروس، والرسائل العملية...

د – نصوص يسيطر عليها التعبير، ونستطيع أن نسميه بالنصوص التعبيرية، وفيه يعبر صاحب النفس عما يدور في نفسه، ويتمثل ذلك في الأشعار، والروايات، والمسرحيات، والرسائل الخاصة...

هـ - نصوص يسيطر عليها الأمر، أي افعل ولا تفعل وتتمثل في الوثائق الإدارية، والتقارير، والمحاضر، والتعليمات....

و – نصوص يسيطر عليها المنطق، ونسمي واحدها بالنص الاستدلالي، وفيه يرمي الكاتب من ورائه إلى إقناع القارئ بوجهة نظره، ويتدرج إلى البرهنة على صلاحية فكرة ما أو ما مصداقيتها أو مشروعيتها.

ز – نصوص يسيطر عليها الحوار، ويسمى النص فيها بالنص التحاوري، وتكون عادة في النصوص المسرحية، وفيه يعرض الكاتب وجهة نظره عن طريق إقامة الحوار بين أشخاص العمل.

ولكل نص من هذه النصوص خصوصية فنية داخلية؛ فطريقة كتابة النص الوصفي تختلف عن طريقة كتابة النص الاستدلالي، فهذا الأخير يعتمد على القياس، والمنطق، والتتابع في الأفكار، وأهم شيء فيه هو الروابط المنطقية والمعنوية، في حين يكون التسلسل ثانويا في النص الوصفي الذي يعتمد أساسا على الجمل الاسمية التقريرية والنعوت، والمهم فيه هو مدى ارتباط الوصف بالواقع، أي طريقة الكاتب في جعل القارئ يحس بأن الكلمات تعبر عن الحقيقة وليست مجرد كلمات فضفاضة [1].

ويمكن أن نجمل النصوص في ثلاثة أنواع كبرى هي :

1- انظر: بسام بركة وآخرون: مبادئ تحليل النصوص الأدبية، الشركة المصرية العالمية لونجمان، 2002، ص 25.

أ- النص الإعلامي : ويتمثل في الصحافة ووسائل الإعلام المختلفة، ونستمده من المكتبات، والأكشاك، والمراكز الثقافية، والاشتراكات، ويستند على مؤشرات مرئية مثل : العناوين في كتابتها ومضامينها، وأنواع الطباعة، ويتوجه لأغلب الجماهير ليمكنها من الفهم الإجمالي لمختلف الأحداث. **فمثلا** نشرت جريدة الأخبار في عددها ويجمل بكل بساطة القرارات المهمة التي اتخذها مجلس المحافظين ليعلم بها المواطنون، وهكذا يميل النص الإعلامي إلى البساطة والسهولة؛ لأنه يخاطب المجتمع بكل طبقاته.

ب – النص العلمي : **ويتميز بكونه يقدم حقيقة لا يوجد فيها اختلاف مثل : زوايا المثلث** تساوي قائمتين، أو أن بنها عاصمة محافظة القليوبية، فالخطاب العلمي يقدم حقائق علمية يتفق عليها الناس، ويستعينون في ذلك باختيار نتائجها بوسائل مادية محددة، ومعايير الحكم على هذه الحقائق لا يترك مجالا للجوانب الخاصة التي تميز هذا الفرد عن ذلك، وإنما لها واقعية يؤكدها المنطق وتثبتها التجربة العلمية.

ج – النص الأدبي : هو نقيض للنص العلمي، لأنه غير ثابت ولا يقدم حقيقة علمية دقيقة وإنما يقدم حقيقة فنية تنبع من الذات، فهو نص معرفي تتلاقى فيه جملة من المعارف الإنسانية أهمها على **الإطلاق المعرفة الأدبية، لكنها ليست كافية وحدها؛ ولذلك فإن قارئ الأدب الذي يكتفي بمعرفة** الأدب فقط تكون قراءته غير كافية ومعرفته بالنص هي أيضا غير كافية، فعليه أن ينزع إلى معارف أخرى؛ لأننا قد نجد في النص الأدبي المعرفة التاريخية، والنفسية، والاجتماعية، والسياسية، وحتى **المعرفة الا**قتصادية والعلمية وغير ذلك من المعارف الإنسانية، وهو ما يلقي مسؤولية إضافية على كاهل المشتغل بالأدب كتابة وقراءة في التزود من هذه المعارف قدر الإمكان للاستعانة بها في قراءة النصوص الأدبية وكتابتها.

إن النص الأدبي هو نتيجة ما في الفنان من تباين وفردية ... **وهذ**ه الفردية أو الذاتية التي تميز الفن على العلم، عند النقاد وعلماء الجمال هي العنصر الأساسي الذي يجعل الفن عند خلقه يتسم بسمة

الأصالة : التي هي مجموعة الخصائص الفردية المميزة للأشخاص... وهذا ما سنبينه في حديثنا الموجز عن طبيعة النص الأدبي ووظيفته.

4- طبيعة الأدب:

كلمة الأدب في تراثنا العربي تعني في اللغة الذي يَتَأَدَّبُ به الأديبُ من الناس، سُمِّيَ أَدَبًا لأنَه يَأْدِبُ النَاسَ إلى المحامِد، ويَنْهاهم عن المقابح فهو رياضة النفس بالتعليم والتهذيب على ما ينبغي.

وأصل الأَدْبِ الدُعَاءُ، ومنه قيل للصَنِيع يُدْعَى إليه الناسُ : مَدْعاةٌ ومَأْدُبَة والأدب صاحب المأدبة، والداعي إليها.

وأَدُبَ الرَجلُ يَأْدُبُ أَدَبًا، فهو أديبٌ، والأَدَبُ : أَدَبُ النَفْس والدَرْس. والأَدَبُ : الظَرْفُ وحُسْنُ التَناوُل. وأَدُبَ، بالضم، فهو أَدِيبٌ، من قوم أُدَبَاءَ وأدَبه فَتَأَدَب عَلَمه [1].

وقد تطور مفهوم كلمة أدب في تراثنا العربي بتطور الحياة العربية وانتقالها من حياة البداوة إلى **أدوار المدنية والحضارة؛ فقد كانت كلمة " أدب "** في الجاهلية تعني : الدعوة إلى الطعام.

وفي العصر الإسلامي استعمل الرسول صلى الله عليه وسلم، كلمة " **أدب** " بمعنى جديد : **هو التهذيب والتربية، ففي الحديث الشريف** : " أدبني ربي فأحسن تأديبي "، فانتقلت الكلمة من معنى حسي، وهو الدعوة إلى الطعام إلى معنى ذهني، وهو الدعوة إلى المحامد والمكارم [2].

أما في العصر الأموي، فقد اكتسبت الكلمة بالإضافة إلى هذا المعنى التهذيبي الخلقي معنى **تعليميا يتصل بدراسة التاريخ، والفقه، والقرآن الكريم، والحديث الشريف، وأفرع الثقافة المختلفة** وتعليمها إلى الناشئة. **وصارت كلمة أدب** تعني تعلم المأثور من الشعر والنثر، **أو ما يؤثر من الشعر والنثر.**

1- المعجم الوسيط، ج1، ص 90.

2- شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي : العصر الجاهلي، دار المعارف، ط 11، د.ت، ص 80.

وفي العصر العباسي الأول نجد المعنيين المتقدمين وهما : التهذيب والتعليم يتقابلان في استخدام الناس لهما، وفي العصر العباسي الثاني، أخذ الأدب يستقل عن النحو واللغة، ويعني بالمأثور شرحا وتعليقا الأخبار التي تتعلق بالأدباء أنفسهم، ثم صارت الكلمة تطلق على معرفة أشعار العرب وأخبارهم أو الأخذ من كل علم بطرف.

واتسعت بعد ذلك لتشمل كلّ أنواع المعارف غير الدينية التي ترقى بالإنسان، من هنا بدأ مفهوم كلمة الأدب يتسع ليشمل سائر صفوف المعرفة وألوانها ولاسيما علوم البلاغة.

ثم تخصص الأدب بعد ذلك واقتصر على التمكن من فني النظم والنثر، فقد عرفة ابن خلدون : بأنه المقصود عند أهل اللسان ثمرته، وهو الإجادة في فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم.

وهناك من يري أن الأدب هو كل ما كتب في اللغة مهما كان موضوعه ومهما كان أسلوبه، سواء أكان علما، أم فلسفة، أم أدبا خالصا، فكل ما ينتجه العقل والشعور يسمى أدبا، فالأدب هو كل شيء مطبوع، أو كل ما أصدرته المطابع.

ويحاول البعض تعريف الأدب بالنظر إلى لغته التي ليست مادة هامدة بل مشعة، ملآى بشحنات ثقافية واجتماعية، ويميزون بين لغة الأدب التي تعبر عن العاطفة والانفعال، ولغة العلم التي تعبر عن الفكر، فمثل هذا التمييز لا يكفي فالأدب يحتوي على فكر، كما أن اللغة الانفعالية ليست خاصة بالأدب فقط، فيكفي أن نشاهد مشاجرة عادية أو حديث بين عشيقين.

أما اللغة الأدبية فهي حافلة بالتراكيب التي تحتمل أكثر من معنى، كما أنها شديدة التضمين مشبعة بالأحداث التاريخية والذكريات والتداعيات. إضافة إلى أنها ليست دلالية فقط ولكنها تعبيرية فهي تنقل لهجة المتحدث أو الكاتب وموقفه كما أنها تؤثر في المتلقي وتقنعه وتغيره في نهاية الأمر.

وتشدد اللغة الأدبية على الإشارة نفسها، أي على الرمز الصوتي للكلمة، وقد تفنن الأدباء في جذب الانتباه إله بالجناس والوزن والأنماط الصوتية المتكررة [1].

والأدب في النص هو الأدب التخيلي، وهو كل ما يثير فينا بفضل خصائص صياغته... إحساسات جمالية أو انفعالات عاطفية أو هما معا [2].

ونقصد بالإحساسات الجمالية اعتبار الأدب فنًا جميلا، فإذا فقد قيمه الجمالية فقد كونه أدبًا، أما الانفعالات العاطفية فلابد أن يتضمن الأدب حرارة العاطفة وإلا انقلب إلى حقائق علمية أو رياضية تخرجه عن كونه أدبًا. وحتى عندما يكون العمل الأدبي قائمًا على الفكر يجب أن يتضمن الحرارة القادرة على تحريك وجدان الإنسان.

فالأدب الخالص هو الذي لا يراد به إلى مجرد التعبير عن معنى من المعاني، بل يراد به أيضا أن يكون جميلا مؤثرا في عواطف القارئ والسامع.

مفهوم الكتابة النثرية :

إنّ المتتبع لكتب النقد والبلاغة العربية، يلاحظ قلة الاعتناء بالنثر من قبل النقاد والدارسين القدامى، وفي المقابل اهتمَّ بحثهم في الشِّعر، فأحاطوا به، وفصّلوا فيه القول، بل أفرطوا في ذلك في

1- نظرية الأدب، ص 20، 21.

2- المرجع نفسه، ص 19، 28.

كثير من الأحيان، أما النثر فلا تخصيص فيه ولا تحديد رغم أن العربية مثلها كل من الشعر والنثر، فضلا عن أفضلية الغرض حيث السياق فهو ديوان العرب.

ولعلّ في مظاهر إهمال النثر، أننا لا نجد تعريفا صحيحا له يستوفي كل شروطه : دقة وإحاطة واستقصاء، الأمر الذي لا نجده في حكم الشعر ذا التعريفات المضبوطة أما التعريفات التي وردت في النثر فلم تتخذ التقسيمات والتصنيفات، إذ أننا نجده باعتبار الشكل يتقسم إلى خطب ورسائل، وباعتبار اللفظ يتفرع إلى نثر مرسل ومزدوج وسجع وهنا ..... العديد من الأقوال التي جاءت على لسانه العرب القدامى حول النثر أمثال ابن وهب حيث يقول : " وأعلم أن الشعر أبلغ البلاغة..." [1]

ويقول الكاتب المفكر مسكويه : " فذلك النظم والنثر يشتركان في الكلام الذي هو جنس لهما، ثم ينفصل النظم عن النثر بفضل الوزن الذي به صار المنظوم منظوما، ولما كان الوزن عليه زائدة وصور فاضلة على النثر صار الشعر أفضل من النثر من جهة الوزن، فإن اعتبرت المعاني كانت المعاني مشتركة بين النظم والنثر، وليس من هذه الجهة تميز أحدهما من الآخر... " [2].

نفهم من هذين القولين أن هذه النظرة هي نظرة جزئية للنثر كما هي تأثير على الموقف السلبي للعرب القدامى من النثر فهي نظرة جزئية اهتمت بالشكل دون المضمون إلى الصورة دون الحقيقة والمعنى و التي حالت دون التبلور التام لمفهوم النثر الفني عند القدامى، حتى أن الكتاب العرب من مفكرين وفلاسفة وقصاصين ونقاد كانوا يمارسون النثر الفني دون وعي واضح دقيق لمزايا وميزات الفن المتوفر على كتاباتهم دون أن يعترف بفضلهم يقول الجاحظ في كتابه الحيوان : "وقد نقلت كتب الهند، وترجمت حكم اليونانية، وحولت آداب الفرس، فبعضها ازداد حسنا، وبعضها ما تنقص شيئا، ولو حولت حكمة العرب لم يجدوا في معانيها شيئا لم تذكره العجم في كتبهم والتي وضعت لمعاشهم وحكمهم، ولبطل ذلك المعجز، وقد نقلت هذه الكتب من أمة إلى أمة، ومن قرن إلى قرن، ومن

1- ابن وهب :البرهان في وجوه البيان، د .ت ،ص 350.

2- مسكويه: العوامل والشواهل، د.ت ، ص 275.

لسان إلى لسان حتى انتهت إلينا وكنا آخر من ورثها ونظر فيها، فقد صح أن الكتب أي كتب النثر أبلغ في تقييم المآثر من الشعر" [1].

ويقول أبو حيان عن النثر : "وأحسن الكلام ما رق لفظه ولطف معناه.... وقامت صورته بين نظم كأنه نثر، ونثر كأنه نظم، ويقول أيضا " إذا نظر في النظم والنثر على استيعاب أحوالها وشرائطهما... كان أن المنظوم فيه نثر من وجه ولولا أنهما يستهمان هذا النعت لما ائتلفا ولا اختلفا "[2].

يعد أبو حيان أول من اهتدى إلى حقيقة النثر الفني وحلل مقوماته الجوهرية تحليلا يتصف بالدقة والعمق، لذلك بين أهمية كل من عنصري العقل والموسيقى في النثر الفني، ومن رأي التوحيدي أن الشعر لا يختص وحده بالموسيقى والخيال، بل هما قدر مشترك بين الشعر والنثر الفني، والفرق بين النوعين من الكلام نسبي أما الجوهر فواحد.

شهد النثر في أواخر العصر العثماني ضعفا كبيرا وركاكة في التعبير، فكانت عباراته سقيمة مقيدة بقيود ثقيلة من الحلي والزخارف المصطنعة المتكلفة، لتخفي ما وراءها من معنى مرذول وفكرة تافهة ضحلة، وكثيرا ما كانت تغلب العامية والكلمات التركية على كتابات الكتاب، فيأتي الكلام أشبه بالرموز والأحاجي.

وما كان من الكتاب على قدر يسير من اللغة نهج أسلوب المقامات في كتاباته، فالتزم السجع في كل ما يصطنع من كتابه، بل منهم من كان يتلاعب بالألفاظ والتحريف وقد أورد الجبرتي أمثلة عديدة في كتابه عجائب الآثار في التراجم والأخبار، نرى منها نموذجين اثنين :

1- الجاحظ: الحيوان، ج 1 ، د.ت ، ط3، ص 75.

2- أبو حيان: الامتناع والمؤانسة، ج 2، د.ت، ط4، ص 135 – 145.

المقامة التصحيفية : للشيخ عبد الله الادكاوي الذي أهدى منها نسخة للشيخ عبد الله التلباني فرد عليه بما نصه " عبد الله عند الله وجيه، وحبه محتم مخيم بقلوبنا تعلو بنا سماؤه، سما به عمله عم به التواب والثواب، ولا حرمنا ولا حرمنا الأبهج الأنهج... "[1].

يتضح في هذا القول وتبين لنا الكثير من الكلمات العبثية التي تؤكد ما وصلت إليه اللغة من الضعف والركاكة.

يقول مصطفى الدمياطي : " حكى البديع بشير بن سعيد قال : حدثني الربيع بن رشيد قال، هاجت لي دواعي الأسواق العذرية، وعاجت بي لواعج الأتواق الفكرية على ورود حمى مصر المفردية البديعية، ذات المشاهد الحسنة والمعاهد الرفيعة، لأشرح بمتن حديثها الحسن صدري، وأروح بحواسي نبلها الجاري روحي وسري، واقتبس نور مصباح الطرف من ظرفائها، واقتطف نور أرواح الظرف من لطائفها، و استجلى عرائس بدائع معاني العلوم على منصات الفكر محلاة بالمنثور والمنظوم، واستمد من حماتها السادة العناية، واسترشد سراتها القادة أنوار الهداية ... "[2].

نرى كلاما متكلفا مصطنعا، لا يهدف إلى غاية ولا يومىء عن فكرة سليمة وإنما هو لإظهار البراعة في انتقاص السجعات، وإيراد المحسنات.

كان هذا ما وصلت إليه اللغة والكتابة في أواخر العصر العثماني وبداية العصر الحديث وأهم هذه النتائج :

- تهافت في العبارة.
- ركاكة في الأسلوب.
- استعجام في الألفاظ.

1- الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، مصورات جامعة الكويت، 1925، ص 45.
2- المصدر نفسه، ص 47.

- عامية فاشية.
- ضحالة في المعاني.
- قيود ثقيلة من السجع والمحسنات البديعية.

ومن هنا يتضح الشوط الذي قطعته الكتابة النثرية منذ أوائل القرن التاسع عشر في اليوم لم يكن سهلا هينا والتخلص من العقبات في الكتابة واللغة لم يكن ميسرا.

يعرف النثر على أنه تعبير عن المشاعر وما يدور في الذهن دون قيود فنية، وكل ما يدور في النفس وقلب الإنسان من أفكار وخواطر ومشاعر وانفعالات ولا يتقيد بوزن أو قافية، ويدخل فيه الخيال للتعبير عنه وهو لغة التخاطب، وهو شكل كتابة للتعبير، وهو شكل أدبي يستوعبه التفاصيل والتجارب الإنسانية، وهو يقوم على أساس بناء ثانية.

وتشكّل النثر في أشكال متعددة نذكر منها المقالة والمقامة والخطابة والقصة والمسرحية وتكررها متطورة في العصر الحديث .وقد عالج النثر جملة من الأغراض، وقد التسمية من خلالها فكان النثر الاجتماعي، والنثر السياسي والنثر الأدبي.

ولقد مر النثر العربي بعدة مراحل من بينها :

- نثر صدر الإسلام والدولة الأموية.
- نثر عبد الحميد كاتب في أواخر الدولة الأموية.
- نثر ابن المقفع.
- نثر الجاحظ.
- نثر عبد الحميد.
- نثر القاضي الفاضل الذي ساد في القرن السادس.

إن النثر العربي يتكون من الكلمات والمصطلحات والحروف العربية التي تردف بعضها بعضا وينجم منها النثر العربي. والعرب منذ القديم منذ نشأة اللغة العربية في حاجة ماسة إلى العبارات والجمل التي يتكلم بها، ومن الواضح أن العبارة العربية أو الجملة العربية تتكون من النثر، وهذا يدل على أن النثر العربي متقدم على النظم أو الشعر العربي في العصر الحديث، لأن النظم والشعر فن من فنون الأشخاص المتخصصين الذين يتبحرون في إنشاد الشعر وتقريض الكلمات الموزونة في البحور الخاصة.

إن النثر العربي ولد في الجزيرة العربية عند الأعراب البدويين في هيكلة الساذج والبسيط ولما انتقل الأعراب إلى الحضر أصبحوا مدنيين، تقدم وترعرع النثر العربي في المدن وأصبح النثر يلعب دورا مهما في الحكايات والقصص الشعبية التي يرويها الشيوخ الكبار لأطفالهم وفي صناعة الأمثال العربية والخطب التي يلقاها رئيس القوم أو قائدهم في المجلس، وهناك خلاف بين الأدباء في تقدم الشعر على النثر أو بالعكس وفي التفصيل بينهما، ولكل منها أصحاب لديهم آراء ومذاهب مختلفة.

قد درج الأدباء في كتبهم شروح النظم والنثر، مما يجلب النظر هو اختلاف آرائهم على تقدم النثر على النظم وبالعكس، فكان لكل واحد منهم آراء في فضيلتها نذكر بعضها : كما هو معلوم يتفق الأدباء والمؤرخون على وجود الكتابة والنثر منذ الجاهلية حسب ما يقول طه حسين : " هؤلاء منفقون منه وأغزر مادة ولكن الرواة لم يحفظوا من النثر شيئا فلم يحفظ منه إلا النزر اليسير"[1].

إن النثر عند البعض أحسن من الشعر وذلك " لأن النثر تعلم فيه أمور لا تعلم في النظم كالمعرفة بالمخاطب والكتب والعهود والتقليدات وأمور تقع بين الرؤساء والملوك يعرف بها الكتاب أمورهم ويطلع على خطى أسرارهم وإن الحاجة إلى صناعة الكتابة ماسة والانتفاع بها في كل الأغراض ظاهر " [2] ومن ناحية أخرى نلاحظ أن تفاضل النظم عن النثر حينما يقول الخفاجي: " التفضيلي

1- حسين طه: في الأدب الجاهلي، مطبعة فاروق، القاهرة، 1352 هـ ، ص 346.

2- عبد الله بن محمد الخفاجي: سر الفصاحة، عن موقع أم الكتاب وموقع نداء الإيمان :

- http : // ommalkitab.blogimen.com

بين النظم والنثر فالذي يصلح أن يقوله من يفضل النظم إن الوزن يحسن الشعر ويحصل الكلام به من الرونق ما لا يكون لكلام المنثور ويحدث عليه من الطرب في إمكان التلحين والغناء ما لا يكون للكلام المنثور ولهذه العلة ساغ حفظه أكثر من حفظ المنثور، حتى لو اعتبرت أكثر الناس لم نجد فيهم فصلا من رسالة غير القليل ولا يجد فيهم من لا يحفظ البيت أو القطعة الموسيقية إلا يسير ولولا ما انفرد به من الوزن الذي تميل إليه النفوس بالطبع لم يكن لذلك وجه ولا سبب " [1] وهو يعني أن الشعر يدخل في جميع ذلك فإن التشبيب لا يحسن في يسير الشعر وكذلك بعض من الأغراض وما استعمل لجميع ضروب الكلام وأصنافه، أفضل مما اقتصر على بعضه.

يقول القيرواني : " إن الكلام كله منثور فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها، وطيب أعراقها، وذكر أيامها الصالحة، وأوطانها النازحة، وفرسانها الأنجاد، وسمحائها الأجواد، لنهر أنفاسها [redacted] بالكرم، وتدل أبنائها على حسن الشيم ... فلما ثم لهم وزنه سموه شعرا " [2] ويقول الجاحظ أيضا : "ما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، فلا يحفظ من المنثور عشره ولا ضاع من الموزون عشره " [3] فتعود الأقوال حول الشعر غير أن الباقلاني : " رأي صريح في أسبقية النثر على الشعر، فقد وجد النثر أولا، ثم جاء بعده الشعر شيئا فشيئا إذ كان يعرض للناس على تضاعيف الكلام ثم استحسنه الناس وتتبعوه وتعلموه " [4] فالنثر يختلف عن النظم في جميع عناصره فالنثر والنظم طرفين ضدين وعلى حالتين متباينتين.

1- المصدر السابق نفسه. ص 15.

2- ابن الرشيق القيرواني: العمدة، ص 18.

3- أبو عثمان الجاحظ: البيان والتبيين، ج 1، ص 284.

4- مصطفى القط: النثر الفني ونقده عند العرب من الشفاهية إلى الكتابة، مقالة التراث الأدبي، ص 138.

كما أن النثر قسم من أقسام الأدب حيث يقول المقديسي : " النثر المطلق قديم في الأدب العربي نراه في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ويحملنا الاستنتاج على أنه كان في الجاهلية أيضا ... "[1].

لقد جاء النثر لتنمية الأدب العربي وتطويره، ككل أدب يحتاج إلى النثر في جميع حقوله لأنه إن لم يكن النثر لم تستنتج الآثار الأدبية والعلمية، والشعر في حد ذاته دائن إلى النثر لأن هذا الأخير - النثر – أعم وأسهل منه، فالنثر شهد تطورا في العصر الإسلامي ووصل إلى ذروته في العصر العباسي الأول لاسيما عند كبار الأدب من بينهم عبد الحميد الكاتب، وعبد الله بن المقفع، والجاحظ، وابن العميد، والنثر العربي في العصر العباسي عرف ألوانا متعددة ومختلفة عن الفنون، ككتابة الرسائل والخطب والتوقعات وغيرها، وظهرت فيه صور جمالية في شتى أضرابها، ويعالج اللفظ والمعنى معا، ومن الأدباء من اهتم بزخارف القول وبدائعه، وبالمعاني دون المعاني بسبب شيوع السجع والصناعات اللفظية عند أصحاب الرسائل.

وقد كان نثر الجاحظ الأدبي يمثل طورا تأسيسيا في تاريخ النثر العربي، حيث لم يتوقف عن تحريك قراءات متباينة ومتعارضة منذ القدم حتى اليوم، فالنظر في تاريخ هذا التلقي هو نظر في تاريخ التأويل، بالقدر نفسه الذي هو نظر في أدب الجاحظ الذي لا يستطيع فهمه وتقديره إلا تاريخيا، أي في ضوء عمالقته وقرائه التاريخيين.

إذا تتبعنا ما ظهر في الأدب العربي من مؤلفات ودراسات وأبحاث نجد أن الشعر – كما أسلفنا الذكر – قد استأثر بالمقام الأول من اهتمام الدارسين، واحتل مكان الصدارة في المؤلفات القديمة، والدراسات الحديثة.

1- أنيس المقديسي: تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، ص 20.

أما النثر – وهو قسيم الشعر في ميدان الأدب – فإنه لم يحظ بمثل ما حظي به قسيمه من عناية واهتمام، وعلى الرغم من أنه أقرب من الشعر في التعبير عن الجماهير، لأنه أكثر ميلا إلى السهولة في الأداء والتعبير، ولأنه يمثل لغة الجماهير فهو أكثر سهولة في التلقي والفهم.

فالنثر العربي هو أحد قسمي الأدب " الشعر والنثر " ... يتميز عن الشعر بخلوصه من كل قيد إلا قيد سلامة اللغة، واستقامة المعنى، وجودة التعبير، أما الوزن والقافية فلا يختصان بالنثر لغلبة العقل، والمنطق عليه ولأن المقصود منه في الأساس حسن إيصال المعنى السامع أو القارئ، وقد استعاض عنهما بالسجع، صار النثر العربي في العصر العباسي في صورته الفنية متعدد الأنماط، وكانت بعض صوره امتدادا للقديم مثل ما كان من خطب الخلفاء من بني العباس وتوقيعاتهم، ومن ذلك أيضا نثر ابن المقفع في طابعه العام.

وقد استحدثت العربية، أسلوبا متميزا حيث استبعدت الألفاظ البدوية الغريبة من العصر والحضارة مع العناية في ذات الموقف بفصاحة اللفظ وجزالته، واتخذت اللغة لنفسها أصولا بيانية خاصة كما أفادت من بلاغة الأمم الأخرى، وقد تفاعل النثر مع ثقافة العصر محتفظا بمقوماته العربية الأصلية، فلم يحدث الازدواج اللغوي الذي يعرض اللغة للضياع، بل وجدت فنون حديثة عن طريق المترجمين والمتكلمين والكتاب المجددين.

ومن الصواب القول أن العصر العباسي الأول كان بحق عصر النقل والترجمة، فقد خطت الترجمة خطوات واسعة.

وقد نبه الجاحظ في كتاباته في العصر العباسي إلى أمور عديدة منها :

- الوضوح في القول وعدم التكلف والبعد عن الغريب والمبتذل.
- تحدث عن جزالة الألفاظ وعذوبتها.
- أشاد إلى اختيار الألفاظ والسجع وأثره في نفوس السامعين.

- ترددت على لسانه فنون بديعية وبيانية كالكتابة والاحتراس والحقيقة والمجاز والاستعارة... الخ

وهيأ بذلك لظهور علم البديع عند ابن المعتز [1].

شهد الأدب عند العرب بصفة عامة دراسات عديدة ومختلفة باختلاف الدارسين لها وباختلاف المواضيع المدروسة، فكان للنثر حيزا معتبرا من هاته الأبحاث واختلفت فيه المضامين، فهناك من اهتم بدراسة الصورة، وهناك من ركز على اللفظ والمعنى، وهناك من ركز على المحسنات البديعية والصور البيانية ... وغيرها من الأنساق والسياقات المدروسة.

وكانت في العصر العباسي العديد من القراءات والانتقادات على الأسلوب وطريقة الكتابة النثرية والمعاني المختلفة والغريبة التي يراد الوصول إليها في ذهنية القارئ السامع.

فالقصد إلى تحسس وعي أعلام التراث النقدي والبلاغي العربي بأشكال اللفظ والمعنى وما يترتب على ذلك من تبصر ببنية الخطاب عموما، يستدعي العناية بالأصول اللغوية وتأثيرها في المسائل الأسلوبية لما للعلائق بين المجالين من صلات حميمية، وتتأكد هذه الصلات الحميمية بين المباحث الأسلوبية والنقدية والاراء اللغوية لدى بعض النقاد والبلاغيين خاصة كالجاحظ الذي بالإضافة إلى رأيه في أقسام البيان عامة وملاحظاته المتعلقة بالظاهرة اللغوية خاصة مما يشكل إطارا عاما لهذه المباحث، تمتد تصوراته الأسلوبية ومقاييسه البلاغية فرسوخ في نظريته في الكلام، إذ هو أول مفكر عربي تقف في تراثه على نظرية متكاملة تقدر أن الكلام، وهو المظهر العملي لوجود اللغة المجردة ينجز بالضرورة في سياق خاص يجب أن تراعى فيه، بالإضافة إلى الناحية اللغوية المحضة، ومجموعة من العوامل الأخرى كالسامع والمقام وظروف المقال، وكل ما يقوم بين هذه العناصر غير اللغوية Extra linguistique من روابط.

النثر الفني ودوره في التواصل :

النثر لغة مشتق من الفعل نثر ،الدال على تفريق الشيء من دون نظام، أي دون وزن ولا قافية، وهو خلاف النظم أي الشعر ، فالكلام المنثور هو الكلام المرسل ،ومنه ما هو عادي يتواصل

1- الجاحظ: البيان والتبيين، تر : عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، مصر، ط 3، ج 2، 1996، ص 30.

من خلاله الناس بواسطة اللغة المحكية السائدة، وغرضه التواصل والتخاطب بين الناس لتحقيق غايات نفعية أو إبلاغية ، كالتعبير عن الذات والرغبات، ونحو ذلك. وهذا النوع لغته ليست أدبية، لأنها فقدت قدرتها على الإثارة. أما النثر العلمي فيعتمده العلماء في تدوين علومهم ، قواعده المنطق، والفكر السليم، ومخاطبة العقل لتقريب الحقائق العلمية.

ومنه النثر الأدبي أو الفنّي وهو الذي يعنينا في هذا البحث، فهو الذي تتوهّج لغته حرارة، وعاطفة، وانفعالا . وتكون قادرة على إثارة الدهشة الحيّة ، والانفعال العميق ،والكشف الباهر في كل صياغة جديدة ،فهي لغة ذات سحر خاصّ ،ومن هنا يمكننا القول أن النثر الفني، هو ذلك اللون من التعبير الذي يفتنّ فيه كاتبه لإثارة المتعة الفنيّة في نفس القارئ أو السامع ، وقلّما يأتي ذلك عفو الخاطر، وبعبارة أخرى يكون الفن النثري هو كل كلام يشتمل على جمال في صياغته وأسلوبه، فهو تشكيل لغوي معرفي جمالي. وهو لا يقل أهمية عن الشعر في نقل الأفكار والأحداث، بل هو لسان حال الأمة من خلال تلك الرسائل التي كانت تدون بين الخلفاء والملوك، التي أصبحت فيما بعد وثائق تاريخية وسياسية، من الدرجة الأولى.

وإذا كان الشعر يقوم على أساس جماليّ في مقامه الأول، الهادف إلى تحقيق المتعة الفنيّة في المتلقي، فإن النثر يقوم على أساس معرفي لأنه ينقل أفكارا، محدّدة باطّراد وتتابع، وعلى نحو وصفيّ تقريريّ،يعتمد البراهين العقلية والتفصيل الدقيق للأفكار، والجدل، والبعد عن التهويل والمبالغة، والقرب من الحقيقة في كثير من الأحيان، فالنثر لغة العقل أولا، والوجدان ثانيا . أما الشعر فلغة العاطفة والوجدان.

إنّ أدبية النص النثريّ وجماليته قد تفوق أدبية النص الشعريّ، فقد يكون الشعر نظما ذهنيّا، جامدا،لا روح فيه، وإنما فكر ومعرفة، ووزن وتقفية، كما هي حال المنظومات العلميّة، وكثير من شعر العلماء. فالحكم غالبا على شعريّة النص، أو أدبيّته يعود إلى رجحان الوظيفة الجمالية على الوظيفة المعرفية .

النثر الفني في العصر الحديث:

ظل النثر العربي يعاني حالة من التردي والقصور بدأت منذ عصور الدول الإسلامية المتتابعة وبلغت أوجها في العصر العثماني. وصار اهتمام الأدب والأدباء محصوراً في الصنعة اللفظية، فأكثروا من المحسنات البديعية ووجهوا لها عناية خاصة. وزاد الأمر سوءًا أن تسربت الألفاظ التُركية إلى اللغة الفصحى، فانحصرت اللغة الفصحى بين طائفة المتأدبين وأهل العلم من شيوخ الأزهر، حين ضعف الحس بالعربية بين فئات المجتمع الأخرى.

ثم بدأت بنهاية القرن الثامن عشر حركة انبعاث في الأدب العربي الحديث أثّرت على الشعر والنثر معًا، وأدت إلى لون من النضج والازدهار. وكان من أظهر عوامل هذه النهضة في النثر الحديث ظهور لون جديد من الكتابة المرسلة المتحررة من إسار السجع وصنعة الجناس وقيود البديع. ويُعد المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي من رواد هذا اللون من النثر. وقد تأثّر بالجبرتي جيل من الكتاب الشباب تخلصوا من ضروب البديع وعمدوا إلى التعبير المرسل وكان من أشهرهم ناصف اليازجي، وأحمد فارس الشدياق.

نهض النثر عقب ذلك نهضة واسعة، وتحرر تمامًا من تلك القيود البديعية، فسادت بين الكتاب والخطباء أساليب من الفصاحة والبلاغة والبيان تبعد عن التكلف والصنعة، وكان من أقطاب هذه المدرسة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في رسائله المشهورة والشيخ محمد عبده في مقالاته الاجتماعية والدينية، ومصطفى كامل في خطبه الوطنية السياسية، والأديب شكيب أرسلان في موضوعاته الأدبية. ويعقب هذا الجيل جيل آخر كان أشد تأثرًا بعوامل النهضة الفكرية والثقافية التي تركت سماتها في الأدب العربي الحديث. وينهض على عاتق هذا الجيل بناء جديد في النثر العربي الحديث كان من أشهر رجاله محمد حسنين هيكل وعباس محمود العقاد وطه حسين وأمثالهم .

ومن العوامل الحاسمة في تطور النثر العربي الحديث وخروجه من وهدة التخلف والركاكة ما صاحب النهضة الأدبية في العصر الحديث من مد جسور الاتصال الفكري والثقافي بين الشرق

والغرب عن طريق التعليم والبعثات العلمية والترجمة ودور الطباعة ومنشآت الصحف والمكتبات وما إلى ذلك من وسائل ثقافية وفكرية كان النثر فارس ميدانها بغير منازع ، فظهرت ألوان في التعبير ما كان للنثر سابق عهد بها ، نذكر من أهمها :

المقالة : لقد عرف العرب قديما الرسائل الإخوانية والديوانية، باعتبارها فنا نثريا يعبر بها عن قضايا سياسية واجتماعية وأدبية، ويعبر بأخرى عن مشاعر ذاتية خاصة، ولعل هذا الفن هو أقرب الأشكال النثرية إلى فن المقالة في النثر الحديث ، وقد عالجت موضوعات متنوعة وطنية واجتماعية وسياسية، بل اتسع مجالها إلى كل مناحي الحياة وشؤون المجتمع وأحداثه المختلفة، وكثيرا ما جمعت هذه المقالات في كتب .[1]

كان أسلوب المقالة أول أمره لا يخلو من الصنعة البديعية المتكلفة، ثم بدأ يتحرر من هذه القيود، ويميل إلى البساطة في التعبير، والتركيز على الفكرة، والعمق في المعالجة، مع الموضوعية والبعد عن الذاتية. كما أخذ يميل إلى الاختصار مراعاة لحيّز النشر وعجلة القارئ. أما موضوعاته فقد تنوعت بين السياسة والموضوعات العامة والعلاقات الاجتماعية والأحوال الاقتصادية والقضايا الأدبية والنقدية والنواحي التربوية والجوانب الدينية. وأصبحت المقالة هي المسيطر على أعمدة النشر في مجالاته المختلفة ، وكان لها روادها وجمهورها. فلا غرو أن ذاع صيت معظم أدباء العصر بسبب مقالاتهم التي رفعت مكانتهم الأدبية. ومن أشهر كتّابها محمد حسنين هيكل وأحمد حسن الزيات والعقاد وطه حسين والمنفلوطي وغيرهم.

القصة والرواية: لم يعرف الأدب العربي القديم القصة أو الرواية كشكلين فنيين قائمين بذاتهما. وكانت الأخبار الممتزجة بالخيال والتاريخ والأسطورة أو قصص الأمثال أو أخبار الرواة تقوم مقام ذلك. ثم كانت كتب الجاحظ وما تحفل به في ثناياها من نوادر قصصية، إلى أن ظهر بديع الزمان

1 انظر ما كتبه طه حسين في : حديث الأربعاء ، وأحمد أمين في: فيض الخاطر ، والعقاد وغيرهم .

الهمذاني في القرن الرابع الهجري، وعلى يديه ظهر فن المقامة الذي يحمل طابعًا قصصيًا لا ينكر. وقد بلغت المقامة ذروتها الفنية على يد الحريري.

وعندما تطلّع أدباء عصر النهضة في الأدب الحديث إلى التراث العربي يستلهمونه، كتب ناصيف اليازجي كتابه "مجمع البحرين "، وجعل منه طرائف أدبية وذخيرة لغوية وألوانًا بديعية في قالب قصصي يماثل ما كان يفعله بطل المقامات .ثم كان كتاب حديث عيسى ابن هشام لـ محمد المويلحي، وهو أهم مؤلف في العصر الحديث قرّب بين المقامة القديمة والرواية في شكلها الحديث، وقد صوّر المويلحي، في قالب روائي، جوانب متعددة من التغيير الاجتماعي الذي أصاب مصر حين تأثرت بالمدنية الغربية. وعبر عن هذا التغيير من وجهة نظر شخصية متخيّلة لقائد من قواد جيش محمد علي بعث من قبره بعد موته. وكان يصاحبه الراوي عيسى بن هشام وهو الكاتب نفسه. واتصلت حوادث حديث عيسى بن هشام في شكل مغامرات يسعى البطل من خلالها إلى أن يجد لنفسه مكانًا في هذه الحياة التي تبدلت عما كانت عليه. وكان كل فصل من فصول الكتاب يحمل صورة من صور تلك الحياة، يقربه من أسلوب القصة القصيرة وقالبها، كما كانت الروايات المترجمة عن الفرنسية والإنجليزية تحظى بإقبال متزايد من القراء. أما الروايات التاريخية على يد جرجي زيدان فاستأثرت بنصيب وافر من اهتمام طبقة من قراء تلك الفترة .

وفي عام 1912 صدرت رواية زينب ، لمحمد حسنين هيكل ، وهي أول عمل يعكس فهما، ونضجا لأساليب الرواية الفنية الحديثة ، وتعدّ باكورة لما أتى بعدها من روايات في الأدب العربي الحديث ، ولكن الإبداع الروائي الجاد ظل قليلاً ونادراً عقب رواية زينب حتى ظهر جيل من الكتاب المجيدين. وكان أشهرهم محمد فريد أبو حديد و علي أحمد باكثير والطيب صالح ومحمد عبد الحليم عبد الله وسهيل إدريس فضلاً عن ذروة هذا الفن في الأدب الروائي نجيب محفوظ.

أما القصة القصيرة بمفهومها الحديث فقد تأخرت بضع سنوات في نضجها الفني عن الرواية. فجذورها ترجع إلى الرُّبع الأول من القرن العشرين، وكان من روادها محمود تيمور ويحيى حقي. ثم دخل عدد من الكتاب عالم القصة القصيرة، وأصبحت فن العصر بغير منازع، وحظيت بجمهور لا يقل عن جمهور الرواية، كما ناقشت كثيراً من القضايا الاجتماعية والسياسية والفكرية، مستفيدة من قصرها وسرعة إيقاعها وعجلة الجمهور. فأضحت القصة أكثر جرأة وأشد تأثيراً في حياة الناس ومجتمعاتهم من الرواية ذات النفس الطويل الهادئ.

المسرحية: إن كان الأدب العربي القديم لم يعرف المسرحية لأسباب اختلف الدارسون حولها، فإن الأدب في العصر الحديث عرف شيئًا من بواكير الحركة المسرحية خلال الحملة الفرنسية على مصر والشام، ولكن الحياة الأدبية لم تتأثر كثيراً بتلك المسرحيات التي كانت تقدم باللغة الفرنسية. وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر أنشئت دار الأوبرا في القاهرة لتعرض عليها الفرق الأجنبية مسرحياتها التمثيلية والغنائية. أما في لبنان فقد سبق الفن التمثيلي مصر بسنوات حين أسس مارون النقاش فرقة من الهواة تولى أمرها بعد وفاته أخوه سليم النقاش الذي انتقل بفرقته من بيروت للإسكندرية .

وخلال تلك الفترة تعددت الفرق المسرحية في مصر وكان من أشهرها فرقة يعقوب صنوع وفرقة سليمان القرداحي وفرقة أبي خليل القباني وفرقة إسكندر فرح. وكانت هذه الفرق تقدم روايات فرنسية مترجمة أو ممصرة حتى تناسب ذوق الجمهور. وأكثر تلك المسرحيات نقد للحياة الاجتماعية والأخلاقية . وفي أوائل القرن العشرين نهض فن المسرح في مصر نهضة عظيمة، وأصبح المسرح يقوم على أسس علمية صحيحة .

بدأ فن التأليف المسرحي في مصر على يد ثلاثة فرسان هم فرح أنطوان، ثم إبراهيم رمزي ثم محمود تيمور وكلهم كتبوا في الوطن والتاريخ والاجتماع، وازدهرت الحركة المسرحية حين كثرت الفرق والجمعيات القائمة على دراسة التمثيل والتأليف المسرحي. وارتبط أدباء العرب بأصول هذا الفن في

الغرب، فترسخ أسسه في العالم العربي تمثيلاً وتأليفًا، إلى أن ظهر رائد المسرح العربي الحديث توفيق الحكيم الذي يعد أقوى دعائم المسرح العربي الحديث، إذ تخصص في الكتابة له وكان شغوفًا بالأعمال المسرحية، كما نقل اتجاهات المسرح الحديث في الغرب إلى مسرحنا العربي، وأربت مسرحياته على الأربعين .

إنفتح مجال التأليف المسرحي فدخل إلى حلبته عدد كبير من الكتّاب العرب، وتجاوز نطاقه مصر وبيروت، كما تنوعت لغته بين النثر والشعر، ووجدت المسرحية الشعرية مكانها اللائق بها.

أما من ناحية الأفكار والموضوعات فقد تنوعت دلالاتها بين السياسية والاجتماعية والفكرية والفلسفية والصوفية. وأصبح المسرح، بحق، أبًا لكل الفنون، كما وجد من الجمهور إقبالاً واحتفالاً لا يقل عن الاحتفال بدُنْيا القصص والروايات.

الفصل الأول

- الغزالي... والعصر.
- نشأة الشيخ الغزالي ومراحل حياته.
- صفاته وأهم العوامل المؤثرة في تكوينه

المبحث الأول : خطوط عامة عن المجتمع المصري

تمهيد :

تعتبر العلاقة بين الفرد والمجتمع واحدة من أهم القضايا التي استأثرت باهتمام علم الاجتماع المعرفي، فبين الشخص كتواجد مادي وبين مجتمعه كإطار معنوي تفاعل علاقة، ثم تأطير علاقة تبرز إلى ظهر الوجود لتعكس صورة الفرد داخل مجتمعه. وعندما يتعلق الأمر بدراسة ناتج فكري لأحد الأعلام أو الرواد أو العباقرة فإنّ الأمر يستلزم الرجوع بالضرورة إلى المنطلقات الأولى في النشأة الذاتية لهؤلاء الأشخاص، ومن الطبيعي جدا أن تكون البداية من المجتمع، وفي أبسط صورة عملية له، والتي تتمثل في الأسرة؛ هذه الأخيرة التي يأخذ منها الفرد أولى القواعد الرئيسية من منظومة الأعراف والتقاليد والقيم وهي عملية تحصل بصورة تلقائية، وتظهر في أخلص نتائجها عملية تفاعل الفرد مع مجتمعه..

إن النشأة الإجتماعية عن طريق الأسرة، المدرسة، والمحيط...إلخ وهي تهتم بتنمية شخصية الفرد، إنما تهتم بإكساب الفرد الخصائص الإجتماعية التي تترتب عليها فعاليته في حمل مسؤوليته تجاه ما يجري حوله في السير العام لمجتمعه؛ فالشخصية تتشكل بأساليب وأنماط الحياة التي عرفها الفرد. على أن الأفكار والاتجاهات السائدة في المجتمع تساهم هي الأخرى في صياغة ذهنية الفرد، وتشكل طريق تفكيره وردود أفعاله.

وبناءا على ما تقدم ذكره حاولت أن أستفتح هذا الفصل بمبحث تمهيدي كمحاولة لرسم إطار عام لملامح الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية الثقافية التي عاشها المجتمع المصري خلال عقود هامة من القرن العشرين، والتي بلا شك كان لها تأثيرها المباشر على شخصية الغزالي ببعديها النفسي والفكري وتوجهها العام. كما كان لها تأثير على أهم المحطات والمنعطفات التي تفاعل معها الشيخ الغزالي أو انفعل بها، كما سيتضح من خلال مباحث هذا الفصل.

I- خطوط عامة عن الأوضاع السياسية والإيديولوجية :

لعبت الأوضاع السياسية – في بدايات القرن العشرين- دورا أساسيا في تفتيق أسباب الوعي السياسي المصري، وتبلور البعد الإيديولوجي لديه كبداية لصراع الأمة ضد التسلط الأجنبي وقاعدة لتحررها، فالإيديولوجيا تظهر في أوقات الأزمات و في قطاعات من المجتمع لا تقبل بما تراه، إنما تظهر لإشباع حاجات مطلوبة بقوة من هذه الشرائح، وهي تظهر لتأطير تصرفات، وتأكيد قيم لأولئك الناس الذين يشعرون بتلك الحاجة عندما يغادر المجتمع ثوابته التي عرفها من قيم أو ثقافة أو تراث [1].

والواقع – الذي يجب إقراره – هو أن الموقف الشعبي... لم يخرج من عزلته ليشارك بقوة في الحركة الوطنية إلا عندما كانت قيادته تضطر تحت ضغط الظروف الداخلية أو الخارجية إلى التخلي عن مسبقاتها الفكرية، والالتحام بالشعب في مواقف عملية ترمي إلى التصدي إلى الهيمنة الأجنبية ومن يتعامل ...[2] وتبدأ هذه الحيثيات في صناعة المشهد السياسي في حياة الشعب المصري منذ وطأت أقدام الحملة الفرنسية عام 1798 أرض مصر واستمرت ثلاث سنوات أمضتها في نضال عنيف وقتال مرير مع الشعب المصري. ولم تكن فرنسا الطامعة الواحدة في المنطقة بل كانت منافستها ببريطانيا هي الأخرى تسعى إلى بسط نفوذها على مصر فاستغلت فرصة الانسحاب الفرنسي ... وجندت جيش قويا بقيادة " فريزر" سنة 1808 م من أجل السيطرة على مصر. وقبل هذا برجالها وسياستها تقف في مفترق الطرق لا تدري أي سبيل تسلك، لقد ضاقت ذرعا بتحكم العثمانيين وسياستهم الفاشلة التي جرّت البلاد إلى المهالك. ومع تفاقم الأوضاع الداخلية تدخلت بريطانيا في شؤون البلاد وقد اتخذت من مذبحة الإسكندرية سنة 1882 م ذريعة لفرد حمايتها على مصر حيث نشأ بينها وبين العرابيين قتال عنيف أسفر عن هزيمة العرابيين.

1- محمد الرميحي: الميراث المر الإيديولوجيا العربية إلى أين؟ مجلة العربي الكويتية (عدد448 – مارس 1996) ص 17.
2- برهان غليوم: بيان من أجل الديمقراطية، (دار بوشان، ط 4 ، 1990)، ص 111.

[redacted] ومحاكمتهم من قبل السلطات البريطانية التي نفت عدد منهم خارج مصر لتحكم سيطرتها بصورة واضحة بعد ذلك على الحياة المصرية، فكانت معاملتها(السلطة البريطانية) للشعب المصري قاسية ومهينة، وقد ساهمت " حادثة دنشواي " عام 1906 م في تفجير مشاعر غضب الشعب المصري ضد قوات الاحتلال البريطاني وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى سنة 1914 [redacted] تأثر موقف مصر بموقف بريطانيا التي استغلت الموانئ المصرية لمصلحتها، ولم تكتف بهذا فحسب بل استغلت بريطانيا ظروف الحرب لتعلن حمايتها على مصر سنة 1914 وتتحكم في توجيه الحكم، فتولي من تشاء، وتسقط أو تعزل من تشاء. وقد ضاق الشعب المصري بسياسة بريطانيا، وعدائها له مما دفعه إلى الثورة عليها.وهذه الثورة التي أعلنتها في شهر مارس 1919 امتدت [redacted] لتشمل سائر البلاد وشاركت فيها كل فئات المجتمع المصري وقد قابلت بريطانيا ثورة المصرين بالإرهاب، وإطلاق على المظاهرات المتعددة وحكمت على آخرين بالحبس أو الجلد أو الغرامة لكن ثورة الشعب لم تتوقف حتى اضطرت بريطانيا سنة 1922 إلى إصدار تصريح يتضمن إعلان انتهاء الحماية، والاعتراف بمصر دولة مستقلة ذات سيادة [1].

بناءا على ما تقدم يمكن اعتبار ثورة 1919 نقطة الارتكاز المحورية في بلورة النضال الوطني والتعبير عن الرغبات بشكل أكثر عمقا وجدية من اجل التغيير [2]، والذي اتخذ شكل العمل المنظم أو الإطار الحزبي مساحة للتحرك والنضال على أساس مرجعيات وثوابت لمناضليها. ويمكننا حصر أهم الاتجاهات في هذا الإطار على النحو التالي:

1- الاتجاه الوطني:

تتمحور نشاطه الرئيسي في الاستقلال، وإجلاء قوات الاحتلال البريطاني. وقد تأسس هذا الاتجاه على يد بعض الأعيان المصرين سنة 1881م ورفع شعار "مصر للمصرين" ومن أهم الأحزاب التي يمكن إدراجها ضمن هذا التيار حزب الأمة برئاسة حسن عبد الرزاق،وحزب الأحرار

1- مسعود فلوسي : الشيخ محمد الغزالي غصن باسق في شجرة الخلود (دار الريحانة ط 1، 1420- 1999)،ص 15

2- المرجع نفسه، ص 15- 16.

برئاسة محمد وحيد الأيوبي، وحزب الوفد برئاسة سعد زغلول، وحزب الاتحاد برئاسة يحيى إبراهيم،وحزب مصر الفتاة برئاسة أحمد حسنين،وغيرها من الأحزاب التي دعت إلى الفكرة القومية، وبناء الوطن بتضافر جهود الجماعة الوطنية.

2- الاتجاه الليبرالي الديموقراطي:

ظهرت أحزاب هذا الاتجاه على يد جمهرة من المثقفين الذين أخذوا بأساليب الممارسة السياسية في أوروبا، ورأوا أن هذا الاتجاه الجديد يحمل معاني التقدم والحرية والتطور والتجدد، ويقاول الجهل والجمود،والتخلف والاستبداد وقد حاولت أحزاب هدا التيار الجمع في صيغة توافقية بين مصالح الاحتلال والتعاون معه، وتحقيق الاستقلال غير الكامل وبصورة تدريجية مع مراعاة ما تقرره السلطة الرمزية الموجودة في ظلال الاحتلال المتمثلة في الخديوية ثم الملكية بعد ذلك [1] ومن أهم أحزاب هذا التيار،الحزب الوطني الحر كحزب عميل للاحتلال، وقد اتخذ هذا الاسم في محاولة لضرب الحزب الوطني جناح مصطفى كامل، وجناح حافظ عوض وحزب الإصلاح على المبادئ الدستورية برئاسة علي يوسف، وقد نشأ هذا الحزب كنتيجة للصراع السياسي بين الخديوي والحزب الوطني (بقيادة مصطفى كامل) والحزب المصري الذي نشأ كرد فعل على انعطاف الحزب الوطني نحو الاتجاه الإسلامي خاصة بعد وفاة مصطفى كامل ومجيء محمد فريد. وانخرط في الحزب المصري على وجه أخص كبار أعيان الصعيد من طائفة الأقباط، وبعض الأثرياء كما كان هذا الحزب ترجمة للفكر السياسي القبطي.

3- الاتجاه اليساري :

ترجع بدايات ظهور هذا الاتجاه السياسي إلى ثورة 1919 وقد حمل شعار التوجه الاشتراكي كوكبة من المثقفين من أمثال الدكتور منصور فهمي، وعزيز مرهم وإبراهيم الشواربي، وأمين عامر

1- مسعود فلوسي : الشيخ محمد الغزالي م ، س ص 18 .

وغيرهم... أما عن أول نواة تنظيمية على شكل حزبي لهذا الاتجاه فيميل بعض الباحثين إلى القول بأن جوزيف روزنتال هو رائد الشيوعية في مصر، ومؤسس أول حزب شيوعي فيها 1920 م.

ويمكننا أن نعتبر ذلك بمثابة البذور الأولى للأحزاب الاشتراكية في مصر في هذا القرن وأول استجابة له (الحزب) كانت بين الموظفين، والصناع الأجانب من النمساويين واليونانيين والروس؛ الذين كانت غالبيتهم من اليهود ثم من العمال المصريين، وبعض شباب الطلبة، ويظهر أن عدم تحمس الوطنيين كثيرا لهذا الحزب كان وراء الإقبال الكبير للعناصر الأجنبية عليه، وسرعان ما توسع نشاط هذا التيار في ظل الحماية الأجنبية التي يتمتع بها. وقد توجس كثير من الوطنيين خيفة من هذا الاتجاه الجديد أثناء بداياته الأولى، ومن بينهم زعيم الوفد سعد زغلول الذي سمع بهذا التنظيم وهو في باريس، فقرر التصدي له وأوعز إلى الوفد بضرورة السيطرة على النقابات العمالية كي لا تستغل من قبل هذا الاتجاه، وتحت ضغط الحكومة عقد الحزب جلسة في شهر ديسمبر 1922 قرر فيها إخراج روزنتال منه نهائيا وتغيير اسم الحزب إلى " الحزب الشيوعي المصري "... وقد حدث عقب تحويل الحزب إلى حزب شيوعي أن اشتد النشاط الشيوعي، ومضى يحرض العمال على الإضراب وعلى العمل المباشر وفي ذلك الحين كانت الحياة السياسية في مصر تجتاز دور انتقال كبير. كان دستور 1923 قد صدر وعاد سعد من منفاه، وقاد الوفد وأعلن نزوله في المعركة الانتخابية وتولى زعامة الحكومة الدستورية وفي تلك الفترة قرر الحزب القيام بعمل سريع لنشر النشاط الشيوعي، فأوعز إلى العمال بأن يخلوا بالمصانع إخلالا مستمرا فاعتبرت هذه الحركة في نظر حكومة سعد إشارة لبدء تنفيذ الفكرة الشيوعية فهبت لمقاومة الحركة بكل قواها بالقوة المسلحة، وتابعت دعاة الشيوعية حتى استأصلت جذورها [1].

و الحق أن مواقف سعد زغلول الصارمة من التيار الشيوعي لها ما يبررها عند مؤرخي الحركة

1- عبد العزيز رفاعي : الديمقراطية والأحزاب السياسية في مصر الحديثة والمعاصرة (القاهرة : دار الشروق، ط 1 ،1977 م) ص 17.

الوطنية المصرية، فما أدركه هذا الزعيم الوطني، ووقف عليه إزاء ذلك التوجه الإيديولوجي والسياسي يقذي عيون كل وطني غيور على وطنه .. وقد دفعته هذه الحقيقة إلى رفع عقيرته بالتحذير من عناصر الاتجاه الشيوعي الذين يتوارون بمظلة المطالب الإجتماعية والعمالية، وهم في الأصل يهودا ينتوون الشر للمصريين. يقول الأستاذ صلاح عبد الصبور في نفس السياق : " إن سعد زغلول استعمل بعض وسائل القمع ضد من كونوا أحزابا وتكتلات شيوعية قي مصر ما بين عام 1922 م وعام 1924 م ولكننا لا نريد أن نغلو في مؤاخذته على هذه التهمة بل لا نريد أن نؤاخذه إطلاقا فقد كانت معظم هذه القيادات من يهود فلسطين، وكانت تتستر برداء الشيوعية إخفاء لحقيقتها الصهيونية فضلا عن احتمائها بمظلة الامتيازات الأجنبية، ويكفي أنه كان بين الأسماء اللامعة في هذه الحركات شارلوت، جوزيف روزنتال وشالوم بولاك وريدل هارسليك وقسطنطين قايس وغيرهم . . . كما يندرج تحت لواء التيار الشيوعي حزب العمال الذي ترأسه عباس حليم، وحزب الفلاح برئاسة إسماعيل مظهر، وحزب جبهة مصر الذي كان رئيسه علي ماهر [1].

4- الإخوان المسلمون :

لم يكن تيار الإحياء الإسلامي بمنأى عن تفاعلات الساحة المصرية فلم يقف موقف المتفرج أو المحايد من سياسة الإقطاع العام، ومن وراء ذلك السياسة الملكية الفاسدة والاحتلال البريطاني، وقد عمل رجالات هذا التيار على الدعوة لفكرة الجامعة الإسلامية باعتبارها الفكرة القادرة على جمع شمل المسلمين في مقاومة ورفض التشرب بروح الحضارة الأوربية التي تريد تذويب الأمة الإسلامية والقضاء على هويتها [2]. كانت لدعوات أقطاب الفكرة الإسلامية كجمال الدين

1- صلاح عبد الصبور: قصة الضمير المصري الحديث (بيروت : دار اقرأ د. ت) ، ص 143

2- يوسف القرضاوي : الحلول المستوردة جنت على أمتنا (قسنطينة ، الجزائر دار البعث،د.ت) ، ص 82.

الأفغاني (1254- 1314 هـ، 1838-1897م) ومحمد عبده (1266-1323 هـ، 1849-1905م) ومحمد رشيد رضا (1282-1354 هـ، 1865-1935م)، والأمير شكيب أرسلان (1286-1366 هـ، 1869-1946 م) وغيرهم من رواد هذا الاتجاه، الأثر البالغ في تبلور الوعي بضرورة إحياء الرابطة الإسلامية العظمى.

وتمكن الإمام حسن البنّا (1324- 1368 هـ،1906- 1949 م) من صوغ أفكار من سبقه – في هذا الاتجاه – في صورة مؤسسة تربوية واجتماعية واقتصادية متكاملة وشاملة في الدعوة والفكر والحركة عرفت بجماعة الإخوان المسلمين... وقد شبّ حسن للبنّا في بيت علم وصلاح؛ فوالده الشيخ أحمد عبد الرحمن البنّا من العلماء العاملين، له كتاب " الفتح الربّاني لترتيب مسند الإمام أحمد " وقد بدأ اهتمام حسن البنّا بالعمل الإسلامي — في سن مبكرة – في جمعية الأخلاق الأدبية ثم جمعية " منع المحرمات "، كما تأثر بالطريقة الحصافية التي أصّلت في نفسه معاني الزهد والصفاء والتجرد، وقبل أن يتخرج من البنّا من دار العلوم عام 1927. كانت قد تبلورت في فكره معالم الدعوة الإسلامية حيث تعاهد مع ستة نفر من إخوانه على تشكيل أول نواة لجماعة الأخوان المسلمين، وكان ذلك في شهر ذي القعدة (1347 هـ – 1928 م) وكان تميزها من أول يوم بالعودة إلى الكتاب والسنة وتجاوز الخلافات الجزئية والمذهبية [1]. يقول الدكتور محمد مورو: " تكمن قيمة حسن البنّا في أنه جاء في عام 1929- 1949 وكانت الأمة تمر بأقسى مراحل حياتها في لحظة مفصلية، تعرضت فيها لسقوط الخلافة كجامع وموحد للأمة عام 1924 م وتفشت الدعوات الإقليمية الانعزالية والدعوات اللاأخلاقية، ومدارس الفلسفة الغربية النابعة من قيم الحضارة الغربية وتراثها ... جاء حسن البنّا في هذا الوقت ليعيد إلى الأمة تماسكها بدينها وتمسكها به، وليجلو الوجه الحقيقي والمشرق للإسلام، وليجعله معيارا للسياسة والسلوك والمنهج ... جاء حسن البنّا ليعيد إلى الأمة الإسلامية قيمها الإيجابية في الوحدة والجهاد، وهي

1- فريد عبد الخالق : الإخوان المسلمون في ميزان الحق الجزائر (دار الانتقاضة ط 1 : 1991 م) ص 26.

القيم الكفيلة باستمرار أمتنا ووجودها [1]. من هذا الفهم انطلق حسن البنّا في دعوته بالعودة إلى الإسلام الحنيف، فتأثر كثيرون بدروسه، ولقاءاته بشأن العمل لعزة الإسلام، وخير المسلمين خاصة أن معظم الأحزاب التي كانت في الساحة تفتقر إلى الرؤية الواضحة في ربط الأمة بجذورها الإسلامية، والروابط التاريخية بين الشعوب الإسلامية... هكذا كانت مبادئ جماعة الإخوان المسلمين في تحرير الوطن الإسلامي من كل تسلط أجنبي، وقيام دولة إسلامية في الوطن الإسلامي الحر تعمل بأحكام الإسلام، وتطبق تعاليمه [2].

وقد حدد حسن البنّا هذه المراحل لعمل جماعته، ولكل مرحلة خطواتها ووسائلها :

أ- مرحلة التعريف والتبشير بفكرة الجماعة .. وإيصالها إلى الجماهير من طبقات الشعب على اختلاف مستوياتهم من عمال وفلاحين وطلاب وموظفين وأساتذة جامعات وغيرهم من الذين التفوا حولها وأصبحوا من أتباعها. وفي هذه المرحلة أصدر الإخوان " مجلة الإخوان المسلمين" وكانت تصدر أسبوعيا، وتعبر عن مواقفهم إزاء كل القضايا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية .. كما أصدروا مجلة النذير.

ب- في هذه المرحلة أهاب البنا بالملوك ورؤساء الحكومات بأن يحكموا بشريعة الله، حتى يتمكنوا من تحقيق مطالب الشعب الوطنية والإصلاحية.

ج- في الرحلة الثالثة استكملت الجماعة تركيبها البنائي، وأنظمتها الداخلية المحكمة وحددت مواقفها من القومية والوطنية والوحدة، وقد ضمت رسالة المؤتمر الخامس وقائع هذه المرحلة.

د- أما المرحلة الرابعة فقد انخرط الإخوان في الساحة السياسية، وأسفروا عن منهجهم في الإصلاح الاجتماعي، والبناء الوطني، وبينوا أن منهجهم يتجاوز الحدود الوطنية والإقليمية إلى

1- صلاح شاذي : الشهيدان حسن البنّا وسيد قطب (الجزائر، دار الشهاب، د.ت) ص 12.

2- فريد عبد الخالق : الإخوان المسلمون في ميزان الحق الجزائر (مرجع سابق) ص 20.

الاهتمام بكل قضايا الأمة الإسلامية وذلك من خلال اشتراكهم في حرب فلسطين سنة 1948م، ووقوفهم إلى جانب كل القضايا ومشكلات العالم الإسلامي [1].

ورغم أن منهج الإخوان كان شاملا في برامجه الإصلاحية، بيد أنهم انعطفوا بعد عقدين من نشأتهم باتجاه العمل السياسي - والتركيز عليه بصورة خاصة – حيث كانوا ينظرون إلى الاصلاح السياسي عن طريق المشاركة السياسية كفريضة واجبة خاصة بوجود الاحتلال الأجنبي، وضعف الحكومات التي سمحت ليد المستعمر أن تتحكم بها في رقاب الناس كما تشاء له أطماعه وخططه.

ومما زاد الأمر سوءا انتشار الجهل بالإسلام، وعجز خطباء المساجد والعلماء التقليديين والفقهاء الرسميين عن التغيير، وقد كان هم الكثيرين منهم إصدار الفتاوى الجاهزة حتى أن بعضهم أفتى عقب سقوط الخلافة الإسلامية على يد مصطفى كمال أتاتورك بصلاحية الملك فؤاد - ثم نجله الملك فاروق بعد ذلك - لارتياد هذا المنصب الخطير، وذلك رغم ما عرفه القاصي والداني عنهما من فساد وانحراف وخيانة ! وهكذا حمل البنا لواء التغيير، وعمل جاهدا في رسم الخطوط المؤلفة للإصلاح ، فاهتدى بذكائه الخارق إلى أن الإصلاح سبيله الوحيد هو الدين... " فأنفس المصريين أشربت الإنقياد إلى الدين حتى صار طبعا فيها، فكل من طلب إصلاحها من غير طريق الدين فقد بذر بذرا غير صالح للتربية التي أودعه فيها، فلا ينبت ويضيع تعبه ويخفق سعيه وأكبر شاهد من أثر التربية التي يسمونها أدبية من عهد محمد علي إلى اليوم فإن المأخوذين بها لم يزدادوا إلا فسادا. - وإن قيل إن لهم شيئا من المعلومات - فما لم تكن معارفهم وآدابهم مبنية على أصول دينهم فلا أثر لها في نفوسهم... إن سبيل الدين لمريد الإصلاح في المسلمين سبيل لا مندوحة عنها، فإن إتيانهم من طريق الأدب والحكمة العارية عن صيغة الدين يحوجه إلى إنشاء بناء جديد ليس عنده من مواده شيء، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحدا، وإذا كان

1- محمد الحسن : المذاهب والأفكار المعاصرة في التصور الإسلامي، (الدوحة : دار الثقافة، ط1، 1986 م)، ص147-153.

الدين كافلا بتهذيب الأخلاق وصلاح الأعمال وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها، ولأهله من الثقة فيه ما ليس لهم في غيره، وهو حاجز لديهم... والعناء في إرجاعهم إليه أخف من إحداث مالا إلمام لهم به فلما العدول عنه إلى غيره ؟! [1]. وكل من يقف على حقيقة فكر حسن البنّا ومنهجه يدرك أنه يصدر في كل أمر دعوته عن أصل واحد ترسخ في عقله وقلبه، هو الأخذ عن الإسلام أخذا واعيا مستنيرا وأخذا عمليا واقعيا.

في اعتقادات البنّا الراسخة أن الظن بأن الدين - أو بعبارة أدق الإسلام - لا يعرض للسياسة، أو أن السياسة ليست من مباحثه هو ظلم لحقيقة الإسلام. " وأول خطئنا أننا نسينا هذا الأصل ففصلنا الدين عن السياسة عمليا، وإن كنا لم نستطع أن نتنكر له نظريا فنصصنا في دستورنا على أن دين الدولة الرسمي هو الإسلام، ولكن هذا النص لم يمنع رجال السياسة وزعماء الهيئات السياسية أن يفسدوا (الذوق الإسلامي) في الرؤوس والنظرة الإسلامية في النفوس، والجمال الإسلامي في الأوضاع باعتقادهم وإعلانهم .. وهذا أول الوهن وأصل الفساد [2]. على هذا الأساس سار البنّا بجماعته – طيلة سنوات – وكلما هبت عاصفة عمل القائد الماهر على تفاديها حتى وصلت إلى شاطئ الأمان .. وأصبحت أقوى هيئة قادرة على المواجهة وقادرة على النهوض بأثقل التبعات. وزاد من شعبية الإخوان وانتشارهم ما حفل به سجلهم الوطني في المقاومة الشعبية وجهادهم في فلسطين، واسهاماتهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في كل أنحاء مصر.

كان من الطبيعي أن يصبح البنّا وتصبح جماعة الإخوان، وقد أصبحت الخطر الأكبر والأهم وربما الوحيد عى مصالح الاستعمار الإنجليزي.. ومصالح اليهود أن يصبح حسن البنّا هدفا للتصفية، تصبح الجماعة عرضة للضرب والمؤامرات من جانب الانجليز واليهود، ومن القصر الذي بات يخشى من إطاحة الجماعة به وبنظامه الخاص وإقامة نظام دستوري يعتمد على الإسلام،

1- محمد عمارة : الإمام المتنور... والتجديد بالإسلام مجلة العربي الكويتية العدد 454. (سبتمبر م ص 1997 م، ص40).

2- حسن البنّا : مجموعة رسائل الإمام الشهيد (مكتبة ريحاب / الجزائر د. ط) ص 60- 61.

حتى الأحزاب المصرية لم تتورع عن ضرب الجماعة في أول فرصة اهتبلتها خاصة من رئيسي حزب السعديين أحمد ماهر ومحمود فهمي النقراشي ... هكذا دبروا بليل، واشتملت خطتهم على عدة أبعاد أولها، حل الجماعة ومصادرة أموالها، واعتقال أعضائها - مع عدم اعتقال حسن البنّا تمهيدا لاغتياله في 12 فبراير 1949.

وعندما نفذت المؤامرة علقت مجلة آخر ساعة الناطقة بلسان الحكومة السعدية بقولها : " لقد تخلصت الحكومة من جماعة يمكن اعتبارها أقوى خصومها. هذه الجماعة لم تكن مجرد حزب بل كانت تشبه دولة كاملة بأسلحتها ومستشفياتها ومدارسها ومصانعها وشركاتها ...[1]. هذه هي أهم التيارات السياسية التي صنعت المشهد السياسي المصري خلال العقود الأولى من القرن العشرين مع تفاوت نسب شعبيتها وثقلها في العهد الملكي.. ثم قامت ثورة يوليو 1952 بإلغاء الأحزاب سنة 1954، وفرض الأحكام العرفية بحجة إعادة تنظيم الواجهة السياسية في مصر، ولم يعرف الشعب المصري - طيلة حكم الثلاثة عبد الناصر، السادات، مبارك - أي تداول فعلي للديموقراطية الحقة، فالتجربة الناصرية قامت عى أساس مؤسسة عسكرية تستتر وراء الحزب الواحد؛ أما السادات فقد أدخل – ظاهرا - بعض التعديلات السياسية؛ بحيث تصبح في شكلها الخارجي أقرب ما تكون إلى أنظمة الحكم الديمقراطي وعلى نهجه سار السادات ثم حسني مبارك بعد ذلك .. ليتم خلعه في ثورة 25 يناير 2011 من طرف الشعب المصري الذي بدأ يتنسم أولى آفاق العملية الديمقراطية عن طريق انتخاب الرئيس محمد مرسي، هذا الأخير الذي أطاح به العسكر في الثالث من يوليو 2013... ولا يزال المشهد المصري مفتوحا على احتمالات مجهولة..

II– الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية :

1- فريد عبد الخالق : الإخوان المسلمون في ميزان الحق (مرجع سابق)، ص 33.

كان النظام الإقطاعي السمة البارزة للحياة الاقتصادية في مصر قبل الاحتلال البريطاني.. ولم يزل الإقطاع يثقل بوطأته الغليظة على صدور المصريين حتى استطاعت الطبقة الوسطى أن تنمو شيئا فشيئا.. واخذ الشعور الوطني يزداد بفضل الثورة العرابية، والاتصال بالحضارة الغربية ومناداة الأصوات الوطنية الصادقة بضرورة التخلص من ربقة الإقطاع الذي يسام الناس بسببه الخسف والبلاء [1] وبالتدريج تمكنت الطبقة الوسطى من تسلم زمام الأمور في كثير من المجالات، بيد ان الحياة الاقتصادية طرأ عليها بعض التغيير بعد سيطرة الاحتلال البريطاني على مسرح الاحداث في مصر. فاتجهت سياسته نحو " جعل مصر بلدا زراعيا فحسب، وتركيز ثروتها الزراعية في القطن، وإهمال الزراعات الأخرى، وقد نتج عن هذه السياسة الكثير من الخسائر الاقتصادية لمصر مثلما حدث في عام 1914 بعد قيام الحرب العالمية الأولى حيث وجهت بريطانيا والحلفاء الاقتصاد المصري لتسديد خسائر الحرب. كما مكن الاحتلال للنفوذ الأجنبي خاصة في البنوك والشركات وقطاعات الاستثمار فأفرز هذا الوضع انحدارا هائلا في القدرات الشرائية، وانتشرت البطالة لاسيما بين طبقات العمال والفلاحين، وانخفضت أسعار القطن حتى اضطر صغار الملاك إلى تسديد ما عليهم من مستحقات لبيع ما يملكون من عقار وحلي " [2] وقد انعكس تركيز بريطانيا على أن تتجه مصر نحو الزراعة على القطاع الصناعي. فلم توجه سلطات الإحتلال، ولا الحكومة القائمة اهتماما نحو القطاع الصناعي، فكل ما وجد من الصناعات كان يتمثل في صناعات محلية، تعتمد بشكل رئيسي على المنتجات الزراعية من القطن وغيره ثم وجدت عوامل ساعدت على تقدم الصناعات كالتعليم المهني ووجود وزارة التجارة والصناعة وتعديل النظام الجمركى (سنة 1930 م) والذي يقضي بحماية الصناعات المصرية من غزو الصناعات الأجنبية. وقد كانت التجارة المصرية متأثرة – شأنها شأن الزراعة والصناعة – بسياسة بريطانيا وغزو

1- صلاح عبد الصبور : قصة الضمير المصري الحديث (مرجع سابق) ص 142-143.

2- المرجع نفسه : ص 143.

الأسواق المصرية بالصناعات الأجنبية كما تأثرت التجارة بظروف الحرب العالمية، والإمتيازات الأجنبية.

مما جعل الميزان التجاري متأرجحا في كثير من الأحيان كما حدث في الحرب العالمية الثانية حيث أصيب الميزان التجاري بالعجز الدائم، والخسارة الفادحة، ولما قامت ثورة يوليو سنة (1952) سعت إلى تحسين الظروف الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع المصري؛ فعمدت إلى تصفية الإقطاع وإعادة توزيع الأراضي الزراعية وأصدرت بهذا الشأن قانونا يحد الملكيات الذي نص على أنه لا يجوز لأي شخص أن يمتلك من الأراضي الزراعية أكثر من مائتي فدان، وما تبقى من الملكيات الكبرى بعد هذا التحديد تستولي عليه الدولة لتوزعه على الطبقة الكادحة، غير أن تلك الآمال لم تدم طويلا بسبب صراع القوى واختلال الموازين الدولية التي تؤدي باستمرار إلى تغيير توجهات الأنظمة، وبرامج الثورات فضلا عن كون هذه الثورة لم تكن تحمل رؤية شاملة أو منهجا واضحا في التغيير والبناء الاجتماعي وبهذا الخصوص يمكننا القول أن ثورة يوليو 1952 كانت محددة للغاية من مواقفها الضدية اتجاه الإقطاع أو رؤوس الأموال ... الخ، ولكنها كانت أقل وضوحا في مطروحاتها البديلة، وقد أدت هذه الأسباب وغيرها إلى تفاقم الأوضاع التي لم تزد إلا تدهورا، مما حدا بالكثير من المصلحين إلى رفع شعار الاحتراب الإجتماعي " من أجل تحقيق العدالة – يقول سيد قطب : "لم يعد أحد يجادل في أن توزيع الملكيات الزراعية في المجتمع المصري، يجب العمل على تعديله فورا، وليس الاختلاف اليوم على صحة هذه الحقيقة، وإنما الاختلاف على الطريقة التي يعالج بها وضع لا يقبل البقاء، وحين يصل الأمر إلى أن يملك ألف ومائتان وأربعة وتسعون فردا مليونين من الأفدنة الصالحة للزراعة في بلد يصل تعداده إلى عشرين مليون من الأفدنة، فإنه لا يبقى مجال للاختلاف على سوء التوزيع واختلاله وفساده والأمر في

الثروات المنقولة أشد سوءا، فإن من لا يزيدون على ألفين يملكون أكثر من ثلث الثروة المتمثلة في البنوك والشركات "[1].

وكانت مصر تعاني بالإضافة إلى تسلط الإحتلال الأجنبي، من رواسب تراكمت من حكم المماليك، وأسرة محمد علي التي استباحت خيرات مصر، وعاثت فسادا وتبذيرا، " فمحمد علي المثال الأول لهذه الأسرة كما يصفه المؤرخ الفرنسي " شامبيليون " ليس له من مآرب سوى ابتزاز أكبر قدر ممكن من أموال الدولة، ولما كان يعلم بأن أسلافه الأقدمين كانوا يصورون مصر على هيئة بقرة، فإن محمد علي لا يتورع عن حلبها وإنهاكها ليل نهار انتظارا لشق بطنها، ونحرها في وقت قريب "[2].

كما عمل الاحتلال البريطاني، والحكم الملكي في مصر على تكريس الفوارق الطبقية في المجتمع المصري "فهناك طبقة كبار الملاك الذين يحيون حياة مترفة، وبجانبهم طبقة الأغنياء أصحاب الأموال الكثيرة. ويقابل هؤلاء طبقة صغار الملاك الذين يكدحون من أجل لقمة العيش. وغير الملاك الذين يعجز الواحد منهم في كثير من الأحيان عن سد حاجاتهم وعائلتهم "[3] وهؤلاء هم غالبية الشعب المصري - الذين عانوا من تدهور أوضاعهم المادية والصحية والمعنوية، وانتشرت فيهم الأمراض والأوبئة وقد أخذت هذه الطبقة تنموا شيئا فشيئا حتى استطاع أبناؤها المنتمون إليها أن يفجروا الثورة ضد المحتل البريطاني سنة 1919 م. الشيء الذي يمكن أن نعده نجاحا للطبقة الوسطى ضد قوى الاحتلال والقصر والإقطاع التي كانت تعمل جاهدة على استغلال الشعب واحتكاره، وخنق حرياته.

ويمكننا القول أنه رغم وعي الشعب المصري الذي تفتق وتبلور - في بدايات القرن العشرين – في شكل أحزاب سياسية كانت تسعى إلى رفض كل صور الاستغلال والتبعية. ولكنها في

1- سيد قطب : معركة الإسلام والرأسمالية (دار الكوثر، د.ت) ص 38.

2- عزة بدر : رحلة في أعماق التاريخ : " رحلة شامبيليون " مجلة العربي الكويتية العدد 449، أبريل 1996، ص 160.

3- سيد قطب : معركة الإسلام والرأسمالية، (مرجع سابق) ، ص 38.

المقابل لم تحاول تحسين النظام الاجتماعي العام، بل لم توليها أي شكل من أشكال الاهتمام، وقد يعود هذا إلى افتقار حركة التحرر الوطنية إلى نظرية اجتماعية واضحة المعالم تسير على هديها.. فلا نكاد نجد للأحزاب السياسية في التاريخ المصري فكرا سياسيا اجتماعيا بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة، فرغم أن حزب الأمة نشأ في حضن المفكرين إلا أننا نجد فكرهم تعميمي أحيانا، ووقتي مرحلي أحيانا أخرى، ولن نستطيع أن ننسبهم أو ننسب الأحرار الدستوريين الخارجين من معطفهم إلى نظرية اجتماعية بعينها. إلا ما يزعمونه من الليبرالية أو التمسك بالدستور، أما الوفد فقد كان سعد زغلول منصرفا تمام الانصراف عن القضية الاجتماعية. فلم تؤهله ثقافته الأولى التي حصلها في الأزهر والمحاماة وصحبته الأولى من الأفغاني إلى محمد عبده إلى حزب الأمة، لم تؤهله هذه الثقافة لكي يفطن إلى أن للحرية والاستقلال جانبا اجتماعيا، كما لم تمهله سنوات قيادته القصيرة للحركة الوطنية مع ما ازدحمت به هذه السنوات من أحداث لأن يتبصر في الواقع الاقتصادي والاجتماعي لمصر " [1] وقصارى القول أن رجالات الحركة الوطنية المصرية كانوا يفتقرون للنظرة الشمولية العميقة للأوضاع في عملية النضال والتغيير ففصلوا أجزاء الكل بعضها عن بعض. ونظروا إلى كل أمر منفصلا عن غيره؛ فنظروا إلى الاقتصاد منفصلا عن السياسة، وإلى المجتمع بعيدا عن الفرد، ذلك أن كل واحد من هذه الجوانب يؤثر في الجوانب الأخرى سلبا أو إيجابا، ولا يسوغ بحال من الأحوال أن يستقل مجال منها بالعمل وحده دون أي صلة بالمجالات الأخرى فلا تعاون ولا تنسيق..

وخلاصة القول أن الاقتصاد المصري بقي مستغلا من طرف الاقتصاديات العالمية التي لم تتوان لحظة في استنزافه وإجتناء كنوزه والنزول به أحيانا إلى هاوية الإفلاس والدمار، وازدادت الأوضاع الاجتماعية تدهورا وسوءا في غياب أية حلول عملية ترمي إلى تحسين النظام الاجتماعي، وقد ادى الفشل في استقطاب الطاقات المعطلة إلى زيادة وتيرة الهجرة من القرى والأرياف إلى المدن الكبرى إلى درجة أن كثيرا من الناس سكنوا المقابر وسطوح العمارات، وبالرغم من الجهود

1- يوسف القرضاوي : هموم المسلم المعاصر (الجزائر دار الشهاب، د.ت) ص 105.

التي تقوم بها الدولة إلا أن كثيرا من مناحي الحياة الاجتماعية لم تتغير بصورة كافية عما كانت عليه إبان العهد الملكي.. وأمام هذا الوضع اضطرت الكفاءات العلمية والعناصر الممتازة القادرة على البناء والإبداع إلى الهجرة خارجا باتجاه دول الخليج أو أوربا وأمريكا. وقد تدبر المفكرون والمصلحون في تلك الأوضاع الاجتماعية وحاولوا أن يتمثلوا لها القواعد التي يجب أن تنطلق منها الحلول الخاصة بالإصلاح الاجتماعي في القضاء على التظالم الاجتماعي الذي تئن تحت أثقاله الفئات الضعيفة والكادحة ووجوب المسارعة إلى علاجه تحقيقا للعدالة الاجتماعية، وإلى هذا يدعو سيد قطب بقوله.. " إني أتهم هذه الأوضاع الاجتماعية الحاضرة بأنها تشل قوى الأمة عن العمل والإنتاج، وتشيع فيها البطالة والتعطل وتقعدها عن استخدام مواردها الطبيعية والبشرية. وتؤدي بها إلى الضعف عن مواجهة الأخطار الداخلية والأخطار الخارجية التي تتزايد وتبرز على مر الأيام.. إن أرضنا تملك أن تنتج أضعاف ما تنتج من غلات، ولكن لماذا لا يتم هذا ؟ لأن هذه الأرض لا تزال موزعة كما كانت موزعة في أظلم عهود الإقطاع فهي محتكرة في أيد قليلة لا تستغلها استغلالا كاملا، ولا تدعها للقادرين على استغلالها ممن لا يملكون شيئا .. إني أتهم الأوضاع الاجتماعية القائمة بأنها تهدر الكرامة الإنسانية، وتقضي على كل حقوق الإنسان " [1]، وقد وقف سيد قطب على جملة من الظواهر الخطيرة التي أفرزتها الظروف الاجتماعية السيئة، ففي غياب الأخلاق تشيع رذائل الانحراف والميوعة والمجون والعبث .. " لقد انتهينا في مصر إلى مجتمع منحل مستهتر مريض يفعل جميع العوامل السيئة الناشئة من الاختلال الاجتماعي الذي وصفنا أعراضه فيما سبق، والناشئة كذلك من التيار العالمي المنحدر بين الحربين العالميتين الكبيرتين، والحروب بطبيعتها تخلخل بناء المجتمع، وتجرف معها الاستهتار والانحلال على الأقل بحكم التعرض للخطر والموت... و أياً كانت الأسباب، قد انتهينا إلى مجتمع تشيع فيه الفاحشة ويطفو على سطحه الاستهتار، ويبدو الانحلال في كل جوانبه سواء ما يتعلق بالجنس وما يتعلق بالمخدرات،

1- سيد قطب : معركة الإسلام والرأسمالية، (مرجع سابق) ، ص 8- 10 – 107.

وما يتعلق بالذمة والضمير والخلق في العمل والسلوك [1]. ونخلص - مع سيد قطب - إلى أن القضاء على التظالم الاجتماعي الفاسد، وتحقيق النمو والتقدم والإنتاج لا يكون واقعا عمليا إلا في ظل مجموعة حتمية من الأخلاق والفضائل التي تدعم المنظومة الاجتماعية.

III- الأوضاع التربوية والثقافية :

منذ ظهر في مصر محمد علي باشا على مشارف القرن التاسع عشر، وهناك محاولات كثيرة لتغريب مصر ثقافيا وتربويا؛ وقد بدأها محمد علي عند قيامه بإرسال البعثات تلو البعثات إلى فرنسا. وسار أبناؤه على نهجه حتى بلغ الأمر بحفيده إسماعيل باشا أن حاول جعل مصر " قطعة من أوربا " .. ثم جاءت الحملة الفرنسية، فالاحتلال الإنجليزي، هذا الأخير الذي لم يكن مجرد احتلال جيش، ولكنه عملية حضارية تستهدف تذويب هوية مصر الإسلامية في تيارات التغريب الذي يشكل الضربة القاصمة التي أراد الغرب إنزالها على رأس الأمة، لأنه يحمل سمة الإتباع والإلحاق والتقليد وفقدان القدرة على الاستقلال والإبداع. مما يكرس حالة السيطرة الاستعمارية بكل أبعادها، وليس كما توهم البعض سوف يجعل من مصر بلادا أوربية؛ فالسير على طريق التغريب يحصر الصراع في الملعب الذي اختاره الغرب ووضع قوانينه، وعين حكامه ومن ثم لا تكافؤ منذ البدء، وكيف يكون التكافؤ حين تفقد الأمة روحها وفكرها الأصليين، وتتيه في شعاب التغريب، فتضيع وتميع وتفقد الاتجاه [2] وقد أدرك المحتل أن مشروعه التغريبي لن يجدي نفعا ما لم تقع الهزيمة في العقول والنفوس والإرادة. وما لم تتجه الأفكار والثقافة والحضارة والمؤسسات باتجاه تكريسها، ويتطلب هذا الأمر القيام بمهمة مزدوجة تعبر عن سمتين.. أولاهما محاربة الإسلام وإبعاده عن العقول والنفوس والإرادة، ونفيه عن الثقافة والحضارة والمؤسسات، وثانيهما، إعادة صياغة الأفكار والثقافة والحياة الحضارية على أسس غربية بحيث تصبح مدارس الفكر والفلسفة الغربية

1- سيد قطب : معركة الإسلام والرأسمالية، (مرجع سابق))، ص 107.

2- منير شفيق : الإسلام وتحديات الانحطاط المعاصر (الزهراء للإعلام العربي، ط 2 ، 1987)، ص 90.

هي الدليل لفكر الأمة، وبحيث تحل قيم الحضارة الأوربية مكان قيم الحضارة الإسلامية فتتغير الأخلاق والعادات، والأنماط الحياتية الغربية [1].

على أن أخطر ظواهر الاستعمار التقليدية، كانت محاولته في فرض لغته أو لا مكان اللغة العربية - لغة القرآن والتاريخ والتراث - ولعل أبرز تلك المحاولات كانت على يد " دنلوب "؛ الذي كان يعمل لاحتلال هدفه تكريس قاعدة الهدم الصريح للغة العربية في كل الميادين. فعمد دنلوب إلى تصفية المناهج الدراسية من آثار الفصاحة والبيان، ومن مفاهيم الإسلام وآثاره في كتب المطالعة، فلما تقدم الاستعمار خطوة نحو احتواء المصريين أنفسهم ليكونوا يده العاملة عين سعد زغلول (ناظرا) للمعارف في أكتوبر 1906 فمضى في تنفيذ مخطط الاستعمار الذي كان (دوفرن) قد وضعه عام 1882 (...) ولما ارتفعت الأصوات بالمطالبة بإقرار اللغة العربية لغة أولى للتعليم عارض ذلك ناظر المعارف [2]. وقد برزت في هذا القرن مؤسسات تعليمية مهمة لعبت دورا بارزا في المحافظة على فكر الأمة وأصالتها وأثرت في الحياة الثقافية وخرجت عددا من العلماء والمفكرين، الذين أسهموا بدورهم في نهضة مصر الحديثة وهذه المؤسسات هي الأزهر الشريف، ودار العلوم والجامعة المصرية .. وإذا ما نظرنا إلى الحياة الفكرية – آنذاك - وجدناها تموج بتيارات متعارضة وأفكار متباينة تضافرت جميعها في خلق نهضة هائلة في الحركة الأدبية والفكرية والفلسفية وكان الإسلام وبواعث تجديده، تمثل روح هذه الحركة وقد ساعد على ذلك نزوع الشعب المصري الطبيعي الفطري إزاء الإسلام، وإخلاصه العميق لتعاليمه وقيمه، يضاف إلى ذلك بطبيعة الحال أثر رد الفعل الطبيعي أيضا ضد مشروع الاستعمار، كما كان لصيحات جمال الدين الأفغاني وتلميذه محمد عبده في اليقظة والصحوة وأفكار الشيخ محمد رشيد رضا وحسن البنا. أثرها الفاعل على مسار الاستنهاض العلمي والفكري والأدبي إلا أن اشتباك الثقافة الأصلية مع الفكر الوافد مع الاحتلال البريطاني استنزف طاقة هائلة من الجهود التى كان يمكن استغلالها في عملية البناء الاجتماعي والتأسيس الثقافي ولئن أفلحت هذه الجهود في تقريب الكثير من الآراء والتوجهات التي كانت سائدة . غير أن الطرفين الرئيسين – التوجه الأصيل والتوجه الدخيل – بقيا على طرفي نقيض والسبب الأول إنما هو شدة تطرف التوجه العلماني.

1- المرجع نفسه : ص 90.

2- أنور الجندي : الفصحى لغة القران (بيروت، دار الكتاب اللبناني 1982) ص 161.

والذي عمق الاتجاه التغريبي الذي حفر الاستعمار أخاديده، واندفع بذلك إلى مستويات أبعد سيرة الأوربيين، **و يسلك المصريون** طرقهم لنكون أندادا ونكون لهم شركاء في الحضارة خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يحب منها وما يكره، وما يحمد منها وما يعاب " [1].. **وقد** " ظهر في **ميدان النثر والشعر العقاد والرافعي و طه** حسين والمازني ومحمد حسنين هيكل وشكيب أرسلان. وأحمد حسن الزيات وأحمد شوقي وحافظ إبراهيم وأحمد زكي أبو شادي وغيرهم وبرز في الفلسفة والفكر منصور فهمي ومصطفى عبد الرزاق وأحمد أمين.. وفي مجال الدراسات الدينية وجد جمع كبير من العلماء من أمثال الشيخ محمد عبده ومحمد رشيد رضا ومحمود شلتوت ومحمد البهي ومحمد أبو زهرة ومحمد الخضري وغيرهم كثير جدا. وقد أسهم هذا الجيل من القمم في انتعاش الحركة الأدبية وازدهارها بشكل ناهزت فيه تألق الحياة الأدبية والفكرية في العصر العباسي الأول، فلم يحدث في تاريخنا الأدبي أن تعاصر فيه مجموعة من العمالقة كما حدث ذلك خلال هذه **النهضة الحديثة** " [2] لقد قدر لهؤلاء الرواد أن يقفوا في مواجهة أكبر التحديات الحضارية، والتي كانت تستهدف الأصول الفكرية والروحية لهذه الأمة من قبل الاستعمار الثقافي والحضاري.

[redacted] إن هذه النهضة الأدبية بلغت أوج قوتها على وجه أخص بين الحربين الكونيتين وازداد **الصراع الفكري بين** التيارات المتباينة خصوصا مع عودة التوجه الشعبي العميق **على منابعه** [redacted] الإسلامية الأولى، وتجاوبه مع طروحات حركة الإحياء الإسلامي بوضوحها وتوازنها، وقوة تأثيرها ووجود رصيدها في فطرة الشعب وأعماقه.. وإذا ما ألقينا نظرة على مؤسسات التربية والتعليم – في أوائل القرن **العشرين** – وجدنا أن أول جامعة حديثة في مصر سنة **1908، أما أول جامعة حكومية فكانت سنة 1925 وهي الجامعة المصرية، وقد أخذ الاستعمار الفكري – من أول يوم** – يوجه هذه الجامعة ويراقبها،ويضع لها اهدافها ومناهجها التي يرضي لها ويضع لها من الأهداف والمناهج الكتاب الذي يخدمها، والأستاذ الذي ينقل هذه المناهج من السطور إلى الصدور، كذلك

1- يوسف القرضاوي : الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا ((دار البعث، د.ت) ص 41.

2- محمد الغزالي : مشكلات في طريق الحياة الإسلامية (مكتبة رحاب، د.ت) ص 81.

وقف رجال الأزهر في وجه التعليم الغربي، لما رأوا فيه من بذور فكر غريب على الإسلام وثقافة مجافية لروحه، وتعاليمه وهذا ما جعل اللورد لويد – المندوب السامي لبريطانيا آنذاك – يشكو من هذا المعهد الناشز الذي استعصى على سياسته الاستعمارية الماكرة فلنسمعه بقول: " إن أهمية بوصفه مركزا من مراكز الدعاية المعارضة لبريطانيا كبيرة ومتعددة الإمكانيات، وقد أدرك الوطنيون ذلك فحاولوا استغلاله لتأييد مآربهم، وترتب على ذلك نمو روح المعارضة الشديدة لسيطرة الإنجليز على التعليم، فلو أمكن تطوير الأزهر عن حركة تنبعث من داخله هو لكانت هذه خطوة جليلة الخطر (...) حيث يصبح الأمل محصورا في إصلاح التعليم اللاديني (المدني) الذي ينافس الأزهر.. وعزل الأزهر عن الحياة وعزل خريجوه عن التأثير في المجتمع. وبخسوا حقهم في الوظائف والأعمال " [1] وسار الأمر في مصر على هذا النحو، فضلا على أنه "سبب شللا وصراعا بين الوافدين من ذوي الثقافة النصرانية المادية، وبين أبناء التراث وبواسطة هذا الصراع تبلبلت أساليب التربية الصحيحة في مصر ، وفقدت الجامعة الأزهرية العريقة دورها الريادي " [2].

والواقع - الذي ينبغي إثباته هنا - أنه بالرغم من أن العمليات التغريبية التي لم تراع ظروف التراث والتطور التاريخي والوضعيات الاجتماعية والفكرية. بالرغم أن هذه كليا لم تنجح في زرع الفكرة التغريبية الدخيلة مكان النبض القلبي الأصيل - ولكنها نجحت في أن تخلف وراءها الشك والقلق والضياع كحصاد لوضعية من هذا النوع.

وكان من نتائج الفكر التغريبي الذي حفر أخاديده في المجتمع المصري ظهور نزعات جديدة تنادي بالقومية العنصرية والوطنية الإقليمية، وعلى ضوئهما نوقشت قضايا خطيرة تتعلق بهوية مصر هل هي عربية مسلمة حاضرا ومستقبلا أم هي بلد بحر أبيض حيث لا تستقيم حياتها إلا إذا كانت على صلة بالبحر الأبيض وتنتمي إلى اللاتينية.

1- يوسف القرضاوي : الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا (مرجع سابق) ص 27- 28.

2- عبد الحليم عويس : المسلمون ومعركة البقاء (مرجع سابق) ص 110.

يقول الدكتور عبد الحليم عويس : " هذا هو أصل القضية، وجوهر الصراع، وهو صراع مستمر يظهر تارة متواريا أثناء فترات قوة مصر ثم يظهر واضحا وعنيفا أثناء فترات ضعفها ؟! لكنه مع ذلك قد أخذ مسارا واضحا منذ مطلع هذا القرن أي منذ جثوم الصليبية الإنجليزية على مصر وسقوط أصالة بعض المصريين أمام الالتحام الحضاري بأوربا، وقيام المستعمر بتكوين مدرسة من بعض الحاقدين على الدور الذي قامت به مصر عبر تاريخها المجيد في خدمة الإسلام والعروبة. وكان الهدف الوحيد من ذلك أن تتخلى مصر عن هذا الدور.. فلهذا فلا نعجب إذا وجدنا أن أعلام كل حركة تمزيقية إنما هم من هؤلاء، وإن اتخذت هذه الحركة الوطنية أو القومية أو العلمانية ستارا تتخفى وراءه فهدفها واحد هو بقاء العالم العربي أشلاءا متناثرة لا تصلح للوقوف أمام الأطماع الاستعمارية [1].

وإلى يومنا هذا لا تزال الحياة الثقافية في مصر تفور وتمور وتمتلئ بالصراعات الفكرية الساخنة التي تهز البنيان الثقافي المصري هزا عنيفا، وهو الشيء الذي شكل إحدى سمات العلاقات الثقافية والنشاط الثقافي في مصر بين مؤسسات المجتمع المهتمة بشؤون الثقافة وتنمية الفكر وتوجيهه، وقلما يكون التصادم بين الاتجاهات الفكرية المتباينة بمنأى عن الدوافع السياسية الاستغلالية. ويلاحظ أنه منذ وقت ليس – بالقريب - أدى انتشار الأمية واضطراب الجوانب الإجتماعية والاقتصادية إلى تضاءل هامش الاهتمام بالثقافة، والتي يكون تطورها غالبا مرهون بتطور الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والعكس صحيح في علاقة جدلية مستمرة .

1- المرجع السابق نفسه : ص 120- 121- 122.

المبحث الثاني : نشأة الشيخ الغزالي ومراحل حياته

تمهيد :

يتناول هذا المبحث أهم المراحل والمحطات الحياتية للشيخ محمد الغزالي بالقدر الذي يستجيب لمتطلبات هذه الأطروحة. لأن التعرض لكل تفاصيل حياة هذه الشخصية يتطلب عملا مستقلا بذاته.

I– المرحلة الأولى : المولد والنشأة (1917 – 1943 م)

ولد الشيخ محمد الغزالي السقا في 30 محرم 1341 هـ الموافق لـ 22 سبتمبر 1917 م بقرية (نكلا العنب) مركز إيتاي البارود بمحافظة البحيرة، وهي إحدى المحافظات الكبرى بالوجه البحري في جمهورية مصر العربية .. وهذه القرية نكلا العنب لها تاريخ طيب فمنها أيضا خرج المجاهد الشاعر محمود سامي البارودي. كما " أن منطقة ايتاي البارود تخرج منها عدد كبير من العلماء والأدباء أمثال الشيخ سليم البشري، والشيخ إبراهيم حمروش والشيخ محمد عبده والشيخ محمود

شلتوت والشيخ عبد العزيز عيسى والشيخ محمد المدني والشيخ عبد الله المشد. والإمام المجدد حسن البنا وغيرهم من أفذاذ وعظماء هذه الأمة المعطاء "[1].

كان الشيخ التاجر البسيط أحمد السقا - والد الغزالي - رجلا صالحا صوفيا معجبا بحجة الإسلام أبي حامد الغزالي (450 – 505 هـ، 1058 – 1111 م)، " و قد رأى هذا الرجل الصالح - قبل أن يتزوج - أبا حامد - رحمه الله - جعل في الرؤيا يبشره بغلام إسمه (محمد الغزالي). ففرح كثيرا بهذه الرؤيا وعاش آملا في تحقيقها رغم دهشته وذهوله بهذه الرؤية غير العادية - لعل تعلقه بهذه البشرى كان تيمنا بإمرأة عمران التي وردت في القرآن الكريم - وبشاء الله العلي القدير أن يحقق له هذا الأمل الطيب فجاءته البشرى وأصبحت تلك الرؤيا واقعا، حيث وهبه الله تعالى صبيا فسارع إلى تسميته بالاسم الذي سمعه في الرؤيا : محمد الغزالي "[2].

وقرر الوالد أحمد السقا ان يهب الغلام لخدمة الدين والدعوة إنفاذا للعهد الذي قطعه على نفسه بعد أن تحققت له الرؤيا. وطبيعي جدا هذا أن يكون الكتاب أول مراحل التعليم التي تدرج فيها الغزالي الصبي بعد أن ترعرع؛ وفي كتاب القرية حفظ الغزالي القرآن الكريم وتعلم مبادئ القراءة والكتابة.

لقد حرص الأب الصالح على تعهد ولده بنفسه فيراجع معه الحصائل الجديدة على الدوام ليتأكد من حسن حفظه ونطقه للقرآن الكريم لأنه كان من حفاظ كتاب الله.. ويحكي الغزالي – بعد رسوخه في العلم – عن تلك البدايات الأولى قائلا : " أشهد أن أبي كان عابدا قواما، ومكافحا جلدا وقد سماني محمد الغزالي لأن أبا حامدا أوصاه بذلك في رؤيا صالحة رآها وهو

1- قطب عبد الحميد قطب : محاضرات الشيخ محمد الغزالي في إصلاح الفرد والمجتمع (الجزائر، مكتبة رحاب د.ت) ص17-18.

2- علاء محمد الغزالي : السيرة الشخصية للشيخ محمد الغزالي : العطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي)حلقة، دراسية – عمان المعهد العالمي للفكر الإسلامي. مكتب الأردن ومؤسسة آل البيت وجمعية الدراسات والبحوث ط 1 – 1416 هـ / 1996 م ، ص 183.

أعزب.. وعندما ولدت شرع يهتم بي فما بلغت الخامسة حتى كنت في الكتاب أحفظ القرآن مع غيري من الصبية. ولما كان هو من الحفاظ فقد تعاون مع فقهاء الكتاب على لا أن أضيع الوقت سدى يجب أن استظهر القرآن الكريم في أقصر مدة ! " [1]، وبقدر ما استثقل الغلام هذه المرحلة من حياته. بيد أنها كانت حاسمة في تحديد وجهته ومعالم مستقبله – وقد تكون المناهج التقليدية المتبعة آنذاك – من الدوافع الرئيسية وراء الانزعاج النفسي الذي جعل الغزالي يستثقل الكتاب : " فهو شيء مقلق قاعة واحدة واسعة مليئة بعشرات المستويات، تضم تقريبا من مائة صبي بين السادسة والسادسة عشر كل منهم عاكف على اللوح الذي يكتب فيه أو يقرأ منه وهناك من يقرؤون في المصاحف بعدما انتهوا من مرحلة الكتابة، وعلى بعد مائة ذراع تسمع هدير التلاوة تقطعه بين الحين والآخر استغاثة مضروب لم يحسن الأداء يتوجع من لذع العصا والآباء يوصون المعلمين بألا تأخذهم شفقة في التعليم والتأديب فعصا الفقيه من الجنة كما يقولون !! " [2]. قد ظل الغزالي يختلف على كتاب القرية حتى تمكن من حفظ القرآن الكريم كاملا وهو في سن العاشرة، كما تلقى بعض مبادئ الحساب والخط والإملاء.

1– تعليمه الابتدائي والثانوي :

كان التسابق على تحفيظ الأبناء أكبر قدر من القرآن الكريم السمة البارزة التي درج أهل نكلا العنب على التنافس عليها، أما التاجر أحمد السقا فكان هدفه أكبر من مجرد تحفيظ ولده اليافع القرآن الكريم، فقد كان يريد بصدق وإخلاص أن يفي بعهده مع الله. فرأى الأب أن يقبل على أمر هام يتمثل في ترك القرية، والانتقال للإسكندرية حتى يمكن ابنه من مواصلة دراسته في المعهد الأزهري الذي كان مخصصا وقتئذ لمحافظة البحرة. ومما شجع الوالد أحمد السقا على أمر الانتقال إلى الإسكندرية بمعية أسرته؛ السن الصغيرة التي كان فيها الغزالي حيث كان " في العاشرة

1- محمد الغزالي :مقتطفات من مذكرات الشيخ الغزالي، مجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي – ماليزيا العدد السابع (رمضان 1417 هـ / يناير 1997) ، ص 157.

2- المصدر نفسه : ص 157.

من عمره لا يقدر أن يعيش وحده. لابد إذن أن تنتقل الأسرة معه، فباع دكانه الذي كان يرتزق منه، واشترى في الإسكندرية مكتبة بحي (كرموز) كانت تبيع الأوراق والكراريس، والروايات المترجمة، والكتب المدرسية والعلمية والقصص الشعبية والأسفار الدينية المختلفة..

ونقل الأسرة التي أصبحت تضم معي شخصين آخرين غير من ماتوا، واستقبل مرحلة شاقة من مراحل السعي واللغوب ! لم أكن أدري يومئذ مغارب هذا التحول من القرية الهادئة إلى المدينة المائجة ويظهر أن أبي واجه أزمات وضوائق فلم ينهزم وخفف عنه آلام الحياة أنني نجحت في امتحان القبول الذي عقدته مشيخة معهد الإسكندرية الديني. وكان الناجحون نحو مائتي طالب كلفوا بارتداء العمامة والجبة المقررة، ويظهر أن منظري وأنا في هذه السن الصغيرة كان مثيرا للضحك ! مما جعلني أتنكر لهذا الزي المفروض أمدا طويلا.. أصبحت الشيخ محمد وأنا لم أبلغ الحلم ! كنت أحب اللعب ولكن كيف يلعب شيخ ؟ وكنت كثير الضحك وجزائي على ذلك طول الزجر والتوبيخ.. وتطلعت إلى المكتبة التي نرتزق منها وكنت ملهوما بالقراءة فتركني أبي أقرأ، وإن كان قد لاحظ في أسف أني آبى القراءة في الكتب الدينية وأوثر مطالعة الروايات الأجنبية، وربما فضلت قراءة ألف ليلة على ما يختار لي هو من كتب..." [1].

وإذا كان العقد الأول من عمر الغزالي قد هيمن عليه حفظ القرآن، وإجادة تلاوته، فإن عقد عمره الثاني كان مخصصا للدراسة الابتدائية والثانوية بمعهد الإسكندر الديني الأزهري؛ حيث بدأ المرحلة الابتدائية سنة 1928 وهو في بدايات العام الحادي عشر من عمره، ويظهر أيضا أن هذه المرحلة مثلث بالنسبة له مرتكزات القاعدة العلمية الصحيحة التي كان لها ثمارها فيما بعد في مساره الفكري وهو يشير إلى ذلك بقوله.. " دخلت معهد الإسكندرية الديني لأقضي فيه تسع سنين من أغلى أيام العمر كانت الدراسة وفق نظام اليوم الكامل تبدأ صباحا وتنتهي في الأصيل، وهي دراسة حسنة لا يجوز وصفها بأنها دينية خالصة، فإن العلوم المدنية كانت لها أنصبة محترمة،

1- المصدر السابق نفسه : ص 158- 159.

ولم يكن مستوانا فيما دون مستوى أندادنا من طلاب التعليم العام، إلا في اللغات الأجنبية فقد حرمنا منها، وكنا نستطيع - لو قررت علينا - أن ننجح فيها "[1]... والمنهج الذي ارتبطنا به كان " من وضع الشيخ محمد مصطفى المراغي وهو من مدرسة محمد عبده الإصلاحية، ولذلك لم يبق طويلا حتى عصف القصر الملكي به وأتى بالشيخ الأحمدي الظواهري، وقد نفذ الشيخ الجديد برنامج سلفه بدقة..

وأعتقد أنّ هذه الفترة من أزهى فترات التألق العلمي في الأزهر، لأن دراسة الطبيعة والكيمياء والأحياء وعلوم الحساب والجبر والهندسة والتوسع في دراسة التاريخ المحلي والإسلامي والعالمي، ودراسة جغرافية العالم كله.. إن هذا كله يصقل فكر الطالب ويعينه على تكوين حكم صائب بل إن الحقائق الشرعية لا تفهم على واقعها الصحيح إلا بهذه المعرفة "[2].

ويظهر أن انتقال الغزالي من القرية الهادئة إلى المدينة الصاخبة ثم انتظامه في الدراسة الأزهرية كان له الأثر البالغ في تفتق الوعي لديه خاصة استقراره بمدينة مثل الإسكندرية، وما تزخر به من حركة إعلامية وفكرية نشيطة حيث المكتبات الكبرى، والمجلات المتنوعة، فضلا عن العديد من الجمعيات الأدبية والفكرية. وقد عايش الغزالي جملة من الأحداث الهامة التي أثرت بشكل بارز في تكوينه الفكري والسياسي وهو دون العشرين، فسياسة القصر الملكي المتظافرة الجهود مع الاحتلال الإنجليزي كانت مصدرا للمظاهرات الصاخبة التي تزعمها الطلاب ورجال السياسة.

وقد شهد الغزالي - حينذاك - تولي إسماعيل صدقي باشا الحكم، وإصدار الملك فؤاد يوم 20 يونيو 1930 قرار تكليفه بتشكيل الحكومة إثر استقالة وزارة النحاس وسط غليان شعبي متأجج، انفجر ساخطا بعد أن ألغت هذه الحكومة الدستور القائم وعزمت على إدارة شؤون البلاد بقبضة من حديد. " و لا جرم أن فتى في مثل مواهب الغزالي، وفي مثل نشأته الجادة، لا

1- محمد الغزالي : مقتطفات من مذكرات.. (مصدر سابق) ص 160.

2- المصدر نفسه : الصفحة نفسها.

مندوحة له عن التفاعل الحار مع موحيات هذا الجو" [1]، فانخرط الغزالي مباشرة في حركة التمرد الطلابي التي شارك فيها معهد الإسكندرية الديني، وكان هو واحد من قادتها.. وقد دفع الغزالي ضريبة تمرده غالية، وإلى هذا يشير بقوله : " وقد دفعت ثمن ذلك غاليا، قدت إحدى المظاهرات العنيفة، وحقق معي، ثم أفرجت النيابة عني بكفالة مالية قدرها جنيهان دفعها أبي وهو يلهث من الإعياء، ومضت القضية في طريقها العتيد. وما كنت أدري ما يفعل لي لولا أن قانونا بالعفو العام شملها فيما شمل من أمثالها، ونجوت من السجن، وقدت أخرى داخل المعهد، وبعد التحقيق رئي فصلي سنة من الدراسة أو بعبارة أخرى رؤي منعي من دخول امتحان آخر عام، وكنت في السنة الثانية الثانوية فعز علي أن أتخلف سنة عن زملائي، فتركت الدراسة وانفصلت من المعهد وقلت أتقدم لامتحان (الشهادة الثانوية) (القسم الأول) من الخارج وكانت مغامرة لا يقدم عليها أحد.

ورأيت أبي - رحمه الله - يكاد يقتله الحزن لخيبة أمله في مستقبلي، وفي الرؤيا التي سيطرت عليه .. " [2] وكان للعناية الإلهية تصريف آخر للأمور فبعد عام من فصل الغزالي من المعهد تقدم من الخارج كممتحن حر وحدثت المفاجأة، إذ كان الأول في الترتيب على مستوى معهد الإسكندرية الديني ومن الأوائل على مستوى القطر المصري، وبهذا استأنف الغزالي الدراسة مع زملائه ملتحقا بالسنة الرابعة - ولم يضع العام الذي توقع ضياعه -.

وعصفت بالعالم في ذلك الوقت رياح أزمة اقتصادية حادة عانت من نتائجها كل الشعوب والدول بدون استثناء، وذاقت أسرة (أحمد السقا) من سيئ أثارها (الأزمة) خاصة بعد مغادرتهم القرية إلى الإسكندرية لتحسين ظروفهم المعيشية، وازداد وضعهم سوءا بانديا ح الأزمة الاقتصادية الواسع من جهة، وزيادة عدد أفراد الأسرة التي أصبحت تتكون من سبعة إخوة أكبرهم الغزالي، إضافة إلى الأبوين و " ازدادت أزمات أبي فأخذت أدرس لبعض الأطفال نظير أجر تافه،

1- نصر الدين لعرابة : الشيخ محمد الغزالي، حياة وآثار شهادات ومواقف : دار الأمة ط 1 ، 1419 هـ / 1998 م ، ص 179.

2- محمد الغزالي : مقتطفات من مذكرات.. (مصدر سابق) ص 161.

واحتال على البقاء في المعهد بما أكتسبه من قريشات قليلة.. حتى أحرزت الشهادة الثانوية الأخيرة "[1] ويمكن أن نصف هذه المرحلة في حياة الغزالي - على الصعيد الفكري - بأنها المرجعية المعرفية التي سيكون لها فيما بعد انعكاساتها وآثارها في انطباع مساره، وانصباغ توجهه بصبغة معينة، ولعبت دراسته بمعهد الإسكندرية الديني- بعد حفظه القرآن الكريم - بقريته نكلا العنب دورا أساسيا يضاف إلى هذا ما احتواه البرنامج الدراسي من مقررات غنية وثرية بمواضيعها قبل تعديله. وتفويت فرصة الاستفادة منه للكثيرين من بعده ويعلق الغزالي على هذا – متأسفا - : "إن هذه الشهادة كانت تمثل آخر تطبيق للنظام الإصلاحي الذي وضعه رجل تتلمذ على يد الشيخ محمد عبده. وكانت فرقتنا آخر من حصل على هذا النوع من الشهادات. وعدلت البرامج بعد ذلك تعديلا حذف منه كثيرا من المواد الرياضية والعلمية والإنسانية العظيمة النفع، وكنا نتحدث فيما بيننا أن الشيخ المراغي سئم تكاليف الجهاد العلمي، وآثر الراحة بالتعاون مع الأحزاب المتعاونة مع القصر وترك الأزهر حبله على غاربه، فأخذ التعليم الديني ينحدر رويدا رويدا.. !! لقد إستفدت كثيرا من دراستي في المعهد بين عامي (1928-1937م)"[2].

وفي السنة الأخيرة من تمدرس الغزالي بالمعهد الديني، حدث له حادث هز كيانه كله وكان له الأثر البارز والبالغ في بلورة اتجاهه الفكري. هذا الحادث هو لقاؤه بالإمام الشهيد حسن البنا، وهو من أبناء إقليمه - البحيرة كما ذكرنا سابقا - فقد اعتاد الغزالي على الصلاة في مسجد (عبد الرحمن بن هرمز) الراوي التابعي والجلوس فيه خاصة ما بين صلاتي المغرب والعشاء لمذاكرة دروسه، أو قراءة القرآن، ويتحدث الغزالي عن أول لقاء تعرف فيه على حسن البنا فيقول :" كنت طالبا بمعهد الإسكندرية عندما اتصلت بحسن البنا .. إن الأمسية الرفافة العذبة التي وصلتني به لاتزال محفورة في ذاكرتي ولست أنسى طريقة هذا الرجل في صقل الأرواح ووصلها بينابيع الحياة،

1- المصدر نفسه: ص 161.

2- محمد الغزالي : مقتطفات من مذكرات.. (مصدر سابق)ص 161 .

والحركة من كتاب الله وسنة رسوله) ... " [1] والموعظة التي ألقاها حسن البنا على جمهور المصلين - ذلك اليوم – (في مسجد عبد الرحمن بن هرمز) كانت شرحا للحديث الشريف (اتق الله حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن) وكم كان تأثير تلك الموعظة بليغا على الغزالي؛ نظرا لما لمسه من تربية روحية عالية عند حسن البنا.

ولقد صور ذلك قائلا : فما إن فرغ حتى وجدت نفسي مشدود القلب لهذا الرجل. ومنذ تلك الساعة توثقت علاقتي به، ومضيت معه عقب صلاة العشاء إلى مجلس يضم بعض رجال الدعوة ثم استمر عملي في ميدان الكفاح الإسلامي مع هذا الداعية العملاق إلى أن استشهد سنة 1949 " [2]. وفي أكثر من مناسبة كتب الغزالي عن البنا بمثل هذه الحرارة : ... " سل الألوف المؤلفة التي التقت به أو التي أشرق عليها الرجل في مداره العتيد؛ ما من أحد منهم إلا وفي حياته ومشاعره وأفكاره أثر من توجيهات حسن البنا أثر يعتز به، ويغالي بقيمته " [3].

وأغلب الظن أن انتماء الغزالي إلى جماعة الإخوان المسلمين التي أسسها حسن البنا مرده إلى أن منهجها اتفق مع رؤيته الشرعية الوسطية، والمدرسة الفكرية التي كان ينتمي إليها والتي تقوم -في نظره - على أساس الاستفادة التامة من جميع الاتجاهات الفكرية، والمذاهب الفقهية في التاريخ الإسلامي...

واجتاز الغزالي المرحلة الأولى من حياته الدراسية بنجاح كبير، فقد حصل على شهادة الابتدائية وشهادة الكفاءة – وهي ثلاث سنوات بعد الابتدائي- ثم الشهادة الثانوية - وهي سنتان بعد الكفاءة – وبات واضحا للأب - أحمد السقا - أن ابنه يستطيع بعد حصوله على تلك الشهادات - الاعتماد على نفسه، فصفى مكتبته بالإسكندرية وأقفل راجعا بأسرته إلى قريته

1- يوسف القرضاوي : الشيخ الغزالي كما عرفته (القاهرة، دار الوفاء ط 1 ، 1417 هـ / 1996 م) ، ص 25.

2- ابراهيم نويرى : الشيخ محمد الغزالى أديب الدعوة وداعية الاعتدال، العدد الأول، المجلة العربية.،السعودية العدد (215) (ذو الحجة 1415 هـ / 1995 م) ص 87.

3- يوسف القرضاوي : الشيخ الغزالي، (مرجع سابق) ، ص 25.

الوادعة نكلا العنب. وسافر الغزالي إلى القاهرة للالتحاق بكلية أصول الدين - وهي واحدة من أهم الكليات التي يتوفر عليها الأزهر الشريف حينئذ. وقد ساعد الغزالي على اختياره لهذه الكلية بالذات – دون غيرها - وجود عدد معين من أصدقاء الدراسة الذين كانوا معه بمعهد الإسكندرية الديني، ولربما كانت ميول الغزالي نفسه الدعوية والفكرية دافعا أساسيا في الاختيار..

وبدأ الموسم الدراسي 1938 بموقف غاية في الطرفة دل على شخصية الغزالي الثائرة خاصة في الاعتراض، أو رفض كل ما لا يسيغه - في رأي نفسه على الأقل - فلا يستطيع أن يغلق فمه، أو يقف متفرجا. بل يصب جام سخطه، ولا يحفل بما قد يصيبه بعد ذلك. والطرفة التي كانت بداية العام الدراسي رواها الغزالي في مذكراته بقوله : " جمعنا عميد الكلية - كلية أصول الدين - في مسجد الخازندارة في حفل عام للتعارف، واستقبال العام الجديد وتوثيق العرى بين الطلاب وهيئة التدريس، وحدث في هذا الحفل أمر ذو بال فقد كان بين من تحدثوا الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى أستاذ الفلسفة والأخلاق بالكلية، وجرى على لسانه ثناء حار على المجتمع الفرنسي وتنويه بما يسوده من أمانة ونظام وأهاب بنا أن نتمسك بهذه الخلال !! وغاظني ما سمعت فانتفضت قائما أصيح : أي خلال يا أستاذ ؟ هؤلاء تقدموا في اللصوصية، اللص عندنا يسرق آنية من بيت أو حافظة من جيب أو ثمرة من حقل، وهؤلاء يسرقون الشعوب تحت الشمس ويختلسون العقائد من القلوب !! أي خلال تعني يا أستاذ نلتمسها من هؤلاء المعتدين على إخواننا في أقطار المغرب - وكانت كلها محتلة - ولماذا لا تذكرنا بسلفنا العظيم ؟ وانطلقت بطريقة همجية اضطرب بها نظام الحفل ثم أمسك بي بعض المشرفين وقادوني إلى عميد الكلية الشيخ عبد المجيد اللبان فرأى شابا في العشرين أفقده الحماس وعيه فقال لي بصوت وديع : أقعد يا ولد، فجلست أمامه، وكلف شخصا آخر بالتحدث إلى الطلاب الذين بدا أنهم متعاطفون معي بل بدا أن أكثر المدرسين لم يستريحوا إلى توجيه الدكتور محمد يوسف وأنهم يؤيدون موقفي... ! لم يعاقبن عميد الكلية مكتفيا بإسداء بعض النصائح، وصرفني بعد انتهاء الحفل "[1].

1- يوسف القرضاوي : الشيخ الغزالي، (مرجع سابق) ، ص 165.

والغريب " أن علاقتي بالأستاذ محمد يوسف موسى توطدت وكنت فيما بعد أثيرا عنده. وطيلة مدة الدراسة بالكلية لم أستغن عن توجيهه وإرشاده، وبعد التخرج نمت بيننا صداقة عميقة وتعاون في خدمة الدعوة الإسلامية "[1].

وخلال السنة الدراسية كان الغزالي يتردد كثيرا إلى المركز العام للإخوان المسلمين بعد أن نقل مقره إلى القاهرة ... وتوثقت صلة الغزالي - بحسن البنا الرجل الذي عرف الغزالي باعترافه - على يديه حقيقة الإسلام المتحرك، وآمن بمواهبه العقلية والنفسية والروحية والعملية لقيادة الدعوة الإسلامية والعمل الإسلامي في وقت ابتلي الإسلام فيه بعجز علمائه، وجهل أبنائه وكيد أعدائه. وعمل الغزالي بكل جهده رفقة عناصر قوية اليقين .. راغبة في نصرة الإسلام، وإعلاء رايته، على فتح شعبة لجماعة الإخوان المسلمين بكلية أصول الدين .. وفي فترة وجيزة تحول الغزالي إلى شعلة متوقدة من النشاط الدؤوب والمثابرة، وقد يرجع سبب هذا الدفع القوي في حياة الغزالي - الطالب - وارتفاع مستوى وعيه إلى عوامل متعددة ساهمت بتداخلها وتفاعلها إلى خلق شخصية متميزة وطاقة غنية .. فأولى هذه الأسباب هو تفاعل الغزالي مع الأحوال السياسية في مصر آنذاك حيث الصراع الإيديولوجي والفكري والسياسي على أشده، فكان مستحيلا أن يبقى الغزالي بعيدا عن كل تلك الأحداث. ولما كان الغزالي منتظما في كلية أصول الدين، فقد استفاد كثيرا من المستوى العلمي الرفيع على يد شخصيات تتلمذ على يدها، وتأثر بها؛ منهم الشيخ عبد العظيم الزرقاني والشيخ ابراهيم الغرباوي والشيخ عبد العزيز بلال والشيخ محمود شلتوت وعبد الوهاب عزام، ومحمد الخضر حسين وأمين الخولي والدكتور محمد يوسف موسى والدكتور محمد عبد الله دراز وغيرهم من العلماء ء الأفاضل ..

وكان لتردد الغزالي اليومي على المركز العام للجماعة لما كان في العتبة الخضراء " ثم لما انتقل إلى الحلمية الجديدة فرصة بأن يتعهده حسن البنا، ويفتق مواهبه الشخصية، وملكاته النفسية.

1- المرجع نفسه: ص 165.

وظهرت أولى مواهب الغزالي وهو طالب في السنة الثالثة. وخاض تجربة الكتابة لأول مرة بتحفيز من حسن البنا، ويحكي الغزالي عن هذه التجربة فيقول : "... وفي أثناء الدراسة وقع لي مع الأستاذ المرشد شيء سار كان له وقع عظيم في حياتي .. كتبت يوما مقالا، وأرسلته إلى مجلة الإخوان وارتقبت نشره فلم ينشر وساء ظني بنفسي فتركت الكتابة.. و بغتة تلقيت بالبريد رسالة من المرشد العام عرفت فيما بعد نبأها .. لقد دخل إدارة المجلة، وسأل الأستاذ صالح عشماوي رئيس التحرير لماذا لا أقرأ للإخوان مقالات جيدة ؟ وما السبب في ضعف المجلة ؟ ومد يديه - غير متعمد - إلى ملف المحفوظات المنتفخ بالمقالات التي رئي عدم نشرها، ووقع بصره على مقالي ! وغضب غضبا شديدا لإهماله، وأمر بجعله افتتاحية العدد المقبل وبعث إلي برسالة شخصية هذا نصها : أخي العزيز الشيخ محمد الغزالي : السلام عليكم .. قرأت مقالك " الإخوان المسلمون والأحزاب " وطربت لعباراته الجزيلة ومعانيه الرقيقة، وأدبه العف الرسين، هكذا يجب أن تكتبوا أيها الإخوان المسلمون .. أكتب دائما وروح القدس يؤيدك والله معك .. أخوك حسن البنا. المرشد العام للإخوان المسلمين ... كدت أطير من الفرح بهذا التقدير وذاك الدعاء لعله الثناء الأول والدعاء الأول الذي ظفرت به من رجل كبير، وأصبحت بعد هذه الرسالة من كتاب الجماعة الأوائل، وا ستبشرت بأن الله سيلهمني الرشد فيما أكتب " [1]، وانطلق الغزالي يسطر المقالات تلو المقالات - طيلة فترة الدراسة – في محاولة لإيقاظ الوعي الإسلامي العام. فالدعوة إلى الإسلام كانت أكبر همه، ومحور فكره وعمله، وكان لا يخرج من القاهرة إلا في رحلات دعوية إلى أقاليم مصر وقراها للمشاركة في الأنشطة الفكرية والاجتماعية التي كان يقيمها الإخوان. أو لزيارة أسرته وأهله في قرية نكلا العنب أثناء الإجازة الصيفية وكثيرا ما كان الغزالي - أثناء الإجازة - يساعد والده في دكانه وأحيانا يقف مكانه لاسيما في مرضه. وفي العام 1941 - أي بعد أربع

1- يوسف القرضاوي : الشيخ الغزالي، (مرجع سابق) ، ص : 196 – 170.

(*) تعادل درجة الماجستير.

سنوات - أنهى الغزالي دراسته بكلية أصول الدين، وكان له طموح علمي في مواصلة دراسته العليا، وقد نال درجة العالمية * بعد تمام سنتين مع إجازة في الدعوة والإرشاد.

رغم ما عاناه الغزالي - في هذه المرحلة من مراحل عمره - من شظف العيش والظروف الرديئة التي اكتنفت مشواره الدراسي، إلا أنها من أخصب فترات حياته. ففي مدرسة الإخوان، وعلى أيدي مؤسسها حسن البنا صقلت مواهب الغزالي وأبصر مجريات الأحداث بعين بصيرة، وفيها وجد ذاته وفقه عالمية الرسالة وشمولها، وأخذ يستو عب ما تعانيه الأمة الإسلامية من ويلات ومشكلات...

II – المرحلة الثانية : الدعوة في مصر (1943 – 1974)

سعى الغزالي بعد تخرجه إلى الحصول على عمل يعينه على مشاق الحياة التي يواجهها ويظهر أن حصول الأزهري على عمل شيء غاية في الصعوبة إن لم نقل شبه مستحيل وقد يكون الغرض من وراء هذا مؤامرة خبيثة لضرب الأزهر كقلعة من قلاع الإسلام العتيدة، ومن ثم صرف الناس من التعليم الديني كله. وسرعان ما ظهرت بارقة أمل عندما أعلنت وزارة الأوقاف عن مسابقة بين خريجي الأزهر لشغل وظائف الإمامة والخطابة والتدريس، وتقدم الغزالي للمسابقة، قصد المشاركة التي كانت تحريرية وشفوية ووقعت بينه وبين أعضاء اللجنة الممتحنة التي كان يترأسها أحمد حسين - شقيق طه حسين - مجادلة حادة تحدث عنها الغزالي في مذكراته : " بدأت بعمل مني كان طائشا ..كان أحد الأعضاء يسألني في القرآن الكريم وكنت أحفظه جيدا، وأجبت عن كل ما سئلت عنه، والرجل يتابعني في مصحف كبير أمامه وينتقل بي من صفحة إلى صفحة، وأنا ماض في التلاوة .. وردني في كلمة فتوقفت ثم مددت بصري إلى المصحف الذي معه فقال لي بدهشة، ماذا تفعل ؟ قلت أريد أن استوثق هل أخطأت حقا ؟ فأنا أحفظ جيدا ... ! وشتمني رئيس اللجنة وكان الأستاذ أحمد حسين وهو يومئذ مفتي الأوقاف .. وجاء دور الأستاذ أمين الخولي الذي طلب مني تفسير آيات قرأتها، وأجبت فخطأني وذكرت رأيا آخر في التفسير

فخطأني فقلت وأنا أضبط أعضائي وددت لو أعرف الحق، فقد ذكرت كل ما أعرف ! قال ذلك في قاعة الدرس لا في لجنة الامتحان. وتدخل مدير المساجد الشيخ سيد زهران قائلا للشيخ أمين : لقد اعترف الطالب بعجزه فدله على الجواب ! فقال مرة أخرى ليس هنا .. فقلت بنزق لا جواب إلا ما قلته، وأتحدى إذا كان هناك جواب آخر ! وعاد الشيخ أحمد حسين إلى توبيخي، أما الأستاذ أمين الخولي فأدار ظهره معرضا عني ومنهيا المناقشة.

وظهرت النتيجة بعد أسبوعين، وكنت الخامس بين الناجحين وتم ذلك بما يشبه خوارق العادات! وعينت إماما وخطيبا ومدرسا بمسجد " عزبان " " بالعتبة الخضراء "، ولم يلق هذا الحظ أحد من زملائي معي " الإمامة والخطابة والتدريس "؛ هذه الوظيفة المثلثة هي التي كلفت بها ورزقت منها صدر شبابي لقد كان عملي في مسجد محدود المساحة، لكن موقعه في قلب القاهرة، وفي سوق تزدحم بالناس سحابة النهار، وزلفا من الليل .. والمصريين شعب له حس مرهف من الناحية الدينية! عندما يجد واعظا شابا يدرس موضوعه، ويحسن شرحه يلتف حوله، ويعمر مسجدا. ومن ثم لم يمض شهر حتى كان جزء كبير من ميدان العتبة يفرش بالحصر وتنقل له الخطبة بالمكبرات " [1].

وبمجرد استلام الغزالي لعمله في مسجد " عزبان " ظهرت بوادر موهبة ثانية للغزالي تتمثل في تمكنه من فن الخطابة، وقوة الأداء، وقد تنبه إلى هذا الأمر مدير المساجد في المسابقة - التي ذكرناها سابق – فاستدعاه إلى مكتبه، وكلفه بالاستعداد لصلاة الجمعة بالملك فاروق و " أمرني بإعداد الخطبة المناسبة، وأفهمني أن ذلك في افتتاح مسجد بحي المنيل .. وفي يوم الخميس كنت بوزارة الأوقاف وأخذ الرجل الخطبة وراجعها وذهب بها إلى قصر عابدين. فأقرت واتصل بي من القصر تلفونيا يطلب مني الاستعداد لإلقاء الخطبة غدا ! ثم قال للحيطة تعال إليا في البيت نذهب إلى المسجد معا .. وفي الصباح كنت عنده جالسا في حجرة الاستقبال أنتظر دخوله،

1- محمد الغزالي : مقتطفات الشيخ الغزالي (مصدر سابق) ص 177 – 178.

بعدما فتح الخادم لي. ودخل المدير ونظر إلي فكاد يصعق. وأخذ يجمجم بكلمات لم أتبينها وهو يتميز من الغيظ ! يا أستاذ تجيء للصلاة بجلالة الملك في هذه الجبة البالية، وهذا الجلباب الرخيص ؟؟ وشعرت بحرج بالغ وتملكني الخجل، ثم غلبتني طبيعتي الضاحكة فقلت : الجبة حسنة، أما الجلباب فأنا لا ألبس ما يرتديه الشيوخ من نسيج براق لماع ثم لا تنس أني ألقاك بهذه الثياب وأنت والملك سواء... ! فقال : الرسميات يا ... !! وأخذ يفكر بسرعة ليخرج من هذه الورطة، وأرسل إلى مفتش مساجد قريب في مثل جسمي، واستعار منه ملابس أخرى فاخرة وأكرهني على ارتدائها وكانت أطول مني قليلا، و علمني كيف أحافظ على سمتي داخلها ..! وانتهت الصلاة بخير وكان شديد القلق إلى أن انصرف صاحب الجلالة فاقتادني إلى البيت، وهو يسب الظروف التي عرفته بي ! ويحمد الله أن تم الأمر بالستر، وأنا أواجه هذا كله بالضحك، وأقول : أما من وسيلة للهرب بهذه الملابس ! ومع هذه الحادثة الطريفة فإن الصداقة ربطت بيني وبين المدير، وكنت أعاونه في بعض القضايا العلمية حتى مات رحمه الله " [1].

ورأى الغزالي بعد حصوله على عمل حكومي، أن يقدم على الزواج، فخطب ابنة موظف صديق لوالده وسارت الإجراءات في طريقها الطبيعي بعد أن تدخل في المسألة الأستاذ المرشد حسن البنا. وبعد زواجه حاول الغزالي التوفيق بين الوظيفة والقيام بمقتضيات الانتساب لجماعة الإخوان... وازداد نشاطه (الغزالي) في الكتابة خاصة بعد أن أصبح سكرتيرا لمجلة الإخوان المسلمين، وأهم ما كان يميز الغزالي - ككاتب في هذه المرحلة - فكره الثائر وأسلوبه الساخر في انتقاد الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ومحاولة ايقاظ العقول لما يجري حولها. وقد مرت مصر بفترة عصيبة من أحلك الفترات في تاريخها، تعالت فيها أمواج الفتنة التي قدحت زنادها سياسة القصر الملكي بتحالفه مع القوى المعادية التي تبغي الإجهاز على البقية الباقية من جسد الأمة الإسلامية إلى جانب الأزمات السياسية التي لا تتورع عن استغلال هذا الواقع المقلق بمختلف الوسائل. وظهرت الاغتيالات السياسية لعل أقواها وقعا كان اغتيال - محمود فهمي النقراشي -

1- محمد الغزالي : مقتطفات الشيخ الغزالي (مصدر سابق) ص 179 – 180.

من حزب الوفد والذي أحدث خبر اغتياله ردود فعل قوية عملت قوى الشر والكيد على استغلالها للإيقاع بين مختلف الاتجاهات السياسية ففي البلاد خاصة أن العلاقة بين حزب الوفد وحركة الإخوان كان يسودها بعض التوتر.. فالوفديون شعروا بالغيرة من اتساع نفوذ الإخوان، والتفاف القاعدة الشعبية حولهم. إذ بات تنظيما محكما لا يقف في وجهه شيء، وافتعلت اتهامات مست جماعة الإخوان بتورطهم في عملية اغتيال الوزير، ومما زاد الطين بلة انسياق الكثير من رجالات الفكر والقلم وراء الاتهامات منهم الأديب الكبير عباس محمود العقاد، والمؤرخ المعروف عبد الرحمن الرافعي ...

وحدث وأن تزامنت هذه الظروف والأحداث، مع تصاعد روح الجهاد والتضحيات واستجاب الكثير من شباب الإخوان المسلمين لنداء تحرير فلسطين من براثن الإسرائيليين سنة 1948 فتدفقت جحافل المتطوعين مزلزلة الأرض تحت أقدام اليهود، وتحركت (مراكز القوة) لإنقاذ إسرائيل وحيكت مؤامرة خبيثة بين القصر الملكي، والقوى المعادية لتجريد مجاهدي الإخوان من سلاحهم - الذي اشتروه بثمن أمتعتهم - وأعقب ذلك حل الحركة في مصر كلها، ومصادرة ممتلكاتها وسجن رجالاتها. وأتموا ذلك التدبير باغتيال مرشدها حسن البنا .. والواقع أن هذا القرار كان من ورائه الكيد الصهيوني ممثلا في كل القوة الغربية خاصة منها بريطانيا وأمريكا...

ولقد هيأت كل هذه الظروف الشيخ الغزالي لمواجهة هذه المرحلة التي كانت أحفل حقول حياته بالتجارب. ولما كان الغزالي من أعضاء الإرشاد البارزين - خلال محنة 1948 - فقد زج به في سجن الدرب الأحمر لعدة أسابيع، ثم أخذ إلى معتقل الطور ليقضي فيه سنة كاملة – حافلة بالآلام - حيث قتل - الإمام حسن البنا - وعاش فيها الإخوان مرحلة قاسية ذاقوا فيها من فنون الاذلال الكثير. بيد أنها كانت فرصة أتاحت للجماعة لونا آخر من التربية الروحية التي سمت فيها النفوس، وارتفعت إلى مستوى عال. وفي سجن الطور كان الغزالي إماما ومدرسا وخطيبا للمعتقلين، وأضيفت له مسؤولية أخرى كمرشد خاصة بعد أن استدعى الأستاذ البهي الخولي إلى القاهرة للتحقيق معه في اتهام وجه إليه في قضية تتعلق بالنظام الخاص. ويتحدث الغزالي

عن وضعه كمسؤول أول عن الإخوان قائلا : اعتقلت وبت مسؤولا عن المعتقلين من الناحية الروحية والثقافية والفكرية، وأحيانا المادية لأني كنت إمامهم.. الله كرمنا بالإسلام فلا يجوز لنا أن نفرط في هذا التكريم الإلهي، وإنه من الإخلاص لهذا التكريم أن نبذل نحن الدعاة مزيدا من الجهود لشرح الجوانب الحسنى في الإسلام الحنيف، لأنه دين التوحيد الخالص، وليس دين تأليه البشر. ولأنه دين العدالة الاجتماعية التي لا تتغير قواعده بمرور الزمن، واختلاف الأحوال، بينما نرى المذاهب الاقتصادية والاجتماعية التي صنعها البشر لا تصمد أمام التغيرات التي تطرأ على الحياة، ويقوم بأنفسهم بالحكم على فشلها بينما شريعة الله ثابتة وصالحة لكل زمان ومكان، ويستوعب شمولها كل تغيير يحدث على مر العصور، وأنه يجب علينا أن نكافح من أجل الانتفاع بهذه الشريعة و نفع البشر بها ... " [1] وفي هذه المرحلة بدأ الغزالي التأليف، وإن كان قد أصدر للناس قبل هذا كتابه (الإسلام والأوضاع الاقتصادية) فكتابه (الإسلام والمناهج الاشتراكية). وأصدر بعد الخروج من المعتقل (الإسلام والاستبداد السياسي) الذي ألقاه الغزالي في شكل محاضرات في سجن الطور، كما صدر له في هذه الفترة جملة من الكتب التي اشتهرت وذاع صيتها في عالم الفكر والثقافة مثل (الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين)، (تأملات في الدين والحياة)، (عقيدة المسلم)، (خلق المسلم) ومن أشهر كتبه في هذه المرحلة (من هنا نعلم) وهو كتاب رد به على كتاب (من هنا نبدأ) للشيخ خالد محمد خالد - رحمه الله – الذي كان صديقا للغزالي من قبل وكان قد تعاهداعلى تشكيل لجنة لنشر الثقافة الإسلامية الصحيحة تحت عنوان (الدين في خدمة الشعوب) ردا على الشيوعيين الذين يزعموا أن (الدين أفيون الشعوب).

ولكن الشيخ محمد خالد فاجأ الجميع بتغيير اتجاهه وإصدار كتابه الجديد (من هنا نبدأ)* أنكر فيه وجود الدولة في الإسلام وروجت له كل القوى المعادية للإسلام (الشيوعية الصليبية، الماسونية والعلمانية) وقد تصدى له الغزالي في سلسلة مقالات قوية جمعت في كتاب عنوانه (من هنا نعلم) استطاع الغزالي بأسلوب علمي مهذب أن يعيد صاحبه إلى جادة الصواب.

1- محمد الغزالي : مقتطفات من مذكرات الشيخ الغزالي (مصدر سابق) ص 178.

(*) ذكر الاستاذ فهيمي هويدي أن هذا الكتاب في حقيقته لعبد الله القصيمي، وأن الشيخ الغزالي قد رد عليه بكتاب اسمه (الطوفان ولا هذا) (مجلة النور الكويتية، العدد 731 يونيو 1996 م) ص 42.

(*) ذكر الأستاذ فهمي هويدي أن هذا الكتاب فب حقيقته لعبد الله القصيمي، وأن الشيخ الغزالي قد رد عليه بكتاب أسماه (الطوفان ولا هذا) (مجلة النور الكويتية، العدد 137 يونيو 1996 م) ص 42.

1- قرار الفصل من الجماعة :

خرج الإخوان من محنتهم، وهم أشد صلابة وتماسكا ونشاطا مما كانوا عليه رغم ما أحدثه مقتل مرشدهم المبكر من اضطراب في صفوفهم سرعان ما تداركوه بسرعة مبايعتهم للمستشار حسن الهضيبي مرشدا عاما ثانيا للجماعة، ورحب الجميع بهذه الخطوة وباركوها وفي مقدمتهم الشيخ الغزالي الذي عاهد الهضيبي على إكمال مسيرة الجماعة معه على النهج الذي ارتضاه لها الإمام الشهيد منذ أسسها. كانت علاقة الشيخ الغزالي بالأستاذ حسن الهضيبي، - المرشد الثاني للإخوان المسلمين – علاقة طيبة منذ اختاره الإخوان قائدا لمسيرتهم، ورضوا به إماما لجماعتهم. وكان يصطحبه معه في رحلاته الدعوية إلى الأقاليم، ويكلفه ببعض الكتابات الدعوية التي يراه أقدر عليها من غيرها. كما رأينا ذلك الرد على ذلك القبطي الذي تطاول على الإسلام وشريعته وحضارته وتاريخه، وظهر ذلك في كتاب (التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام)! .. وظلت العلاقة حسنة حتى ظهرت على المسرح السياسي ثورة 23 يوليو وعجزت عن احتواء الإخوان الذين وقفوا إلى جوارها، وشدوا أزرها وحموا ظهرها فلجأت إلى أسلوب أخبث وأمكر، وهو محاولة الإيقاع بين قادة الجماعة حتى يسوء ظن بعضهم ببعض .. حتى أدى ذلك إلى احتلال مجموعة من الشباب المتحمس المركز العام. والتمرد على قرارات القيادة المبايعة كما استطاع أن يوغر صدور جماعة من القاداة القدامى حتى وقفوا مع هذا الشباب الثائر ضد قيادته، وكان من هؤلاء أربعة معروفون من خيرة الإخوان جهادا، وسابقة، وخدمة للدعوة ومحبة لدى جماهير الإخوان. كان منهم الشيخ الغزالي، وفي هذا الجو الملبد بغيوم الفتنة صدر قرار القيادة بفصل الأعضاء الأربعة * من الجماعة. وبهذا بلغت الفتنة هدفها، وحققت مآربها " [1] لقد كان للشيخ الغزالي - وجهة نظر خاصة - في سياسة الأستاذ حسن الهضيبي وطريقته المتساهلة في تعامله مع الملك فاروق وأعوانه

* هؤلاء الأربعة هم / صالح عشماوي وكيل الإخوان، والدكتور محمد سليمان، وأحمد عبد العزيز جلال، والشيخ الغزالي وكلهم من الهيئة التأسيسية للإخوان.

1- يوسف القرضاوي : الشيخ الغزالي كما عرفته (مرجع سابق) ص 37.

– قتلة الإمام حسن البنا - أو في أسلوبه العملي الذي بدأه بالتغيير في بعض الجوانب المنهجية للجماعة دون الاستشارة الكافية والكاملة لذوي الكفاءات من الإخوان وازدادت الجفوة اتساعا وعنفا عندما فصل الشيخ الغزالي من جماعة الإخوان التي قضى فيها شبابه وما تصور يوما أن يبعد عنها، وقد أرخ الشيخ الغزالي لخلافه مع حسن الهضيبي في كتابه – معالم الحق – فصل السمع والطاعة شهادة –للتاريخ واستخلاص العبر – يقول : إن أول ما نشب الخلاف بيننا وبين الاستاذ الهضيبي - كان على أسلوب الحكم في مصر - هل يكفل الحريات العامة، ويصان الدستور القائم. وتنقذ البلاد من استبداد فرد أو أفراد ؟؟ أم نتجاهل هذا الموضوع كله. ونطوي حكم الإسلام فيه وتشغل الجماعة بشؤون أخرى ؟ كان الرجل شديد الحرس على مرضاة رجال القصر قليل الاكتراث بحقوق الأفراد والطوائف، وقد ألفت كتابي (الإسلام والاستبداد السياسي) استنكارا لهذه السياسة القاصرة ودفاعا عن تعاليم الإسلام الصحيحة "[1]. ويستطرد الشيخ الغزالي بعد هذا قائلا : " كان شرف الدعوة التي قادها الإخوان المسلمون أنها أخطر على الإقطاع الزراعي، والافتيات الرأسمالي والاستبداد السياسي، لأنها صدى الإسلام الصحيح؛ والإسلام الصحيح لا يبقى حيث تسود وتتوغل هذه المفاسد الشائنة .. غير أن حفنة من الملتحقين بالركب الإسلامي شاءت أن تعكر هذا كله. وأن تجعل حصاد ربع قرن هشيما تذروه الرياح "[2].

ورغم ما تميزت به مقالات وكتب الشيخ الغزالي - في هذه الفترة - من غضب ومرارة بلغت حد القسوة في خلافه مع الأستاذ حسن الهضيهي، لكنه سرعان ما عاد إلى نفسه يحاسبها وتحاسبه في حديث أثبته في كتابه معالم الحق، فقال : " إنه ما إدعى لنفسه العصمة، بل من حق الرجل أن أقول عنه أنه لم يسع إلى قيادة الإخوان ولكن الإخوان هم الذين سعوا إليه، وإن من الظلم تحميله أخطاء هيئة كبيرة مليئة بشتى النزعات والأهواء، ومن حقه أن يعرف الناس عنه إنه تحمل بصلابة، وبأس كل ما نزل به، فلم يجزع، ولم يتراجع وبقي في شيخوخته المثقلة بعميق

1- محمد الغزالي : من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث (باتنة / الجزائر ، دار الشيهاب) ص 212.
2- المصدر نفسه : ص 223.

الإيمان وواسع الأمل حتى خرج من السجن الحق يقال إن صبره الذي أعز الإيمان رفعه في نفسي، وإن المآسي التي نزلت به وبأسرته لم تفقده على الأمور، ولم تبعده عن منهج الجماعة الإسلامية منذ بدأ تاريخها، على حين خرج من السجن أناس لم تبق المصائب لهم عقلا ... وقد ذهبت إليه بعد ذهاب محنته، واصلحت ما بيني وبينه ويغفر الله لنا أجمعين " [1] وهز الشيخ الغزالي من مواقف الأستاذ الهضيبي أنه أوصى في مرض وفاته أن دفن في مقابر الصدقة * التي يدفن فيها الفقراء والغرباء. وفي هذه المرحلة تضاعف نشاط الشيخ الغزالي في التأليف، فأصدر مجموعة كتب منها (من معالم الحق)، (في موكب الدعوة) و(ظلام من الغرب).

2- مرحلة التغيير الاجتماعي والسياسي :

في هذه المرحلة انخرط الشيخ الغزالي في الاتحاد الاشتراكي (وهو تنظيم طليعي يحمل الصفة الشعبية). وعن ظروف تواجده في هذه الهيئة يقول الشيخ الغزالي : " لقد لامني بعض الصالحين على قبول عضوية الاتحاد الاشتراكي ! والعمل في هذا الوسط الرديء فقلت له : أنبقى مكتوفي الايدي والغير يصنع قرارات ويفاجئنا بما يهوى ؟ إن السلبية لا تفيد ! قال : وماذا صنعت أنت ؟ عجل فقلت : أنا وحدي لا أغني ! إن الجبن في هذه التنظيمات هو سيد الأخلاق ! عندما وقفت اعترض على المقرر كان جاري الأيمن وكيل وزارة والجار الأيسر من كبار الشيوخ في الأزهر

1- نصر للدين لعرابة : الشيخ معمد الغزالي : حياة وآثار، شهادات ومواقف (دار الأمة / الجزائر ط 1 /1998) ص 81.

(*) دون الشيخ هذا الموقف بكثير من التقدير والتأثر في كتابه قذائف الحق فيقول : من أيام مات الأستاذ حسن الهضيبي - المرشد الثاني لجماعة الإخوان – وبلغتني وصيته : لقد أوصى أن يدفن خفية لا إعلان ولا مواكب، وطلب أن يوارى جثمانه في مقابر الصدقة، وعقدت لساني دهشة، وأنا أسمع العبارة الأخيرة (في مقابر الصدق) ؟ إنني أعرف حسن الهضهيبي، وقد أصلحت ما بيني وبينه قبل أن يموت بنحو عامين، قلت لم مقابر الصدقة ؟ ! ولم يغب عني الجواب. لقد كان مستشارا راسخ المكانة، رفيع الهامة، لو اشتغل بمهاجمة الشريعة الاسلامية لنال جائزة الدولة التقديرية التي نال غيره. ولو خدم الغزو الثقافي لعاش في شيخوخته موفور الراحة، مكفول الرزق .. ولكنه خدم الاسلام فتجرع الصاب والعلقم !طعن مع الدين الجريح، وأهين مع الدين المهان، فأراد آن تصحبه هذه المكانة في منقلبه إلى الله ! فليدفن مع أناس أسلموا أرواحهم في غرفات السجن الحربي، وهم رازخون تحت وطأة عذاب تنوء به الجبال ! قذائف الحق، بيروت، المكتبة العصرية، د٠ت) ص106.

ومع ذلك فإن كليهما فزع وكأنه لعن الظروف التي قاربته مني؛ إنهما يفقدان شجاعة الإيمان، وقد فهمت لماذا كان حسن البنا حريصا على التربية الدينية الصحيحة "[1]. وتشكل هذه المرحلة نشاطا متميزا في منهج الشيخ الغزالي الدعوي؛ حيث يخوض معاركا اجتماعية وسياسية تعكس قوة تأثيره في قلوب سامعيه كخطيب مفوه من على المنابر، وقد ملأت شهرته الآفاق وسطع نجمه هذا من جهة، ومن جهة أخرى التفاف الجماهير الشعبية حوله، تبنيها لطروحاته التي رفعت شعار ضرورة العودة إلى أحكام الشريعة الإسلامية والتخلص من التبعية التشريعية التي رانت بوطأتها الغليظة على المصريين.. وأبرز شاهد تاريخي - على ما سبق ذكره - ما حدث في المؤتمر الوطني للقوى الشعبية (عام 1962) من أجل مراجعة الميثاق الوطني، وإقراره لمرحلة قادمة من مسيرة البلاد.

إذ يشتبك الشيخ الغزالي - في هذا المؤتمر - في معارك فكرية عنيفة خاصة في الرد على الشيوعيين الذين أرادوا إهانته، والانتقاص من قيمته، وللضرورة نسوق هذه الفترات من مذكرات الشيخ الغزالي .. : " انعقد المؤتمر الكبير، وافتتحه الرئيس جمال عبد الناصر، وكان يعاونه السيد كمال الدين حسين، وينوب عنه في غيابه، وكان الأمين العام السيد أنور السادات. وبعد الاعمال التمهيدية، أخذ الأعضاء يسجلون أسماءهم طالبين التحدث إلى الحضور ليشرحوا وجهات نظرهم، وكنت من أوائل الذين طلبوا الكلمة، وقد حددت موضوعي بأناة، وقررت البعد عن التحدي والإسهاب ... ! قلت : أيها الإخوة إن الشعار الذي رفعناه هو تحرير الوطن والمواطن، فهل يتحقق هذا الشعار إذا ؟ أخرجنا الإنجليز وبقيت قوانينهم وتقاليدهم ولغتهم تحتل مجتمعنا وتسيره ؟ فيم كان الشعار إذن ؟ إذا كانت تبعيتنا لهم ظاهرة وولاؤنا لمخلفاتهم قائما ؟ إن التحرير الحق هو أن نحي تراثنا، ونقدم لغتنا وأدبنا، وننفذ شريعتنا وننبذ هذه القوانين التي وضعها المستعمرون لنا وسلخونا بها عن ديننا وتاريخه !! ... ولننظر إلى مصلحتنا الاجتماعية موازيين بين الربح والخسارة ! آلاف من جرائم القتل تقع. والذين يعاقبون بالإعدام نفر قليل ويحكم على

1- محمد الغزالي : مقتطفات من مذكرات الشيخ الغزالي (مصدر سابق) ص 204.

الأكثرين بالسجن، ثم تمر الأعوام ويخرج السجين القاتل، ويرى الإنسان قاتل أبيه أو أخيه في الطريق فيقتله أخذا بالثأر !! .. أيكفي في علاج هذه الحال تكليف بعض الوعاظ بمحاربة الأخذ بالثأر ؟ ما الذي يمنع من القصاص الذي كتبه الله لصيانة الحياة وتحقيق العدالة فنرضي ربنا، ونحصن مجتمعنا.. ! وإنني واحد من الذين يأبون قتل جائع يسرق ليقوت نفسه وأهله، والشريعة يستحيل أن تقطع هؤلاء البائسين؛ لكن إذا وجدنا من يسرق مثنى وثلاث ورباع ليعربد وينفق عن سفه ذات اليمين وذات الشمال، كيف نتركه ؟ لماذا لا نحمي أصحاب الكسب الحلال من عدوان أولئك المجرمين ؟ إن يدا واحدة تقطع ستقضي على العصابات التي احترفت اللصوصية "[1]

وبعد هذا التدخل - بفترة زمنية قصيرة - تناول الشيخ الغزالي مسألة أخرى تتعلق بالزي الوطني وضرورة توحيده للرجال والنساء - اللواتي أشترط لهن - أن يكون ساترا للجسم الشيء الذي أثار حفيظة التيار اليساري ضده فحاولوا تأليب الحضور عليه بتسفيه مداخلاته، وتشويه صورته ظنا منهم أنهم سينالون منه، ولكنهم بهتوا بمظاهرة شعبية عارمة خرجت تناصر الشيخ الغزالي، الذي يصفها بقوله : "...ويظهر أن الله استجاب لي فإن كلمتي - وإن عدها البعض شرحا ماكرا لدعوة الإخوان المسلمين - بلغت أعماق النفوس ولقيت ترحابا واضحا، وتصفيقا شديدا (...) وكان من أعضاء المؤتمر سبعون شيوعيا أفزعهم هذا الجو الإسلامي وزاد من ضيقهم أن جماعات ضخمة كانت تؤدي الصلوات في الأوقات، وتتحدث عن ضرورة التمسك بالإسلام. وقد اتفقت كلمتهم على توجهه ضربة سيئة لي تقف ا نشاطي فأوعزوا إلى الرسام الهزلي " صلاح جاهين " ألا يدع الكلمة التي ألقيتها تمر دون تعليق ساخر يفقدها قيمتها !

وظهرت صحيفة الأهرام في اليوم الثاني وقد صورتني عاري الرأس، ساقط العمامة على الأرض. لأن قوانين الجاذبية شدتها وفق التطور العلمي !! ونظرت إلى الصورة، وقد تملكني الغضب فإن العمامة ليست لباسا خاصا بي، وإنما هي رمز العلماء المسلمين ! والرسام الشيوعي يريد الإيحاء بأن القوانين العلمية ستعصف بالإسلام ... !! قلت في نفسي بدأ الهجوم، إنه بدأ في

1- محمد الغزالي : مقتطفات من مذكرات الشيخ الغزالي (مصدر سابق) ص 205 – 206.

الأهرام واستمر في الكلمات التي تتابعت بالرد علي من شيوعيين آخرين داخل المؤتمر نفسه .. [1] وفي اليوم الثاني طلب الغزالي الكلمة قصد التعقيب على الرطانة الهابطة للشيوعيين، ومواقفهم التي كانت غاية في الغثاثة. وقد لاقى تدخل الشيخ الغزالي - بما اتسم به من قوة الإقناع - صدى طيبا، وتجاوبا كبيرا من قبل المشاركين في المؤتمر - وفي مقدمتهم نائب الرئيس كمال الدين حسين - الذي أظهر تعاطفه مع رأي الشيخ وموقفه. رغم الحملة الشعواء للشيوعيين داخل المؤتمر ضد الغزالي، والذي يصف الموقف قائلا : شرحت موقف الإسلام من المرأة وبينت أخطار فصل قضية المرأة عن الدين .. واقتربت مرة أخرى من نفوس الأعضاء الذين تضاعف حماسهم للإسلام، وظهر أن اتجاههم إلى تحكيمه قوي ! ولابد آن أقول هنا أني وجدت تجاوبا وترحابا من السيد كمال الدين حسين على حين كان غيره من المسؤولين يكاد يتميز من الغيظ .. !! لكنني طالعت الصحف في اليوم التالي فوجدت عدوى الضلال قد انتقلت إلى بقية الجرائد والمجلات .. وأن الحملة علي اتسمت بالجدة والقسوة وتحرك الشيوعيون داخل مؤتمر مرة أخرى، وسمعت هجاء كثيرا .. [2] واستطاع الشيخ الغزالي بطريقته المعهودة في المناقشة بالدليل، وحسن استغلاله لمواقفه التاريخية في محاربة الإقطاع، وحماية المستضعفين والتنديد بالسياسة الفاسدة للقصر الملكي وأذنابه أن يرجع خصومه على أدبارهم خاسئين. ويقول الشيخ الغزالي : "... وشاء الله أن يشعر أعضاء المؤتمر بأنهم أهينوا في شخصي، فكتبوا طلبا للرئيس عبد الناصر أن أعطى الكلمة مرة ثالثة لأسكت هذا الضجيج.. حمل هذا الطلب بعض الأعضاء من الصعيد، ومروا بين الصفوف ليأخذوا إمضاء أكبر عدد من الحضور، فإذا المئات يوافقون وأحس الرئيس جمال عبد الناصر بالحركة. وكان متيقضا لكل ما يحدث وجاءه الطلب ولم أعرف الرأي في قبوله .. وأخذ الأعضاء استراحة نحو نصف ساعة، ثم عادوا إلى مقاعدهم. وكنت يائسا من أن أتكلم مرة ثالثة، فاخترت أن أجلس في مؤخرة الصفوف ...

1- المصدر نفسه: ص 206 – 207.

2- محمد الغزالي : مقتطفات من مذكرات الشيخ الغزالي (مصدر سابق) ص : 205 – 206.

وعندما التأم شمل الجلسة لاحظت أن الرئيس انصرف ! كنت أسترجع الماضي القريب ! إنه من بضع سنين فقط كان رؤساء التحرير الذين سخروا صحفهم لشتمي من رجال القصر الملكي، وبغتة ركبوا عربة هذا الانقلاب المشؤوم، وزعموا أنفسهم طلائع الحرية ... !! وافتتح أنور السادات الجلسة وقال هناك طلب وقعه كثيرون بأن يعود الشيخ الغزالي إلى المنصة، فتعالى التصفيق وغلبت صيحات الموافقة كل شيء ! فقال السادات في هدوء. ليحضر العضو المحترم وليتكلم ... ! " [1] وبتوفيق إلهي منح الشيخ فرصة التدخل للمرة الثالثة.. " وبدأت الحديث مع إخواني قائلا أهي جريمة لا تغتفر أن أقف إلى جانب الإسلام، وأن أشرح بعض تعاليمه ؟ هل الحرية تكفل لكل من أراد نصرة مبدأ ما - فإذا إنتهى الأمر إلى الإسلام فلا حرية ... ! أين كانت أصوات الشاغبين علي وأنا أحامي على المستضعفين أنشد لهم الكرامة وعن الفقراء أتطلب لهم القوت، أين كان هؤلاء يوم ألفت كتابي الإسلام والاستبداد السياسي، في ظل أزمات عصيبة أوقعها القصر بالشعب، إنني لم أسع لواحد من هؤلاء الشجعان صوتا ولم أر لهم أثرا... !! لقد اعتقلت عاما في الطور، وهم يلهون ويلعبون !! الآن نعتبر رجعيين ويعتبرون تقدميين ؟ ألأننا نتحدث عن الإسلام نستباح بهذا الأسلوب؟! يا عجبا، إنه عندما كان الملك فاروق يبحث عن الشهوات كان أولئك المهاجمون لي من رجال الصحافة يشغلون قوادين للملك الماجن !! .. وانطلقت بعد ذلك أتناول موضوع النزاع [2] ولا أدري ماذا قلت بدقة - وإنما الذي أذكره أن الرئيس السادات حاول ثني زمامي وتذكيري بأنني تجاوزت الوقت فرفضت السماع له وشفيت مما نالني ونال المؤمنين معي..[3].

1- محمد الغزالي : مقتطفات من مذكرات الشيخ الغزالي (مصدر سابق) ص 208- 209.

2- كان موضوع النزاع يتمحور حول لباس النساء، وقضايا الأسرة وقد راجع الشيخ الغزالي - يجعل في هذا الخصوص - نفسه - رغم أهمية الموضوع - واعتبر نفسه أخطأ في اختيار الموضوع، ورأى بأنه لو اختار موضوع الحريات العامة لكان أفضل - وقد تحدث الشيخ الغزالي في هذا الموضوع في كتابه معركة المصحف في العالم الاسلامي.

3- محمد الغزالي : مقتطفات من مذكرات الشيخ الغزالي (مصدر سابق) ص 210.

وفي اليوم التالي تحركت الجماهير المسلمة تساند الإسلام في مواقف الشيخ الغزالي وآرائه، وتعلن سخطها على اليساريين، وقد بلغ الجمهور درجة من الغضب فحطم واجهة جريدة الأهرام، وكاد أن يحرقها لولا تدخل رجال الشرطة لحمايتها. ولم تهدأ العاصفة إلا بعد اعتذار الجريدة، ورسامها من الشيخ الغزالي الذي خرج من أجله الشارع كله ليعبر عن عمق وشائجه الروحية بدينه وعلمائه .. ويخبرنا الشيخ الغزالي واصفا تلك الأجواء التي رافقت تلك القضية الساخنة قائلا : "... و ألقيت خطبة الجمعة في الأزهر مختارا لها موضوعا أبعد ما يكون عن قضية الساعة، و أحسست أن الزحام شديد جدا. وبعد الصلاة سكنت مكاني دقيقة واحدة. انفجر المسجد المكتظ بعدها بصياح إختلط فيه التكبير بالبكاء وبالهتاف ورأيتني محمولا فوق الرؤوس لا أعرف ما أصنع ... !!!

وحاولت الإمساك بأي عمود يلقاني من أعمدة المسجد وهيهات! فلما اقتربت بعد لأي من الباب بذلت جهد اليأس في الإمساك به. وأعانني رجال الشرطة على النزول بالأرض والاحتماء بإدارة الأزهر. وكان المصلون في المسجد يزيدون على عشرين ألفا انظم إليهم مثلهم من مسجد الحسين ..

وانطلقت المظاهرة إلى جريدة الأهرام لتحرقها وكلما قاربت هدفها تضاعف عددها. ولكن رجال الشرطة استدعوا نجدات كثيفة لحماية الجريدة فدار الجمهور في غضب رهيب. وقال كبير في الداخلية، لو كانت هذه المظاهرة منظمة أو مدبرة لأحرقت القاهرة .. !! [1]على أن البعض استغل الحدث ليخلط الأوراق - ويشكك في مصداقية هذه المظاهرة من حيث أنها خطة مدبرة من الشيخ الغزالي وتلامذته، وكان على رأس المشككين الأستاذ محمد حسنين هيكل الذي رد عليه الشيخ الغزالي بقول فصل جاء فيه : "... قرأنا ونحن نضحك ما كتبه الأستاذ محمد حسنين هيكل يوم السبت من أن الشيخ الغزالي سير لفيفا من تلامذته لتهاجم الأهرام ! ... إن الحشود

1- محمد الغزالي : مقتطفات من مذكرات الشيخ الغزالي (مصدر سابق) ص 210.

التي سارت صوب الصحيفة المتجنية فوق المائة ألف. فهل أولئك جميعا تلامذتي الذين أوعزت إليهم بما حدث ؟ إن أمتنا تحب دينها، وتريد أن تحيا وتحكم وتوجه به وحده ! وقد ربت ثقتنا في أنفسنا عندما استأنفنا جلسات المؤتمر، ولم نكترث لما كان يلوح على وجه جمال والسادات من ضيق مكتوم ! ... ولما تقرر تأليف لجنة لوضع التقرير المطلوب عن الميثاق المقترح. همست في أذن الشيخ سابق أن العمل الحقيقي قد بدأ، فإن المهم أن يوضع تقرير تبرز فيه الصبغة الإسلامية لمصر ويخسر هذا التيار اليساري المنكور.. " [1]

وقد خرج الشيخ الغزالي بعد هذا المؤتمر - بمكسب آخر يتمثل في استرجاعه لثقة الإخوان فيه من جديد،خاصة أولئك الذين انساقوا وراء الأكاذيب المروجة ضد شخصه وكان من الطبيعي - بعد هدوء العاصفة بوقت قليل - أن تتحرك دوائر السلطة لتعاقب الشيخ الغزالي على جرأته وصراحته - في المؤتمر السابق- وأعقب ذلك تنحيته عن منبره ونقله من وظيفة مدير عام للدعوة الإسلامية بوزارة الأوقاف إلى منصب مفتش بها. ورغم ما لحق الشيخ الغزالي من حيف وجور نتيجة تلك الإجراءات التعسفية ضده إلا أنها لم تثن له زماما، ولم تثبط له عزيمة. بل كانت فرصة أخرى للتفرغ من جديد للتأليف فكتب في هذه الفترة (الجانب العاطفي في الاسلام) و(معركة المصحف في العالم الإسلامي) و(دفاعا عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين)، ومنعت الشرطة ثلاثة من كتبه من إعادة الطبع : (مع الله) و(التعصب والتسامح).

وصودر الكتاب الثالث (كفاح الدين) * من قبل الداخلية ! ولم يتوقف البلاء عند هذا الحد بل تجاوزه إلى محاولة تكبيل الحرية الشخصية للشيخ الغزالي، والذي يصف هذه الفترة الحرجة من حياته

1- المصدر نفسه : ص 210.

(*) : ذكر الشيخ يوسف القرضاوي آن الشيخ الغزالي هم بأن يجعل هذا الكتاب في البداية (سياسة تمويت الإسلام) ولكنه رأى في العنوان الثاني (كفاح دين) أدل على روح المقاومة والكفاح الكامنة في طبيعة الاسلام. وسبب مصادرة الكتاب - كما قال الشيخ يوسف القرضاوي - كشف اللثام عن الخطط المبيتة لضرب كل تحرك للإسلام والاستعانة على ذلك بأبناء المسلمين، وذكر فيه إحصاء بالمساجد التي هدمها رجال الثورة بدعوى تجميل المقاهي، ولم يبنوا بدائل لها، كما أنه سلط الضوء على ما تقوم أجهزة الإعلام من تخريب العقول والضمائر / يوسف القرضاوي (الشيخ الغزالي كما عرفته)، ص 48.

بقوله : أبلغني أصدقائي، أن حظرا صدر بحقي يقضي بألا أظهر في الإذاعات كلها مسموعة أو مرئية فإذا انضم ذلك كله بعضه إلى بعض. فالقصد واضح هو تجميدي ماديا وأدبيا. وضرب حصار خانق حولي .. !! وأنزلت بالله حاجتي، وكتمت مخاوفي في أعماقي، ولم تزل ابتساماتي على فمي أمام أهلي وأصدقائي، وكل يوم يتناقص معه رصيدي، ويتسلل القلق إلى فؤادي بيد أني أعلل النفس بالأمل وأرقب من الله الفرج " [1] شاء الله - في ذلك الوقت - أن ترسل دولة الكويت في أثر الشيخ الغزالي تطلب استقدامه إليها لغرض إحيائه شهر رمضان بالوعظ والدعوة، فاستجاب الشيخ ملبيا الدعوة، وكانت نعمة ظهرت بركاتها عليه، وفرجت عنه ما كابده من ضيق يقول الشيخ الغزالي : " عدت من الكويت وقد قضيت شهرا مباركا أتيح لي فيه ما كان محظورا علي في القاهرة، حاضرت في المساجد الكبرى وتحدثت إلى أمهات الصحف، وسجلت دروسا كثيرة في التلفاز والإذاعة وتعاقدت مع الناشرين على طبع عشرة كتب من مؤلفاتي... عدت من الكويت وكنت قبل سفري شديد الوجل من الأزمات الزاحفة على (...) ماذا كان على القاهرة لو وسعتني كما وسعت الشيوعيين والملحدين من كل لون ؟ إنني أحتقر من أقصى القلب ناسا يتشدقون بالحرية والعقلانية، فإذا تحدث الربانيون الدارسون، وشرعت الجماهير تتدافع إلى ساحاتهم جفت حلوقهم من الذعر والهلع وتنادوا فيما بينهم .. امنعوا فلانا وفلانا من الكلام، وحولوا بين الناس ودينهم حتى لا يسمعوا منهم حجة ثم رجعوا في صفاقة نادرة يقولون .. الحرية، التقدمية العلمانية .. الخ " [2].

ومع أوائل الستينات فتح جمال عبد الناصر أبواب مصر للنشاط الماركسي في الأخذ بنظرياته وتطبيقاته - وكنا قد استعرضنا سابقا تجربة مراجعة الميثاق الوطني - الذي كان في حقيقته تجسيدا لفلسفة الثورة على أساس أن الاشتراكية هي الحل الحتمي لفائدة النهوض بمصر. وأصبح واضحا أن جمال عبد الناصر قد تحالف مع الشيوعيين، وسمح لهم بالانتشار في كافة

1- محمد الغزالي : مقتطفات من مذكرات الشيخ الغزالي (مصدر سابق) ، ص 312.

2- المصدر نفسه: ص: 213.

أجهزة الحكم، وتحولت السلطات السياسية المركزية إلى مراكز قوة شيوعية مطلقة الصلاحيات، واستشرت كالسرطان في بنيان المجتمع المصري تدمره من الداخل وتعطل روحه. ولم يعد الرئيس جمال عبد الناصر يصرف شؤون مصر وفق مصلحتها، ولكن يصرفها تبعا لأوامر الكرملين الشيوعي الذي بات يخشى على مصالحه في المنطقة من تزايد المد الإسلامي مثلا وبشكل أخص في جماعة الإخوان المسلمين - كبرى الفصائل الإسلامية آنذاك - والتي كان لها الفضل الأكبر في نجاح جمال عبد الناصر ورفقائه لضباط الأحرار في ثورة يوليو (سنة 1952 م) إذ وقف الإخوان بجوارهم، وقاموا بتعبئة الشعب لمناصرتهم. بل كانوا يعتبرون الثورة منهم ولهم. وعوض أن يحفظوا عبد الناصر للإخوان هذا الجميل (هو الذي اتصل بهم اتصالا عضويا نشطا إلى ما بعد قيام الثورة) وذلك بالتعاون معهم في سبيل المصلحة العامة لمصر؛ راح يتربص بجماعة الإخوان الدوائر، ويزرع بذور الفرقة والشقاق بين عناصرها وأدت الفتن إلى انقسام الصف وافتراق الكلمة. ولم يكتف عبد الناصر بهذا فراح يخطط مع الشيوعيين الذين يناجزون شعبه العداء مقامرة خسيسة ضد جماعة الإخوان بحث لها من أسباب التبرير فلم يجد غير (تهمة الإرهاب)عنوانا كبيرا يغطي بها ظلمه وبغيه ونقمته على الإخوان. ويظهر أن الهدف الحقيقي لتلك المؤامرة كان أكبر من مجرد النيل من الإخوان ذاتهم، بل تعداهم إلى محاولة الإجهاز على الإسلام عدو الشيوعية تمهيدا للقضاء عليه نهائيا. والشيخ الغزالي وإن كان – في تلك الحقبة ن السوداء - بعيدا عن جماعة الإخوان بسبب فصله منها ولكنه لم يترك العمل والدعوة للإسلام وقد أكسبته خطبه من على منابر مساجد (عمر مكرم) و (الأزهر) شهرة كبيرة يضاف إلى هذا كتبه التي أصبحت ذائعة الصيت في كل مكان...

واستغل رجال الثورة ظروف بعد الشيخ عن الإخوان، فحاولوا استمالته والاستعانة به لغرض التجريح بالجماعة والتشهير بأنها لا تزيد عن كونها عناصر إرهابية تسعى إلى السلطة. ولكنه (الغزالي) أنكر على ذوي السلطة هذا - الإصطياد في الماء العكر - فنضحوا عليه من ماء سفالتهم في سجن طرة من أساليب المهانة والازدراء - ما تجاوز حد الوصف أحيانا - وأجدني

هنا مضطرة إلى نقل بعض الفقرات التي يذكر فيها الشيخ الغزالي الدواعي الحقيقية لاعتقاله فيقول: " طلبت إلى الإذاعة فلما ذهبت وجدت عددا من الشيوخ والإخوان الأقدمين. وكانت التعليقات محددة : إن الرئيس أمر بنشر مساوئ الإرهابيين وتحذير الأمة من الثقة بهم أو التعاون معهم، ويجب أن تقوم بهذا الواجب الوطني على عجل ! وتململت فوق كرسي ضائقا، ولاحظ ذلك المشرفون على البرنامج فتجاهلوني ثم كلفوني بوصفي من الإخوان. أن أبدأ للتسجيل ! كان جوابي حاسما : أنا على استعداد للحديث عن الإسلام، وضرورة إحياء ما مات من أحكامه ! ومستعد لإرشاد المخطئين، حكاما كانوا أو محكومين لإصلاح ما يكون قد بدر منهم من خطأ أما شتم الإخوان وحدهم، فليس من خلقي أن أجهز على جريح ... !! قيل : إنهم فصلوك من جماعتهم ؟ فلماذا تبقي عليهم؟ قلت : إذا استضعفوني أيام قوتهم، فلن أستضعفهم أيام حريتي ... ! وما هي إلا ساعات حتى كانت القيود في يدي ! .. وانطلقت السيارة بنا إلى سجن طرة .. واقتادني اثنان من الجنود إلى "الزنزانة " المعدة لي، وأرياني داخلها على ضوء خافت جردالين : أحدهما لقضاء الحاجة، والآخر غطاء !! ثم أوصدا الباب وتركاني وحدي في ظلمة يضيئها جو السماء من خلال كوة في السقف.. كان ما حدث كله مباغتة بعيدة التصور ! فبقيت مكاني أفكر كيف سأحيا هنا ؟ وعلى أي نحو ؟ وهل سأعذب كثيرا ؟ وبينما أنا في استغراقي سمعت آذان الفجر، فصليت إلى ما ظننت أنه قبلة ولففت حذائي في سراويل معي وجعلته وسادة واستغرقت في النوم بعد أن قلت لربي : جعلت زمامي في يديك ، آمنت بك وتوكلت عليك ... أخلفني في أهلي بخير .. !! ثم رحت في سبات عميق ! "[1] لقد كان التدمير المعنوي السمة البارزة التي تعاملت بها السلطة القمعية ضد العلماء والدعاة إلى الله والشيخ الغزالي من هؤلاء الذين رفضوا المدح تزلفا. وآبوا الشهرة فوق جماجم الإخوان. فكان جزاؤه أن يعاقب في سجن طرة حيث تمتهن الكرامة الإنسانية في أحط مستوى ممكن،وتخلع عليها قسوة تمتزج بالذل ولذع المعاناة.

1- محمد الغزالي : مقتطفات من مذكرات الشيخ الغزالي (مصدر سابق) ، ص 217 – 218.

ويصف الشيخ الغزالي بعضا من تلك المشاهد قائلا : " كان الأكل رديئا جدا ولكنه يقيم الظهر مهما تقزز المرء عند تناوله ! أما المشكلة التي خشيت منها على حياتي فهي البرد الذي يهبط من كوة مفتوحة أبدا لأنها المنفذ الوحيد إلى الدنيا ففي أثناء الليل أشعر بتيار يريد فتح جنبي الأيمن أو الأيسر كلما تقلبت وأين المفر! .. وتضرعت إلى السجان بعد أن آنست منه نظرات عطف أن يصنع لي شيئا فأتاني بقطعة خيش كبيرة جعلتها على " الإسفلت ". واتخذت البطانيتين المهلهلتين غطاءا... ! وأحس الإخوان المسجونون بمقدمي، وكان بعضهم يتطوع مع الموظفين الرسميين في الخدمة والنظافة، فاتفقوا على إراحتي من كنس المكان الذي أعيش فيه، ومن رمي فضلاته بعيدا، وعرفت بعد ذلك أن الذي قام عني بهذه المهمة مدرس بإحدى المدارس الثانوية .. ! (...) إنني في كتابي قذائف الحق نقلت أطرافا من صنوف النكال الذي نزل بأولئك الشباب فهلك، وفقد من بقي صوابه أو سكينته أو طعم الحياة نفسها إلى أن يلقى الله، وذلك كله لتنصرف الأمة عن دينها لتنسى الإسلام. وتسكت عن المناداة بكتابه وسننه ! .. ومع المحن السود التي مرت بالعاملين لهذا الدين إبان هزيمته، فإن ألوفا مؤلفة من الشباب الأبرار ظلوا أوفياء للحق مخلصين لله. والغريب أن ضرب الإسلام أصبح عادة مألوفة لكل وغد يملك السلطة هذا ليخدم الشيوعية، وذاك يخدم الصليبية ! وكلتا الجبهتين تخدم اليهود وترى أن إسرائيل خلقت لتبقى .. وكلتاهما يعتمد في منهجها السياسي على عقيدة صلبة أما العقيدة عندنا وهي الإسلام – فمنكورة محصورة - يستطيع أي تافه أن يتناولها بالهمز واللمز ثم يمضي لشأنه كأنه لم يفعل شيئا !! "[1].

ورغم ما تجرعه الشيخ الغزالي من مرارة داخل السجن، بيد أنها كانت فرصة ثمينة للاختلاء بالقرآن الكريم الذي عكف الشيخ الغزالي على قراءته، وعزم على ختمه كل أربعة أيام وهو يشير إلى واحدة من تلك السبحات الروحية والدقائق الغالية فيقول : " كنت ذات ليلة مضطجعا في ثياب السجن فوق الإسفلت، فجعلت أتلو في نفسي سورة المائدة، ألاحظ أثناء ذلك مضامينها

1- محمد الغزالي : مقتطفات من مذكرات الشيخ الغزالي (مصدر سابق) ص :218

واحد تلو الآخر فأحس بينهما من التناغم ما لم أنتبه إليه من قبل .. وهكذا هديت في ظلمات هذه المحنة إلى أنوار من المعرفة أضاءت لي سبلا جديدة إلى أفق من الفهم القرآني "[1].

بقي الشيخ الغزالي نحو عام كامل في السجن، كان فيها دائم التوجه - بروح الشكوى وضراعة المهزوم - إلى خالقه بأن يفك أسره وأسر إخوانه. وجاء الفرج أخيرا عندما أصدر الرئيس جمال عبد الناصر – إثر عودته من المغرب - أمرا بإطلاق سراح الشيخ الغزالي لعدم ثبوت تهمة واضحة عليه. وفي هذا السياق يروي لنا الشيخ الغزالي ظروف خروجه المفاجئة له فيقول : " بعد أن صليت العشاء سمعت ضجة غير معتادة، انفتح الباب وتدلى سلك من الكوة فيه مصباح كهربائي، ودخل ضابط كبير عرفت أنه رئيس المعتقل، وسألني : شيخ غزالي تطلب شيئا ؟ قلت : الملابس عندكم ! فأمر فجيء بها !! وشرعت أرتديها واقتادوني إلى إدارة السجن، فشربت كوبا من الماء لأول مرة من عشرة أيام في إناء زجاجي !! ثم نقلتني سيارة إلى وزارة الداخلية، فقلت في نفسي : الآن يبدأ التحقيق ... ووقفت أمام ضابط جالس في ركن الحجرة. وقفت على بعد منه، وتهيأت للأسئلة. وإذا هو يقول لي تفضل، فنظرت حولي فلم أجد كرسيا أجلس عليه !! فأعاد الأمر تفضل ! فقلت له ماذا أفعل ؟ فقال تفضل عد إلى بيتك، فخرجت وأنا لا أصدق نفسي ولا ما حولي، وسرت قليلا بجوار الوزارة فوجدت عمارة شاهقة مكتوبا عليها اسم الجلالة منارا بالكهرباء... شعرت برغبة عميقة أن أقبل اسم الله !! لكن كيف ؟ طويت حبي في قلبي وأخذت سيارة إلى بيتي وكان منظر القاهرة غريبا أمام عيني، لقد كنت في الجب والآن أنا على ظهر الأرض، وعلى قيد الحياة، ما أجمل الحرية ! وما أجملها مع الأمن والإيمان !! إذا كان الله قد فك إساري فليكن شكري لنعمائه أن أسعى في فك إسار الآخرين... صحيح أني أهون المؤمنين عذابا، بيد أني أسرعهم إلى الله كلما دهمني كرب، وما زلت أرجو عافيته، وأفرح بها لنفسي ولغيري من عباد الله... ! وفيما أنا أستعد لاستئناف نشاطي، جاء بيتي المهندس " أحمد عبده الشرباصي " والشيخ " أحمد حسن الباقوري " فخففت لاستقبالهما فقال لي الشيخ الباقوري بعد

1- نصر الدين لعرابة : الشيخ الغزالي حياة وآثار... (مرجع سابق) ، ص 182.

تهنئة بالإفراج : تدري من أخرجك ؟ فقلت في استغراب : من ! قال : جمال عبد الناصر. إنه لما حضر من مؤتمر المغرب، بلغ بمن اعتقلوا في غيابه، وكنت أحدهم. فسأل : ماذا حدث منه ؟ فلم يلق من أحد جوابا : فأمر بإخراجك فورا .. فنفذ أمره ليلا ساعة صدر .. ! ألجم هذا الخبر لساني، وكان له دوي هائل في نفسي، ثم قلت : إذن سأذهب إلى قصر عابدين وأكتب شكري في سجل الزيارات، ولكن يوم السبت لم يجيء حتى ألقي القبض على زوج ابنتي الكبرى، وزج به في السجون مع آخرين فقلت : أهذا يليق ؟ علام الشكر بعد هذا ؟ لن أذهب ! وبقي صهري في السجن أربعة أشهر، ثم أفرج عنه ما سئل في شيء، ولا نسب إليه شيء !! " [1]، وقد أثارت هذه المواقف المتناقضة للسلطة حفيظة الشيخ الغزالي، ، فاستطرد قائلا : " لقد كنت أخف أهل البلاء بلاءا. أما الثمانية عشر ألفا من الشباب الذين احتوتهم سجون أخرى فقد مرت بهم أهوال تشيب لها النواصي... ليكن في جماعة الإخوان ناس مجرمون فلنكن نحن مسلمين في محاسبتهم ومؤاخذتهم، أما أن يؤخذ الجار بالجار والقريب بالقريب والبعيد بالبعيد فهذا ما تنكره الأرض والسماء، اللهم إلا إذا كان هناك قصد آخر من وراء هذا الاستقصاء والاستئصال ... ويجب أن يسجل في التاريخ العام أن المصريين الذين اعتنقوا الإسلام مخلصين وناصروه على امتداد القرون قد تحملوا في الثلث الأخير من القرن الرابع عشر آلاما فوق طاقة البشر وأنهم قدموا نماذج للبطولات الماجدة أهيل عليها التراب في صمت، وينبغي أن نشق حجاب هذا الصمت ونستخرج الدفائن المتوارية تحت طباقه لتكون عبرة ولتكون مفخرة ... " [2].

لم يخف الشيخ الغزالي - في أكثر من مناسبة - حيرته من مواقف عبد الناصر المتناقضة اتجاه الكثير من القضايا. وسياسته الحاقدة على الإسلام فيقول : " والحق إني حائر في فهم جمال عبد الناصر. لقد كنت من جماعة الاخوان المسلمين، وأقرر أن جمال عبد الناصر وكمال الدين حسين بايعا في ليلة واحدة على نصرة الإسلام ورفع لوائه، وقد كنت قريبا من مشهد مثير وقف

1- نصر الدين لعرابة : الشيخ الغزالي حياة وآثار... (مرجع سابق) ، ص: 219.

2- محمد الغزالي : قذائف الحق (منشورات المكتبة العصرية، ط 2 ، د.ت) ص 113- 114.

فيه جمال عبد الناصر أمام قبر حسن البنا يقول : نحن على العهد وسنستأنف المسيرة ! ... لا أدري ما حدث ذلك، إنه تغيير رهيب في فكر الرجل ومسيرته جعله في كل نزاع بين الإسلام وطرف آخر" [1].

إن دكتاتورية جمال عبد الناصر هي التي دمرت الشعب المصري، وما اتبعته من أساليب القمع والتنكيل حطم في نفس المصري الالتزام بقواعد الدين حتى وصل الحال إلى إخفاء الناس لأداء العبادات والفروض خوفا من اتهاماتهم بأنهم ينتسبون إلى جماعة الإخوان المسلمين وأصبح الكلام عن الإسلام كهمس متهافت النبض في نفس صاحبه. والانتماء إليه (الإسلام) جريمة يعاقب عليها القانون. وخلت الساحة من الشرفاء ووجد الانتهازيون فرصتهم الماسية للتسلق إلى الأعلى بالتملق والنفاق. وشطب من قاموس الأخلاق شيء اسمه كرامة الإنسان وعرضه وحرمة دمه. "ويكفي أن نقرأ الكتب التي كتبها مستشارون ومحامون - عن العهد الناصري - لنعرف إلى أي درجة من الوحشية تعرض إليها الناس أثناء تلك الفترة " [2].

يقول الأستاذ أحمد أبو الفتح : " إن الحكم الدكتاتوري هو أسوأ حكم مر على مصر وشعب مصر قدر ما فعل حاكم من أبناء الشعب، استعمر وطنه بقوة البطش والإرهاب وأذل هذا الوطن بهزائم منكرة... يشتم أمريكا فتصفعه فيستقبل الصفعة ساكنا، ويشتم إسرائيل فتصفعه فيرضى بالصفعة مستخذيا. إن شعب مصر هو وحده الذي لم يصفعه. لأنه كان مكبلا بالقيود والأغلال... حتى الحرائر الفضليات من النساء لم ينجين من انحطاط وسائله، وسفالة أعوانه، ليت لي من قلة الحياء ما يمكنني من وصف ما فعل معهن وبهن"[3]. هكذا صور حملة الأقلام، ورجال الفكر فترة حكم عبد الناصر وسياسته في تسيير شؤون أمته. انتهى ذلك كله إلى كوارث ومآسي سقت الشعب المصري كؤوسا مترعة بالعلقم والإذلال، كانت إحدى تلك الكوارث هزيمة الجيش المصري في عام 1967 لم يعرف لها التاريخ مثيلا ففي دقائق معدودات انتهت لتمرغ جباه العرب

1- يوسف القرضاوي : الشيخ الغزالي كما عرفته (مرجع سابق) ص 48.
2- محمد شلبي : الشيخ الغزالي ومعركة المصحف في العالم الإسلامي (القاهرة دار الصحوة ط 1، 1987) ص54–55.
3- عمر التلمساني : (قال الناس... ولم أقل في حكم عبد الناصر. دار الصديقية للنشر ط 1 ، د.ت) ص 169.

عموما وشعب مصر - بخاصة – في الوحل والطين. وقد كتب الأستاذ إبراهيم سعد الدين – بهذا الخصوص – يقول : " في سنة 1967 دفعنا الاتحاد السوفيتي دفعا إلى تحطيم قواتنا، وتكليل جباهنا بأكاليل العار، وملء أفواهنا بتراب الهزيمة فوق أرض سيناء. لقد كسبت اسرائيل الجولة الأولى كما لم تكسبها أي دولة أخرى في التاريخ. كانت الهزيمة كاسحة وكان العار فاضحا وكان اليأس شاملا، الجهل القيادي لعب دورا مؤلما في هزائمنا المتتالية والزعامة والأنانية دفعت البلاد إلى الخراب والفساد " [1].

وكانت نتيجة هذه الهزيمة التاريخية أن ضاعت سيناء والجولان والضفة الغربية بالإضافة إلى استشهاد الألوف من شباب مصر، وجد جمال عبد الناصر من نفسه كل الجرأة في إخراج مسرحية للكذب على المصريين،وإيهامهم بالنصر المزعوم، ثم في تنازله عن سدة الحكم إمعانا في الاستخفاف بعقلية ومشاعر الشعب المصري، " لقد ظل عبد الناصر يأمر أجهزة إعلامه – ثلاثة أيام – بأن تنشر على مصر عدد الطائرات الإسرائيلية التي أسقطها جيشه حتى بلغت ما يقرب من أربعمائة طائرة إسرائيلية. والشعب يجتمع حول وسائل الإعلام المسموعة يهلل ويكبر ويرقص فرحا عند تساقط الطائرات الإسرائيلية !! [2] والشيخ الغزالي واحد من الذين عايشوا المرحلة، وعانى من نتائجها. " يا آسفا على بلدي المحروب، وأمتنا المغشوشة في عشرين دقيقة فقط دمرت مطاراتنا كلها واحترقت طائراتنا وهي جاثمة على الأرض.. !! غالطت نفسي يوما وقلت لها: "صحيح أن الحربات لابد منها لضمان مصالحنا المادية والأدبية أما يمكن تولي العسكر الحكم ضرورة مقبولة لمواجهة إسرائيل ؟ سيبنون جيشا قويا ويوجهون مواردنا كلها لكسب الحرب. وهذا ميدانهم الذي تخصصوا فيه!! وجاءت الأحداث تقول أن الحكم الفردي الجائر لا يكسب معركة

1- عمر التلمساني : (قال الناس... ولم أقل في حكم عبد الناصر. دار الصديقية للنشر ط 1 ، د.ت) ص : 154.
2- نفسه : ص 163.

أبدا. بل الغريب أن أعظم هزائمه كانت في الميدان الذي تخصص فيه .. !! إن جمال عبد الناصر لم يكسب معركة قط، إلا المعركة التي أدارها ضد إخوانه. وضد الإسلام وضد كرامات الناس!!"[1].

لقد كان الشيخ الغزالي جريئا في فضح سياسة عبد الناصر، التي خانت أحلام الإنسان المصري البسيط في الحرية وتحقيق الذات.

والراجح عندي أن كل تجربة لها ايجابياتها وسلبياتها. فليس من المعقول أن تكون التجربة كلها خطأ أو كلها صوابا، لكن الحكم على تجربة سياسية كالتجربة الناصرية لا يكون إلا بمحصلتها النهائية أي بحساب الأرباح والخسائر على حد تعبير الاقتصاديين.

3- الشيخ الغزالي وفترة السادات :

بعد وفاة جمال عبد الناصر (سنة 1969) عاشت مصر مرحلة إنتقالية جديدة بعد تسلم أنور السادات منصة الحكم. وقد عرف عهده ببعض الإنفراج السياسي بإعلانه سيادة القانون وحده، وفي ظل هذه السياسة حارب السادات مراكز القوى التي سيطرت طيلة العهد الناصري وأمر بمعاقبة زبانيتها. كما أنه شجع حركة الكتابة والتأليف حول مساوئ الحكم الناصري وجرائمه اللاإنسانية في حق الأبرياء. وتطبيقا منه لنهج الإنفتاح السياسي سمح لصوت التعددية الحزبية أن يسمع ويظهر بعد أن ظل الحزب الواحد مهيمنا على الساحة السياسية طيلة ثمانية عشر عاما. واستبشر الناس خيرا بحكم السادات، ولم يكن الشيخ الغزالي أقل تفاؤلا بالعهد الجديد الذي تنفس فيه الصعداء، وسارع إلى تكثيف نشاطه الدعوي الذي أبرزته بشكل خاص خطب الجمعة التي كان يقيمها في الجامع الأزهر واستقطبت اهتمام الكثير من الشباب والمثقفين..

وعرف السادات ما يتمتع به الشيخ الغزالي من تقدير الناس واحترامهم له كداعية. ووقف على ذلك في العديد من المناسبات السابقة * فأراد أن يوسع من صلاحيات الشيخ الغزالي - في

1- محمد الغزالي : مقتطفات من مذكرات الشيخ الغزالي (مصدر سابق) ص 223.

هذا الإطار- فعينه وكيلا لوزارة الأوقاف ويحكي الشيخ الغزالي – في مذكراته - عن اللحظات التي شملت أول استقبال يحضى به من قبل الرئيس أنور السادات فيقول : " عدت من محاضرة تدريبية لأئمة المساجد إلى وزارة الأوقاف كي أنجز الأعمال الادارية المطلوبة مني فوجدت موظف الاستعلامات ينتظرني بصبر نافذ ويقول : إن الوزير انتظرك كثيرا لتذهب معه إلى رئيس الجمهورية وأوصى أن تلتحق به فور مجيئك فإنه وشيخ الأزهر على رأس وفد سيلقى الرئيس السادات ! وكان الموظف من الإخوان، وكان حريصا على ما يراه من الخير. فلما وجدني فاترا في الاستماع إليه أقسم علي أن أذهب وأمر سائق السيارة أن ينطلق بي للحاق بالوفد (...) إن أنور السادات لم يكن أفضل زملائه بعد جمال عبد الناصر ربما كان أقلهم غير أن الأقدار جاءت به برغم أنوفهم جميعا وقد قبلوه على مضض، وزين لهم الرضا به أن الأمور ستكون في أيديهم أي أنه سيكون رئيسا صوريا ... وانتهز السادات الفرصة، وتفاهم مع بعض الرجال الناقمين واستولى على السلطة. وزج بخصومه في السجن .. وقادتني السيارة على عجل فلحقت بوفد الأزهر وعلى رأسه الشيخ محمد الفخار ووفد الأوقاف وعلى رأسه الدكتور عبد العزيز كامل. والواقع أن استقبال السادات بالترحاب كان صادقا، فإن العصابة الذاهبة ما تركت ودا في قلب، وبديهي أن يعد الرئيس الجديد بتغيير شامل وأن ينتظر منه الخير ! ..كنت أنا حاضرا بجسدي أما فكري فهو سارح في ذكريات مضت عليها السنون، لكن الرئيس السادات لما وقع بصره على حياني بتقدير خاص وتساءل : أين أنت .. وفهم الحاضرين أنني موضع الرضا فعاملوني باحترام أكثر !! وقد فهم السادات من الدكتور عبد العزيز أن يضم إلى ذلك إعطائي سلطات وكيل وزارة في عملي .. !! قررت أن أؤدي عملي الجديد بأمانة وقوة وأن أنوه بصنيع الرئيس معي وأشكره علانية " [1]

وصدر الأمر بالتعيين فعلا، بيد أن الشيخ وقع في خلاف مرة أخرى مع النظام الحاكم اضطر معه إلى الاستقالة من هذا المنصب بعد يومين إثنين - لا ثالث لهما !! ويعلق الشيخ الغزالي على

(*) ولعل أشهر نك المناسبات ما حدث في مؤتمر القوى الشعبية (سنة 1962 م) وما رافقه من تأييد شعبي عام لمواقف الشيخ الغزالي في نصرة الاسلام.

1- محمد الغزالي : مقتطفات من مذكرات الشيخ الغزالي (مصدر سابق) ص 224 – 225.

ذلك بقوله : " ولما بدأت تسلم عملي كان الأمر أعجل مما أتصور، فقد واجهني إختيار لم أر معه بدا من ترك منصبي مع حرصي على أن أبقى فيه لأخدم ربي وديني، لقد تركته بعد يومين إثنين على طريقة " ما سلم حتى ودع " !! إن الروساء في أمتنا المحرومة يحسبون أنهم اشتروا رجلا عندما أسندوا إليه منصبا. وقد نظرت إلى ميدان الأعمال الدينية والأنشطة الإسلامية فوجدت أن الذي تخير للرجال في هذا الميدان كان حاذق في رمي الإسلام بكل مصيبة .. قال لي أحد العارفين بالسياسة : كان لابد أن يقع هذا الدمار في دوائر العمل الديني فإن الرئيس السادات عاد من أمريكا بغير الوجه الذي ذهب به، قلت كيف ؟ قال : إن اليهود يطلبون أن تكون العلاقات بينهم وبين مصر طبيعية لا عداء ولا جفاء ! ويقضي هذا بتغيير مفاهيم دينية وتاريخية وتحويل

أوضاع إجتماعية وإقتصادية "[1] ...

شاء الله تعالى أن يجتمع الشيخ الغزالي بالشيخ الدكتور عبد الحليم محمود - عندما شغل هذا الأخير منصب وزير الأوقاف - فيتعاونا خدمة للإسلام. وعن أول لقاء بدأ بالتعاون المثمر بين الرجلين يخبرنا الشيخ الغزالي فيقول : " جاءني رسول من الدكتور الوزير يطلبني فذهبت إليه، فأخذني ناحية وقال لي إنني أريد أن أبدأ عملي في وزارة الأوقاف لخدمة كتاب الله، فأعلن عن مسابقة بين طلاب الأزهر وأرتب جوائز سخية لمن يحفظون القرآن الكريم وأريد أن أمضي القرار الوزاري بذلك اليوم !! فحمدت له هذا الإتجاه، وتم إنجاز ما يبغي وافتتح الرجل الطيب أعماله بتقديم الخير للمسلمين "[2].

1- محمد الغزالي : مقتطفات من مذكرات الشيخ الغزالي (مصدر سابق) ص 229.

2- المصدر نفسه: ص 227.

وسرعان ما ازدادت العلاقة ترابطا وتماسكا بين الشيخ الغزالي والشيخ عبد الحليم محمود خاصة عندما كلف الإمام الوزير الشيخ الغزالي أمر الخطابة في مسجد عمرو بن العاص - رضي الله عنه - بعد رؤية جليلة رآها الشيخ عبد الحليم شكا له فيها الصحابي الجليل من هجر مسجده؛ الذي أصبح مهملا حتى أنه في أجزاء كثيرة منه أضحى مرتعا لقمامة أهل الحي؛ وهو المسجد الذي كان – إلى وقت طويل - يضيء مصر بنور الإسلام بفضل الصفوة المباركة من مدرسة النبوة، ويمد القلوب المؤمنة بنفحات إيمانية متجددة - ويظهر - أن الدكتور عبد الحليم قد عزم على إحياء ما مات من فضائل وجلال المسجد فكلف الشيخ الغزالي بأن يتولى عملية الإحياء للمسجد من جديد. وكان هذا القرار في نظر الشيخ الغزالي - أول الأمر - أشبه بالنفي عن دائرة التوجيه التي تعود القيام بها في الجامع الأزهر فراجعه في الأمر ولكن الإمام الوزير رفض وأصر على التكليف ملخصا قراره الأخير في كلمات موجزة.. اليوم الأربعاء بعد غد سأصلى وراءك في مسجد عمرو بن العاص، فاستعد ! يقول الشيخ الغزالي : ... " وجاء يوم الجمعة وكنت في المسجد مبكرا لأشرف على تهيئة مكان للصلاة ! كانت أكوام القمامة حول المسجد تصل السقف بالأرض وكانت هناك سحب من الدخان تغطي المسجد من الفواخير " المبعثرة إلى جواره. وكان صحن المسجد قطعة من صحراء مهجورة يشيع فيها التعرج والإلتواء، ونظرت إلى المساحة الشاسعة التي تقع بين أجنحة المسجد المتداعية ثم قلت : ماذا أصنع في هذا المكان الذي تعوي فيه الرياح .. " [1].

لكن سرعان ما تغيرت نظرة الشيخ الغزالي ونشطت عزيمته في مواصلة الخطابة في مسجد عمرو بن العاص - رضي الله عنه- بعد أن أدرك الغاية النبيلة التي أرادها الشيخ الوزير من وراء هذا التكليف. وإلى هذا يشير الشيخ الغزالي بقوله :" بعد أن صليت الجمعة الأولى أدركت أن الله

1- محمد الغزالي : مقتطفات من مذكرات الشيخ الغزالي (مصدر سابق) ص 228.

تعالى قد ألهم الرجل الصالح الشيخ عبد الحليم ليعمر هذا المسجد المبارك ويحييه ليكون شاهدا على عراقة انتماء هذا البلد، وشعبه إلى الإسلام، وصدقه في حمل رسالته "[1].

ولم تمض جمعتان أو ثلاث حتى أصبح يغشى المسجد عدد هائل من المصلين وصل أحيانا إلى ثلاثين ألفا والسبب وراء هذا كله كما يقول الشيخ الغزالي : " إنني اهتممت بالموضوع الذي أعرضه على الناس فإن التفسير الموضوعي * للقرآن الكريم كان شغلي الشاغل. وقد تأسيت في أسلوب العرض بالشيخ الجليل الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه (النبأ العظيم) "[2] وبفهم عميق لكتاب الله راح الشيخ الغزالي يفسر آي القرآن وصوره بأسلوب ذمث أسر الأفئدة وجذبها إليه..وشاءت الحكمة الإلهية أن تكون صورة النساء أول صورة يبدأ بها الشيخ الغزالي في هذه السلسلة، وقد تزامن ذلك مع تصاعد الهجمة الشرسة لبعض الأبواق الدعائية (المدعومة من قبل الرئيس السادات وزوجته جيهان) والمطالبة باستئصال شأفة عناصر الشريعة الإسلامية المقننة للأحوال الشخصية. وكان من الطبيعي أن تستفز مثل هذه القضايا الساخنة حمية الشعي المصري المسلم على دينه ومقوماته فلا غرو أن تكون أولى ردود الفعل الطبيعية أن يتجه الناس إلى علمائهم يناشدونهم النصر لشريعتهم ضد كل مجترئ على حدودها. وبذلت مساعي حثيثة من طرف الشيخ الغزالي في مسجد عمرو بن العاص والرامية إلى ضرورة الإسراع بعقد مؤتمر في الأزهر يضم كل المهتمين بالقضايا الإسلامية لتدارس قضية قانون الأسرة المصري على نطاق أوسع وموضوعية أكثر... ويروي الدكتور عبد الرحمن العدوي " ألقى الشيخ الغزالي محاضرة في السبعينات بجامعة الأزهر في نهاية موسمها الثقافي. كان عنوانها مناقشة قضية قانون الأحوال الشخصية، ومدى شرعية تغيير تلك القوانين خدمة للأهواء الشخصية وكان من الحضور الدكتور زكريا البري - وزير الأوقاف الأسبق - الذي أعلن تنصله من تلك الجريمة !! واكتفى الشيخ

1- مجلة إسلامية المعرفة : المعهد العالمي للفكر... (مرجع سابق) ص 13.

(*) التفسير الموضوعي للقرآن الكريم يتناول السورة كلها بحيث يتعرف على الروابط الحقيقية التي تشدها كلها وتجعل أولها تمهيد لآخرها وآخرها تصديقا لأولها..

2- محمد الغزالي : مقتطفات من مذكرات الشسخ الغزالي (مصدر سابق) ص 228.

الغزالي بذلك منه. ثم بدأت كلمته (الغزالي) فألهب الحضور منطقه وحجته وقامت الدنيا ولم تقعد "[1] ولم يكتف الشيخ الغزالي بهذا فحسب. بل راح ينتقد وبشدة المخبوء من مكيدة قانون الأسرة الجديد، واعتبرها صورة من صور التآمر على الإسلام وألهبت الخطب التي كان يلقيها – بهذا الخصوص – جموع الحاضرين فخرجوا في مظهرات عامة مطالبين بإلغاء المشروع الجديد وقد كان ذلك كافيا - كورقة ضغط - ليتراجع الرئيس السادات وزوجته عن مشروعهما إلى حين...

وأيام ذلك الجَزر المزعج .. حدث وأن غاب الشيخ الغزالي عن خطبة الجمعة التي تعود على إلقائها كل يوم جمعة على الناس. وسرعان ما شاع في المصلين أن الشيخ الغزالي قد قبض عليه وأودع السجن مما أثار حفيظة الناس وغضبهم فخرجوا في مسيرة كبيرة يطالبون فيها بإطلاق سراحه. وقد كتبت جريدة الأهرام * تقول : " نظم عدد من الذين تعودوا صلاة الجمعة في جامع عمرو بن العاص في مصر القديمة مسيرة من المسجد بعد صلاة الجمعة – أمس – اتجهت إلى مجلس الشعب، وكان الشيخ الغزالي قد تعود إلقاء خطبة الجمعة في هذا المسجد، ولكنه تغيب عن ها أمس، مما جعل بعض المصلين يتصورون أنه قد ألقي القبض عليه، فنظموا مظاهرتهم... والواقع أن الشيخ الغزالي ليس مقبوضا عليه، ولهذا نصح رجال الشرطة المتظاهرين بالتفرق وطلبوا إليهم عدم الإنقياد وراء الشائعات الكاذبة التي تستهدف إثارة الجماهير، وقد استجابت اغلبية المتظاهرين لنداء الشرطة فيما عدا عدد محدود تم تفرقهم .. وكانت وزارة الأوقاف قد رأت أن تعهد إلى غير الشيخ الغزالي بإلقاء خطبة الجمعة أمس، حتى يتضح الموقف بالنسبة له. إذ إن "صالح سرية " المتهم الأول في قضية التنظيم المشبوه ذكر في التحقيق معه أنه اتصل بالشيخ

1- العطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي حلقة دراسية / المعهد العالمي للفكر الإسلامي (مرجع سابق) ص 191.

(*) جريدة الاهرام : عدد يوم السبت 27 أبريل 1974 م.

الغزالي، ولم تقم النيابة بسماع أقوال الشيخ الغزالي في هذا الشأن ومن هنا رأت وزارة الأوقاف أن توفد خطيبا آخر إلى المسجد بصفة مؤقتة "[1].

وقد علق الأستاذ محمد شلبي على هذا الخبر الذي أوردته جريدة الأهرام قائلا : " حدثني أحد الذين كانوا يصلون في مسجد عمرو بن العاص في هذا اليوم. أن الخطيب الذي كلف بدلا من الشيخ الغزالي كان العالم العامل والشيخ الفاضل الفقيه الحجة صاحب كتاب فقه السنة الشيخ " سيد سابق " وهو من الرعيل الأول لجماعة الإخوان المسلمين وهو زميل وصديق الإمام الغزالي. ولم تكن المظاهرة بهذه الصورة الباهتة التي صاغت بها الأهرام خبرها، ولكنها كانت مظاهرة شعبية إن دلت على شيء فإنما تدل على مدى ما يتمتع به الإمام الغزالي من حب الجماهير له، وإقبالها عليه وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء "[2] ... وبعد هدوء الزوبعة بقليل صدرت تعليمات جائرة تقضي بعزل الشيخ الغزالي عن الخطابة في مسجد عمرو، ووضع اسمه ضمن قائمة المغضوب عليهم ... وعقب ذلك تحويله إداريا إلى مسجد صلاح الدين مع المنع من الخطبة وعندما ذهبت للمسجد لم أجد مكانا ولا حجرة يمكن أن أجلس فيها لأباشر مهام الدعوة !! ولم أجد سوى " سندرة " في حجرة خادم المسجد ! افترشت أرضها وبدأت في كتابة بعض الكتب في خدمة الإسلام "[3].

إن خلاف الغزالي مع السادات كان مثل خلافه مع عبد الناصر؛ " أي بسبب دفاعه عن قضايا الأسرة المسلمة. فقد إستمر نقد الشيخ للأوضاع وللسياسات المرسومة في معالجة شؤون ومشكلة الأسرة المسلمة. فكان لابد أن يتفاقم الخلاف مع السادات ليصل إلى درجة أحس فيها الغزالي بأن الدولة أضحت تضيق به ذرعا، ولا تقوى على تقبل أفكاره وآرائه. فرحب بعرض كريم

1- مسعود فلوسي : الإمام محمد الغزالي، غصن باسق في شجرة الخلود : دار الريحانة، ط 1 – 1420 هـ / 1999 م ، ص 72.

2- محمد شلبي : الشيخ محمد الغزالي ومعركة المصحف في العالم الإسلامي (مرجع سابق) ص 135 – 136.

3- العطاء الفكري للشيخ الغزالي المعهد العالمي ... (مرجع سابق) ص 191.

من المملكة العربية السعودية ليعمل أستاذا بجامعة (أم القرى) بمكة المكرمة "[1] غير أن مواقفه الصلبة كان لها أثرها البالغ في الرأي العام المصري، فقد أخذ كثير من خطباء المساجد ينتقدون قوانين جيهان السلدات المتعلقة بالأسرة والأحوال الشخصية، ثم إن المشروع لم ينفذ وظل عرضه على مجلس الشعب يؤجل إلى درجة " أن الدكتور عبد الحليم محمود - شيخ الأزهر وقتئذ - زاره ممدوح سالم -أحد وزراء الداخلية - وناقش معه مسألة عرض قانون الأحوال الشخصية لمشروع (جيهان) على مجلس الشعب في دورته لسنة 1978 فقال له شيخ الأزهر : لا يتم ذلك حتى تحضروا شيخا للأزهر غيري ليوافق لكم على هذا القانون الذي لن يمر إلا على جثتي [2].

III – المرحلة الثالثة : في الخليج (1974 – 1983)

قدم الشيخ الغزالي إلى المملكة العربية السعودية، فرحبت بوصوله كل الأوساط السياسية والعلمية والدعوية . كما سعد الغزالي بدوره بمجاورة الحرم الشريف وتم تعيينه رئيسا لقسم الدعوة وأصول الدين بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة. واستأنف الشيخ نشاطه العلمي خلال العام الدراسي وأصول العام الدراسين : (1394- 1395 هـ / 1974– 1975م). وقد كان أمر مغادرة الشيخ الغزالي لمصر أمرا شاقا للأوساط العلمية والدينية فيها كما هو بالنسبة للشيخ الغزالي نفسه. يقول الشيخ يوسف القرضاوي : " وفي أحد اجتماعات الرئيس السادات

1- يوسف القرضاوي : الشيخ الغزالي كما عرفته (مرجع سابق) ص 52.

2- محمد شلبي : الشيخ الغزالي ومعركة المصحف (مرجع سابق) ص 156.

سأله رئيس إتحاد طلاب جامعة القاهرة " د.عبد المنعم أبو الفتوح " عن سر التفريط في الشيخ الغزالي ليغادر مصر ويحرم جمهوره منه. وتقريب الضعفاء والمنافقين، وهنا ثارت ثائرة السادات وهاجم الشيخ الغزالي واتهمه بأنه من دعاة الفتنة الطائفية، وما كان الشيخ يوما من هؤلاء ولا يكون، ولكنه رجل صريح شجاع يدق ناقوس الخطر إذا لاح له ما يهدد الأمة فلا يمكن أن يغمض عينه أو يصم أذنه والخطر من حوله يرى ويسمع " [1]. وقد سمع الشيخ الغزالي - في مكة المكرمة - بما رماه به السادات من قذف واتهام وافتراء فغاظه هذا الأمر وشق عليه ثقل هذه الاتهامات، وأراد أن يقيم الحجة والدليل على السادات من موقع العالم والداعية المسؤول المخلص لدعوته، " فأرسل له هذا الخطاب المفتوح الذي يطفح أدبا واخلاصا وعقلانية وشجاعة"[2].

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد / محمد أنور السادات (حفظه الله) رئيس جمهورية مصر العربية

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته... وبعد :

[redacted] فقد استمعت إلى العبارات التي تناولتموني بها في مؤتمر الطلاب، كانت عبارات قاسية فيها أني مستغل للدين وطالب زعامة ومثير فتنة ومستنجد لعواطف المؤمنين... وقد استغرب الناس في " مكة المكرمة " هذا الذي حدث كله ورأوا أن الأمر يحتاج إلى استجلاء

[redacted] ومراجعة فرأيت أن أتوجه إلى سيادتكم بهذا الخطاب المفتوح :

1)- إنني أعمل في ميدان الدعوة من عشرات السنين، فقد التحقت بوزارة الأوقاف في ميدان

2)- آخر ما قمت به في القاهرة دفاعي عن قوانين الأاسرة **الإسلامية** في كلمة مسجلة عامرة بالإقناع والإحصاءات والأدلة الدامغة، ولكنكم قبل أن تستمعوا إليها تناولتموني بالسوء في مؤتمر الطلاب بالإسكندرية واعتبرتموني مسؤولا عن المظاهرة التي خرجت من الأزهر إلى مجلس [redacted] وزارة الشؤون بهذا الصدد، ونسبتم إلي عبارات لم أتفوه بها وكتبت إليكم أستحث ضميركم كي تتعرفوا الموضوع بدقة، ولكنكم لم تفعلوا بل تماديتم في إهانتي.

3)- ظهر الآن من الذي أوعز الوزارة أن تبعدني عن منصبي **(المدير العام للدعوة) وعن إلقائي** في مسجد عمرو بن العاص، ومن رأى ان أرمى في **(سندرة) مسجد صلاح الدين بلا عمل ولا** كرامة، ثم قال للصحف : **إن ما حدث يرجع** إلى صلتي بقضية الكلية الفنية العسكرية؛

فهي معروفة، ولم يقع أني رقيت استثناء أو منحني وزير شيئا بل كان إخلاصي للإسلام سبب الإزورار عني ... إلى أن شعرت آخر الأمر بأن وجودي في القاهرة سوف ينتهي بكارثة، فاستجبت للعرض الكريم الذي جاءني من السعودية وعملت أستاذا بكلية الشريعة بمكة المكرمة.

5)- في سنة 1975 م أفضيت بحديث إلى مجلة " **الإعتصام** " **قلت فيه** : إنني مستعد للتضحية بمرتبي الكبير في الجامعة ومنصبي العلمي بها إذا عدت للعمل وإلى توجيه الدعوة بوزارة **الأوقاف** – أي إلى عملي الأول – **ونشر الحديث**. ورفضت الوزارة أن تتصل بي لأعود إلى **عملي**... والواقع أني عرضت هذه **القضية** بأن رعاية الإسلام في القاهرة جهد يهتم به المخلصون في العالم الإسلامي كله وفي طليعتهم المسؤولون على التعليم العالي بالسعودية ... وقد كتبت إلى

مساجد الوزارة التي عملت بها أكثر من ثلث قرن. لكن المبهورين بقضية الفلوس والحصول عليها أرادوا إظهاري وكأنني ذهبت إلى السعودية جريا وراء المال وزهدا في حراسة الإسلام بالقاهرة... فنشروا في الصحف كلاما سقيما عن المال الذي آخذه في السعودية، وهم يعلمون أني عرضت التنازل عنه كتابة، وأن البحث عن المال لم يشغلن في شبابي، فكيف يشغلني الآن عن واجباتي ؟ وردي عليهم : " حسبنا الله ونعم الوكيل ".

7)- لقد منعتني يا سيادة الرئيس من الخطابة في مسجد " عمرو " هو وكان يصلي معي في هذا المسجد ثلاثون ألفا على الأقل، فماذاكانت نتيجة هذا المنع ؟ إستطاع الشيوعيون في الفراغ الديني السائد أن يفعلوا ما فعلوا، وعجيب يا سيادة الرئيس أن تحارب الشيوعية، وتخاصم في الوقت نفسه التجمع الديني يقضي عليها، ثم تريد القضاء على أدبيا بهذه الطريقة التي تناولتني بها والتي لا أواجهها إلا بـ (حسبنا الله

إنّ هذا الخطاب المفتوح يميط اللثام عن طبيعة الضغوط الممارسة على الشيخ الغزالي قبل انتقاله إلى المملكة العربية السعودية، كما أنه (الخطاب) تصوير صادق لعمق ومرارة الأحزان الدفينة في قلب الشيخ الغزالي بسبب اضطراره للخروج من مصر.

وعن الظروف التي اكتنفت قبول الشيخ الغزالي العرض المقدم إليه من المملكلة العربية السعودية يحكي الشيخ الغزالي قائلا : " لقيني الدكتور محمد الرشيد عميد كلية الشريعة بجامعة الملك عبد العزيز الذي تفاهم معي على العمل في مكة المكرمة، وكنت يومئذ مهزوما مظلوما ضائقا لما أصابني وأنا أحمل علم الدفاع عن بقايا الإسلام في علم التشريع.

كان يراد تنصير قوانين الأسرة فاستمتنا في رد هذه الفتنة وأصابنا من ذلك ما أصابنا قال لي الدكتور محمد الرشيد : لا عليك أن تخدم أبناء المسلمين في دولة تقوم على الدين وترفعه شعارا. وكان الانتقال إلى المملكة العربية السعودية مباغتة لي وكنت قد نقلت في أول كتاب ألفته كلاما عن الملك عبد العزيز يصف صرامته في تأديب البدو والقبائل التي مردت على إيذاء الحجيج .. ويظهر أن الكاتب الذي نقلت عنه جار في حكمه وأشتط في اتهامه وأنا على كل حال مسؤول عن الكلام الذي نقلته وإن وصف خطأ بأني قلته... وسافرت إلى مكة وبدأت العمل في الجامعة وبدأت كذلك أدرس تاريخ الملك عبد العزيز أدرسه سرا وأتعرف على معالمه وحدي.. وكان أول ما استوقفني كتيب فيه الأدعية المأثورة التي كان الملك يتلوها تقربا إلى الله وتطلعا إلى فضله..

قلت : ملك عابد ؟ هذا غريب !! وبدأت أجمع المعلومات. وأنا بعيد عن أي حاكم في المملكة فعلمت ما لم أكن أعلم .. عرفت أن الرجل كان صواما قواما مقبلا على ربه راغبا في نصرة دينه يتحرى الحق ويسأل عنه أهل الذكر ويريد أن يقيم دولة للإسلام تجمع ما تفرق من أمره، وتحميه من الخرافات والأباطيل.. وعرفت أنه كان متواضعا للناس يبعثر فيهم ما يجيئه من مال. وكان المال يومئذ قليلا لم يستكشف النفط بعد وتغزر موارده (...) إنني أكتب هذه الكلمات إنصافا للحقيقة العلمية لا رغبة ولا رهبة أكتبها بعد خمس سنين قضيتها في السعودية كأي أستاذ يشتغل بالتعليم والتربية، ما قال لي مسؤول لماذا كتبت عنا كذا أو لعلك تستدرك ما ذكرت قديما عنا "[1].

وقدم الشيخ الغزالي - خلال هذه الفترة - للمكتبة الإسلامية بعض مؤلفاته القيمة (علل وأدوية) و(مائة سؤال في الإسلام) و(دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين) و (ركائز الإيمان بين العقل والقلب).. وحقق كتابين للإمام الجوزي هما (ذم الهوى) و(صيد الخاطر).. وبعد فترة حافلة بالنشاط العلمي والدعوي الدؤوب استمرت إلى خمس سنوات* قضاها الشيخ الغزالي بأم القرى وسعد فيها بمجاورة بيت الله الحرام بالمملكة العربية السعودية. التحق بكلية الشريعة بدولة قطر محاضرا وأستاذا بالكلية، وداعية في المساجد فكان له دور كبير في تربية وتخريج أجيال صالحة. كما كان يمد الصحافة المكتوبة القطرية بفيض علمه ووافر فكره، وفي قطر كتب الشيخ الغزالي لقرائه (مشكلات في طريق الحياة الإسلامية) والذي كتبه خصيصا لسلسلة كتاب مجلة الأمة القطرية. و(الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر) و(واقع العالم الإسلامي في مطالع القرن الخامس عشر) و(فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء) و(الغزو الثقافي يمتد في فراغنا) و(هموم داعية) وقد أتيحت هذه المرحلة في حياة الشيخ الغزالي أن يزور معظم مناطق دول الخليج العربي ولسنوات طويلة اعتادت دولة الكويت على استضافة الشيخ الغزالي ودعوته خلال شهر رمضان

1- محمد الغزالي : الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر (عين مليلة / الجزائر : دار الهدى 1988) ص 129-130.

(*) ذكر الدكتور عبد الحليم عويس بأن الشيخ الغزالي مكث سبع سنوات في السعودية (صور من حياة مجاهد عظيم) (مرجع سابق) ص 18.

من كل سنة، "حيث كانت له صولات وجولات في نشر الوعي الإسلامي وتنشيط العديد من المحاضرات والندوات الفكرية " [1] (وقد تعرض الشيخ الغزالي أثناء هذه المرحلة لحدث كئيب هز كيانه هزا عنيفا. وكان. له وقع شديد على نفسه ويتمثل هذا لحدث في وفاة زوجته ورفيقة عمره سنة 1980. تقول صغرى كريمات الشيخ الغزالي (منى محمد الغزالي) " تعرض والدي لمواقف صعبة في حياته لعلى أقساها وفاة والدتي في العام 1980 بعد عشرة عمر طويلة رافقته أينما ذهب في بلدان العالم الإسلامي وبعدها عانى الشعور بالوحدة " [2] ورسم قوة المصاب إلا أنّ الشيخ الغزالي استطاع بفضل قوة إيمانه بالله، وصلابة إرادته أن يخرج من هذه المحنة رابط الجأش ثابت العزيمة وثيق الصلة بربه ودعوته ليواصل مشوار الدعوة حيث زار عدة دول مثل كندا وأمريكا وفرنسا وألمانيا من أجل تصحيح الكثير من المفاهيم المتعلقة بالطريقة الصحيحة لفقه الإسلام بتوازن واعتدال. خاصة لأولئك الذين يتواجدون في بلاد المهجر في أوربا وأمريكا.. فكثيرا ما كان الشيخ الغزالي يدعى إلى المؤتمرات الشبابية والطلابية في بلاد المهجر ويمثل مواقع رئيسية في إداراتها الفكرية.

وكثيرا ما دعي الشيخ الغزالي لحضور ملتقيات الفكر الإسلامي في الجزائر - في أثناء تلك الفترة أيضا - حيث كان على صلة مستمرة بالجزائر وهو في مصر، وفي السعودية وفي قطر، " وأثناء وجود الشيخ الغزالي في أحد الملتقيات أبرق إليه ابنه بألاّ يعود إلى مصر، لأن الرئيس السادات قد أصدر قرارا جمهوريا برميه في السجن نتيجة تصريحات أدلى بها منتقدا السياسة المصرية التي أفضت إلى هزيمة سنة 1967... وكان قد حضر في ختام أعمال ذلك الملتقى الرئيس الشاذلي بن جديد فأبلغه الأستاذ عبد الرحمن شيبان - وزير الشؤون الدينية آنذاك - بالخبر فسلم بن جديد على الغزالي ورحب به داعية في الجزائر.. " [3] وكانت لمجهودات - وقتئذ - حثيثة لإنشاء

1- عبد الحليم عويس : صور من حياة مجاهد عظيم (مرجع سابق) ص 19.

2- منى الغزالي : " والدي طيب جدا " مجلة الجلة السعودية لندن (العدد 516) ص 4.

3- مسعود فلوسي : الشيخ الغزالي (غصن باسق في شجرة الخلود) (مرجع سابق) ص 85.

جامعة العلوم الإسلامية في الجزائر وبالرغم من العراقيل التي حاولت بعض العناصر الماركسية وضعها للحيلولة دون إخراج هذا المشروع إلى نور الوجود. ولكن الرئيس بن جديد أصدر مرسوما بإنشاء هذه الجامعة، كما أنه حرص أشد الحرص على أن يكون الشيخ الغزالي أستاذا فيها، ويقوم بإعداد المقررات الدراسية بها. واستأذن الشيخ الغزالي الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني أمير دولة قطر في الموضوع فوافقه هذا الأخير وشجعه على خدمة الدعوة في الجزائر بالرغم من حاجة قطر الماسة لعالم الشيخ الغزالي – بين ظهرانيها – يوجه ويرشد أمور الدعوة والإسلام بها.

وفي الجزائر لم يكن الشيخ مجرد مسؤول علمي عن الجامعة الإسلامية، أو كان خطيبا يهز أعواد المنابر فقط، لقد كان له حضوره المتميز في وسائل الإعلام الجزائرية بمختلف أنواعها المقروء منها والمسموع فقط لقد كان له حضوره المتميز المسموع والمرئي، وقد عرفت مع الشيخ الغزالي نشاطا إعلاميا متجددا؛ حيث كان يذيع مئات الأحاديث في الإذاعة الوطنية كما كان له حديث تلفازي (حديث الإثنين) يشاهده الناس ويتابعونه على اختلاف اتجاهاتهم ومشاربهم، ولطالما أسر الشيخ الغزالي الناس بفصاحته وطريقته في الجامعة والإحاطة بالقضايا التي يتناولها.

IV– المرحلة الرابعة : التدريس والدعوة بالجزائر (1984 – 1989)

شاءت القدرة الإلهية أن ينتقل الشيخ الغزالي إلى الجزائر التي كانت تمر بفترات خاصة من تاريخها؛ حيث "مبادئ الإسلام مغيبة عن عمد ومظاهر الحضارة الغربية الجامحة مازالت تهيمن بكل ما ملكت من قوة " [1] وكأنما القدر قد ساق الشيخ ليبدأ مرحلة عامرة من أحفل مراحل حياته في تغيير كل ذلك بالجد والجهاد وشاء الله أن يحضر الغزالي حفل افتتاح الجامعة بجامعة قسنطينة 1404 ه / 1984 م وكان حفلا كبيرا حضره رئيس الدولة وعدد كبير من الوزراء وكبار المسؤولين، ووالي قسنطينة، وسفراء الدول الإسلامية. وكان الشيخ الغزالي أول المحتفى بهم وهكذا بدأ الشيخ عمله بجامعة الأمير عبد القادر خلال عامها الدراسي الأول 1404 – 1405/

1- عمار طالبي : الشيخ الغزالي كما عرفته في الجزائر – مجلة إسلامية المعرفة (مرجع سابق) ص 49 – 50.

1984 – 1985. واختار لنفسه تقديم التفسير الموضوعي للقرآن الكريم والسيرة النبوية. ويروي الأستاذ إبراهيم نويري – وهو أحد طلبة الدفعة الأولى في الجامعة الإسلامية – " أن أول محاضرة ألقاها الشيخ الغزالي على طلبة الدفعة الأولى كانت تحت عنوان " مدخل إلى شخصية الرسول – صلى الله عليه وسلم - وطبيعة رسالته) ولم يستطع الشيخ إكمال المحاضرة لأن الدموع قد خنقته فلم تمهله ليكمل.. وأرغمته الدمعة على أن يطيل الصمت قليلا، ثم عقب بقوله : لن تسعد الدنيا إلا إذا عادت تسير وراء محمد عليه الصلاة والسلام تأخذ عنه وتتعلم منه. وإني لآت إلى المحاضرة وأنا أفكر ماذا أقول عن هذا الرجل "[1].

واستمر الشيخ يلقي محاضرتين كل أسبوع؛ الأولى صبيحة السبت والثانية صبيحة الأربعاء إلى جانب ترأسه لمجلس الجامعة العلمي، فضلا عن المحاضرات والمداخلات التي كان يلقيها في المناسبات والندوات والملتقيات التي تعقد داخل الجامعة. أما خارج الجامعة فقد كان الشيخ الغزالي يدعو إلى الله، ويوجه شباب الصحوة بنصائح الأب الحاني على أولاده. كما بذل الشيخ الغزالي جهودا مضنية في نصح المغالين، وإعادة بعض المتنطعين إلى نهج الوسطية والاعتدال. وقد زار الشيخ الغزالي معظم ولايات ومدن الجزائر من أجل نشر الوعي الإسلامي الصحيح بين الناس.

ولم يكتف الشيخ الغزالي بذلك، بل راح يحمل نفسه مالا تطيق أحيانا من العمل المتواصل والنشاط العلمي والدعوي الدؤوب في سبيل نصرة الدين مدافعا ذائدا وحارسا متيقظا لا ينشد الراحة ولا تنام عينه إلا قليلا. لقد أرهق الشيخ نفسه في الجزائر إرهاقا أحس بوقعه الجميع على الرغم من تقدمه في السن وكان من مضاعفات هذا الإرهاق أن أصيب بجلطة في الدم وأمراض أخرى وأجمع كل من عايش الغزالي - آنذاك - أنه تعب في الجزائر كما لم يتعب في أي بلد آخر. وفي غمرة الأحداث والظروف التي عاشها الشيخ الغزالي في الجزائر كتب مجموعة من مؤلفاته الفذة منها (السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث) و(الطريق من هنا) و(قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة) و(جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج) و(سر تأخر العرب والمسلمين)

1- عمار طالبي : الشيخ الغزالي كما عرفته في الجزائر – مجلة إسلامية المعرفة (مرجع سابق) ص :50،49

و(المحاور الخمسة في القرآن الكريم) والجزء الأول من (الحق المر) و(مستقبل الإسلام خارج أرضه كيف نفكر فيه) و(صيحة تحذير من دعاة التنصير)...

وفي بحر تواضع الشيخ الغزالي وحبه للشعب الجزائري قام بعمل جليل لا يقدم عليه إلا من كانت له خصائل العلماء والدعاة إلى الله ؛ " فقد سمح بإعادة طبع مؤلفاته والتنازل عن حقوقه المادية لصالح القارئ في الجزائر بحيث يقترب الناشر من بيع هذه المؤلفات من ثمن التكلفة، أما عوائد الأحاديث المسموعة والمرئية التي تم إفراغها في أشرطة سمعية بصرية فقد تبرع بها الشيخ للمعاقين في الجزائر" [1].

كان الشيخ الغزالي أينما حل في الجزائر " أشبه بعيادة الطبيب يؤمه الناس للاستشفاء فيقدم لكل سائل ما يناسب قدر عقله من الدواء ... لقد أدرك بثاقب عقله ذهنية الإنسان الجزائري ذات القابلية للغرس والنماء " [2] فكان يبذل غاية جهده وأقصى طاقته في سبيل توعية الشعب الجزائري، وترقية فهمه للإسلام الصحيح وقد ظل الشيخ قرابة خمس سنوات في الجزائر شعلة متقدة من النشاط المتواصل وكأنه عاد إلى شبابه من جديد. فشباب العلم قد أضفى عليه حيوية ونشاط وجلال المعرفة قد كساه مهابة وعمق الإيمان قد أشرق في قسمات وجهه نورا وبشاشة. واستطاع الشيخ أثناء وجوده بالجزائر أن ينشئ فروعا للجامعة الإسلامية في مختلف أنحاء القطر الوطني. كما

1- كان هذا التبرع عندما عرض الصحفي عبد القادر ذور على الشيخ الغزالي فكرة إفراغ أحاديثه في أشرطة سمعية بصرية وتسويقها بعد استنساخها، وهذا نص التبرع : " بسم الله الرحمن الرحيم، أقرر أنا الشيخ محمد الغزالي أنني تنازلت عن حقوقي المادية في الأحاديث التي سجلتها لي إذاعة الجزائر المرئية والمسموعة للمعوقين عن الحرك بالجزائر. وقد كلفت السيد عبد القادر نور بطبع ونشر الأحاديث على أشرطة مرئية ومسموعة (كاسيت سمعي بصري) مع دبلجتها ونقل محتواها ليطبع في كتيبات تكون مصاحبة لها وترجمتها إلى لغات أجنبية وكلفته أيضا برعاية وحفظ المستحقات المادية المذكورة التي ستجمع من مبيعات الكتب والأشرطة المختلفة حتى تسلم إلى أهلها ... كما أرجو من مديري المؤسستين تسليم الأشرطة للسيد المذكور مع جزيل الشكر سلفا... وتحرر هذا العمل بمقتضاه والله ولي التوفيق ... الجزائر في 24 محرم 1409 هـ الموافق لـ 5 سبتمبر 1988... محمد الغزالي " (إبراهيم نويري الشيخ الغزالي مفكرا وداعية) ص 54.

2- عبد الرزاق قسوم : نزيف قلم جزائري (الجزائر دار الأمة للطباعة والترجمة والنشر ط 1 ، 1996) ص 237.

عني الغزالي بترشيد الصحوة الإسلامية القائمة على منهج الاعتدال والفكر الواعي الأصيل. وحرص على رسم معالمها الرئيسية المرجوة حتى لا تهدم من الداخل وتعطل روحها.. .

عندما بدأ الشيخ الغزالي مشواره العلمي في الجامعة الإسلامية (الأمير عبد القادر) كان يطمح إلى تطوير أساليب تدريس علوم الشريعة وانفتاحها على المناهج الحديثة واستجابتها لاحتياجات الواقع. لكن عوائق مختلفة من الحصار والتجميد البيروقراطي حالت دون إتمام مشروعه العلمي الكبير. ورغم ذلك لم تنل هذه الممارسات من عزيمة الشيخ الغزالي لأنه كان يرفض أن يرى حلمه يتبخر خصوصا بعد أن رأى غطاءا من التفكير المشوه يريد أن يسود وسط تراجع مخيف لمنهج التفكير العلمي الصحيح لذلك راح عبر كل نشاطاته العلمية والتثقيفية في التدريس والمحاضرات يقعد لمناهج النظر والاستدلال و الاستنباط ويؤصل الطريقة العلمية الصحيحة في التواصل مع النصوص الشرعية مما أحدث نوعا من التحول على المستوى الأكاديمي العام. وخلال تواجده (الغزالي) بالجامعة أشرف على فتح تخصصات جديدة بها مثل (الدعوة والإعلام) (العقيدة ومقارنة الأديان) (التاريخ والحضارة الإسلامية).

حقا لقد صدق من وصف الشيخ الغزالي بالغيث الذي ساقه الله إلى العقل الجزائري "حينما بدأ الجذب يدب إليه، فحول قحطه إلى خصوبة وجفافه إلى نماء. وقل عنه إنه حلقة الوصل المفقودة التي انقطعت بين حركة ابن باديس وميلاد جيل الصحوة الإسلامية التي هي من غرس علماء هذه الحركة فكان الممنهج الحقيقي للمد الإسلامي المتنامي في الجزائر تحت تاثير مدرسة التعليم الأصلي وملتقيات الفكر الإسلامي ... ولئن كان أبو حامد الغزالي قد استحق لقب حجة الإسلام قديما بما قدم من جهد في إحياء علوم الدين فإن محمد الغزالي يستحق أن يلقب في عصرنا بحجة الصحوة الإسلامية بما قدم للعمل المسلم من فقه وفكر مستنير ومنهج تجديدي وفير "[1].

1- عبد الرزاق قسوم : نزيف قلم جزائري (الجزائر دار الأمة للطباعة والترجمة والنشر ط 1 ، 1996) ص 237.

لقد أحب الشيخ الغزالي الشعب الجزائري أيما حب، وظل يترجم ويعبر عن ذلك الحب في مناسبات كثيرة حتى بعد اضطراره لمغادرة الجزائر بسبب تدهور أوضاعه الصحية وهذه الرسالة التي نسوقها صورة صادقة من ذلك. وكان الشيخ قد بعثها لوزير التعليم العالي الجزائري من بيته بالقاهرة جاء فيها : " بسم الله الرحمن الرحيم، الأخ الكريم وزير التعليم العالي : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته / أدعو الله لكم : أن يمنحكم التوفيق في إعلاء كلمته ورفع منار الثقافة الراشدة في الجزائر الحبيبة، إنني الآن في فترة نقاهة بعد مرضين شديدين عافاني الله سبحانه منهما وعندما أستطيع العمل فلن يكون لي عمل دائم إلا بالجزائر، وسأظل وفيا للشعب العظيم وحكومته ورئيسه المؤمن... لقد كان لرسالتكم وقع جميل في نفسي وآمل إن شاء الله أن أظفر بلقائكم في وقت قريب. واقبلوا تقديري واحترامي / والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته / محمد الغزالي ... في 10 رجب 1409 هـ 16 فبراير 1989 م "[1] وتزامنت الفترة التي غادر فيها الشيخ الغزالي الجزائر بأحداث أكتوبر 1988 فاستباح البعض لأنفسهم الجرأة في إطلاق شائعات هنا وهناك مفادها " أن الشيخ الغزالي غادر الجزائر بسبب الأحداث التي مر بها، وليس بسبب المرض. وقد روجت الصحافة المصرية لهذه الشائعات كثيرا مما جعل الدكتور عمار طالبي رئيس جامعة الأمر عبد القادر – وقتئذ - يسارع إلى تنفيذ تلك الأخبار الكاذبة "[2] وبأن الشيخ الغزالي غادر الجزائر نتيجة الإرهاق الشديد الذي بذله أثناء عمله فيها. وعندما اشتعل أوار الفتنة وشب الحريق في الكيان الجزائري. ساند الشيخ الغزالي الشعب الجزائري في مصابه؛ فأرسل بخطاب نشرته معظم الصحف الجزائرية تحت عنوان (الشعب الجزائري لن يضل الطريق) ومما ورد في الخطاب ... " عندما يتصدع بناء قائم فإن إعادته إلى قوته وتماسكه تحتاج إلى مهندس خبير يعرف الدعائم والشرفات في أصل البناء ويعرف ما عراها من عطب ويعرف كيف يعود بالبناء إلى حالته الأولى... ونحن واثقون من أن الشعب الجزائري لن يضل الطريق ولن يخطئ الهدف سيبقى يقيم

1- جريدة النصر : العدد الصادر يوم 8 مارس 1989 م.

2- جريدة المساء : العدد (1065) الصادر يوم 1 مارس 1989 م.

الصلاة، ويؤتي الزكاة ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. ويتشبث بلغته العربية، وأدبه العريق وسيتغلب على العقبات التي اعترضته ويجمع صفوفـه لصنع مستقبل أفضل وأخوة أوثـق... والنجاة من المحن تحتاج إلى أمرين : صدق الإيمان، وصلاح الرأي. واعتقادي أن شعب الجزائر الذي عرفناه يتوفر لديه الأمران معا، وسوف يخرج من الفتن التي تنازعه ليستأنف مسيرته في خدمة الإسلام مع سائر الشعوب الإسلامية التي ترفع راية التوحيد " [1].

V– المرحلة الخامسة : (الأخيرة) العودة إلى مصر (1989 – 1996)

بعد مغادرة الشيخ الغزالي الجزائر بسبب ما ألت إليه أوضاعه الصحية نصحه الأطباء في القاهرة بأن يبتعد عن إجهاد نفسه بالأعمال الكثيرة وأن يأخذ فترات من الراحة التامة.. و"كان بعض محبي الشيخ وتلامذته رأوا بأن لا يعود الشيخ من الجزائر إلى مصر إلا شيخا للأزهر أو مرشدا عاما للإخوان المسلمين؛ فمنصب شيخ الأزهر بثقله التاريخي وسمعته الدينية حين يحتله شخص بوزن الشيخ الغزالي ومستوى حضوره ستعود له مكانته في الداخل والخارج.. وصفات الشيخ الغزالي ومناقبه الشخصية وقدراته الخطابية والكتابية وسمعته وصيته كل ذلك سيكون رصيدا فعالا في تحقيق هذا الهدف " [2] .. بيد أن المساعي التي بذلها بعض الغيورين باءت بالفشل نتيجة تبريرات واهية وغير مؤسسة حالت دون تعيين الشيخ الغزالي شيخا للأزهر الشريف.

إنّ الله تعالى إذا رام شيئا هيأ له أسبابه؛ ففي ذلك الوقت كانت المساعي الحميدة تبذل من طرف بعض رجال المعهد العالمي للفكر الإسلامي للتفاهم مع الشيخ الغزالي ليشرف على رئاسة المجلس العلمي لمكتب المعهد بالقاهرة *. ورحب الشيخ بالعرض المقدم له. ورأى في البرنامج

1- جريدة البصائر.. السلسلة الثالثة، العدد (26) الصادر يوم 10 مايو 1993 م.

2- طه جابر العلواني : شيخنا محمد الغزالي وصفات من حياته، مجلة إسلامية المعرفة (مرجع سابق) ص 7.

(*) كان المجلس العلمي لهذا المكتب يضم نخبة من المفكرين المسلمين ذائعي الصيت منهم الدكاترة محمد عمارة، وجمال الدين عطية ومحمد سليم العوا وأحمد كمال أبو المجد وطارق البشري ومحمد عثمان نجاتي وسيد دسوقي حسن وعلي جمعة وعبد الوهاب المسيري وزهيرة عابدين وصافيناز كاظم... الخ.

الفكري للمعهد امتدادا لطروحات ومناهج رواد الحركة الإصلاحية والإحياء الاسلامي. وقد بدأت صلة الشيخ الغزالي بالمعهد العالمي للفكر الإسلامي في وقت متقدم جدا " قبل أن يؤسس المعهد بصفة رسمية بالولايات المتحدة الأمريكية، فأولى البدايات ترجع إلى الشهيد الدكتور إسماعيل الفاروقي الذي توطدت أواصر الصداقة بينه وبين الشيخ الغزالي عندما ترجم كتابه " من هنا نعلم " وكان أول من قدمه إلى قراء الإنجليزية. وكانت جهود القائمين على المعهد تهدف أساسا إلى الاستفادة من فكر الشيخ الغزالي كواحد من أبرز المرجعيات الإسلامية في توجيه حركة التجديد الإسلامي. وما يحمله من خبرات جهود طويلة في مجال الدعوة. وهو ما يشير إليه الدكتور طه جابر العلواني - أحد رجالات المعهد – قائلا : وفي تلك المرحلة المباركة من عمر الشيخ أتيح له تسجيل أهم خبراته خلال حياته الحافلة بالعطاء؛ فقد قرر المعهد تنفيذ مشروع لتسجيل خبرات جملة من أعلام العصر وخلاصة تجاربهم في الحياة بالصوت والصورة على أن يتم استخلاص تلك الخبرات والتجارب بحوارات علمية مكثفة يقوم بها أساتذة محاورون أكفاء بعد دراسة مستفيضة في تراث من يجري الحوار معه، وإنتاجه العلمي وتقرر البدء بكل من الشيخ الغزالي والدكتور زكي نجيب محمود " [1].

وخلال اتصاله بالمعهد العالمي للفكر الإسلامي صدر للشيخ الغزالي عدد من الكتب الهامة وهي (كيف نتعامل مع القرآن) و (التفسير الموضوعي للقرآن) وبعض أجزاء كتاب (الحق المر) و(أزمة الشورى في المجتمعات العربية والإسلامية) و (من كنوز السنة).. وأما عن السيرة الذاتية للشيخ الغزالي واضحا كل الوضوح لدى القراء والدعاة والباحثين بحيث يغني عن التقدير الرسمي من جهات علمية مرموقة. فإن هذه الجهات قد رأته بحق أهلا للتقدير ومن ذلك " أنه نال جائزة الدولة التقديرية من مصر سنة 1992 وحصل على وسام الجمهورية من الطبقة الأولى سنة 1988 كما قلدته الجزائر وسام الأثير من مصف الاستحقاق الوطني سنة 1989. كما نال جائزة الملك فيصل العالمية في خدمة الإسلام سنة 1989. وفي نهاية 1990 حصل على جائزة دولية من

1- طه جابر العلواني : شيخنا محمد الغزالي وصفات من حياته، مجلة إسلامية المعرفة (مرجع سابق) ص 7.

باكستان تقديرا لجهوده في الدعوة الإسلامية.وقبل أيام قليلة من وفاته منحته ماليزيا وسامها الأول. ورشحته المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (ايسيسكو) لنيل جائزة السلطان حسن البلقية العالمية سلطان بروناي دار السلام للدراسات الإسلامية والحق أن الشيخ الغزالي لم يسع لجائزة. بل كان حصوله على الجوائز تشريفا للجوائز نفسها وارتفاعا بمستواها " [1].

وقد ظل الشيخ الغزالي ثابت في مواقفه دائبا في جهوده " يعمل دون كلل أو ملل، باذلا كل ما في وسعه لخدمة الإسلام ونصرته " [2] ... وكان آخر عمل قام به الشيخ الغزالي هو سفره إلى الرياض في المملكة العربية السعودية للمشاركة في مهرجان الجنادرية الثقافي. وفي اليوم الرابع من أعمال المهرجان وخلال استعداده للتعقيب على بعض ما أثير في ندوة (الإسلام والغرب ... الجذور التاريخية) جاء قضاء الله بقبض روحه الطاهرة، حيث أصيب بنوبة قلبية نقل على إثرها إلى مستشفى الملك فيصل التخصصي بالرياض حيث أجريت له الإسعافات الأولية، ولم يلبث أن لفظ أنفاسه الأخيرة، وصعدت روحه الطاهرة إلى بارئها عز وجل مساء يوم السبت 20 من شوال 1416 هـ الموافق لـ 9 مارس 1996 م.

هكذا قدر للشيخ الغزالي " أن يسقط شهيدا على أديم الأرض التي طالما تمنى على الله أن يقبض روحه فيها في بلد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقد صرح أكثر من مرة بأن أمنية حياته أن يموت ويدفن في الأرض المقدسة " [3].

وقد كان للمملكة العربية السعودية دور بارز في إكرام الشيخ الغزالي في وفاته غاية التكريم فقد سارع الأمير عبد الله بن عبد العزيز – ولي العهد السعودي - باعتباره رمزا للحكومة السعودية ورئيسا للحرس الملكي إلى إرسال طائرة خاصة إلى القاهرة قصد تقديم تعازي الحكومة السعودية لأسرة الشيخ الغزالي ونقل أفرادها للسعودية لحضور وداع ودفن العالم الجليل، وفقيد الأمة

1- عبد الحليم عويس : الشيخ للغزالي : صور من حياة مجاهد عظيم (مرجع سابق) ص 12.
2- مسعود فلوسي : الشيخ الغزالي غصن باسق في شجرة الخلود (مرجع سابق) ص 99.
3- مجلة سيدتي : العدد (785) / 1996 م.

الإسلامية والفكر الإسلامي الذي وارى تراب مقبرة البقيع بالمدينة المنورة إلى جوار الصحابة الكرام وقريبا من صاحب الرسالة العظمى - صلى الله عليه وسلم - وذلك يوم الأحد 21 من شوال 1416 هـ الموافق لـ 10 مارس 1996 م. وفي ذلك اليوم نفسه نعت وكالات الأنباء ووسائل الإعلام العالمية هذا الخبر الأليم الذي نزل كالصاعقة على أسماع مريدي ومحبي الشيخ الغزالي. وكذا على العلماء والمفكرين المسلمين والدعاة والباحثين والمهتمين بقضايا الفكر الإسلامي والدعوة الإسلامية في كل مكان من المعمورة.

لقد كان رحيل الشيخ الغزالي عن هذه الدنيا دوي هائل هز أرجاء العالم الإسلامي كله وصلى كثير من المسلمين في المراكز الإسلامية والجامعات والمؤسسات الفكرية والعلمية، صلاة الغائب على روح الشيخ الفقيد الطاهرة. وأقيمت لتأبينه الندوات والمؤتمرات في مختلف أنحاء العالم الإسلامي وجادت قرائح الشعراء بمئات القصائد وسال حبر أقلام الكتاب بما لا يحصى من المقالات غطت صفحات كاملة في الصحف والمجلات مسترجعين الزمن في هذه أو في تلك، مقدرين للفقيد الشيخ فضله وجهوده في خدمة الإسلام ودعوته ... وفي الجزائر - البلد الذي أحبه الشيخ الغزالي كثيرا فبادله أهلها تلك الأحاسيس والمشاعر الصادقة وتجاوبوا معه كجسر علم وفكر ووصل ما انقطع من دعوة الإمام عبد الحميد بن باديس فقد دعت جمعية نادي الشيخ محمد الغزالي للدعوة والإعلام والجمعية الدينية لمركب الأمير عبد القادر إلى أداء صلاة الغائب على روح فقيد الأمة الإسلامية. وتم ذلك يوم الثلاثاء 12 مارس 1996 م بعد صلاة الظهر بمسجد الأمير عبد القادر عقب الصلاة انتظمت تأبينية الشيخ الغزالي بقاعة المحاضرات الكبرى بجامعة الأمير عبد القادر الإسلامية ومن بين ما جاء في هذه الكلمات التي قدمها نادي الشيخ الغزالي للدعوة والإعلام : " إن خبر وفاة الشيخ محمد الغزالي المفاجئ كان وقعه عظيما على أمة الإسلام والمسلمين ...

لأنه فقدان لعالم قل أن يجود الزمان بمثله، عالم صال وجال وسخر حياته كلها لخدمة الإسلام في كل بقاع المعمورة معايشا كل الظروف التي يمر بها المسلمون في كل شبر من الأراضي الإسلامية عالم ترك وراءه من الآثار والمبادئ والأعمال ما يجعله حيا رغم فناء البدن والجسد " [1].

أما الأستاذ أحمد مراني وزير الشؤون الدينية الجزائري - آنذاك - فقد أرسل بهذه البرقية لعائلة الشيخ الفقيد : " ببالغ الحزن والأسى تلقيت نبأ وفاة أمير العلماء، قدوة الأفاضل وفخر الأمثال الشيخ العلامة محمد الغزالي يرحمه الله الذي أحيا دائما بعلمه دارس العلم، ومحا بفضله الجهل المظلم، مجدد بنيان الهدى والمكفكف عن جانب الشرع الشريف أيدي الردى وجامع شتات العلم ومحرز قصب السبق في المنشور والمخطوط حاملا رايات الفضل لأمته الإسلامية، أدامه الله بهجة الزمان ومصدر العرفان ... والله نسأل أن يتغمد روحه الزكية برحمته الواسعة. وأن يسكنه فسيح جناته، ويلهم أسرته الكريمة وذويه الصبر والسلوان " [2]، وأعلنت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أساها العميق لفقدان عالم كبير، كالشيخ الغزالي وقدمت تعازيها للأمة الإسلامية كافة باعتبار الشيخ الغزالي قلعة من قلاع الفكر الإسلامي الحصينة والعالم الثقة أستاذ الأجيال والداعية النموذج في شمول علمه ودقة فهمه وشدة وعيه وسديد نظره. كما نشر فريق من الأساتذة والدعاة * الذين اتصلت بينهم وبين الشيخ الغزالي أواصر صداقة وثيقة الوشائج تمتد جذورها إلى ملتقيات الفكر الإسلامي والجامعة وساحات الدعوة كلمة مؤثرة عميقة المعنى ومما ورد فيها : " لقد توطدت علاقة الجزائريين بالإمام الغزالي فطلبوا منه أن يساكنهم أرضهم وديارهم، ففضل طلبهم على كثير من الطلبات واستقر حينا من الدهرف قسنطينة مدينة أحب رجل .. إليهم - الإمام عبد الحميد بن باديس - فشهد فيها افتتاح جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- جريدة النصر : العدد الصادر يوم الثلاثاء 12 مارس 1996 م.

2- جريدة الشعب : العدد الصادر يوم 12 مارس 1996 م.

(*)هم على التوالي :الشيخ عبد الرحمن شيبان والدكتور عبد الرزاق قسوم والدكتور سعيد شيبان والأستاذ عبد الوهاب حمودة، والأستاذ محمد الهادي حسني ..

وأشرف على إعداد برامجها ورأس مجلسها العلمي، وعلم طلابها العلم الذي ينمي العقل ويزكي النفس ويهذب السلوك، وأفاد أساتذتها بخبرته العميقة وتجربته الواسعة ولو أنطق الله هذه الجامعة لشهدت قاعاتها وأروقتها وساحاتها بالمجهود العلمي الكبير الذي بذله الإمام الغزالي طيلة وجوده فيها (...) إن الجزائر لفي حيرة من أمرها أتنزل عند العرف، وتراعي الاعتبارات فتقدم التعازي إلى آل الغزالي أم تطالب بما تعتبره حقا من حقوقها؛ وهو أن تعزى فيه ؟ وإنها لفي حيرة من أمرها كيف تصبر أسرة الإمام الصغيرة. وهي التي لم تستطع عليه صبرا لأنها تؤمن أن على مثل الغزالي فلتبك البواكي...

إننا نستمطر شآبيب الرحمة من الرحمن على الإمام محمد الغزالي وندعو الله البر الكريم أن ينزله منازل المكرمين من عباده ويجزيه الجزاء الأوفى فشاهدتنا عليه أنه أدى أمانة العلم، وبلغ رسالة الإسلام في المشارق والمغارب ونصح للأئمة المسلمين وعامتهم ... فسلام على الغزالي يوم ولد على دين محمد ويوم مات داعيا إلى دين محمد ويوم يلتقي بمحمد - صلى الله عليه وسلم – وإنا لله وإنا إليه راجعون " [1].

1- جريدة الشروق العربي : العدد (255) من 26 مارس إلى 02 أبريل 1996 م ، ص 7.

المبحث الثالث : صفاته وأهم العوامل المؤثرة في تكوينه

تمهيد :

يحاول هذا المبحث أن يقف على صفات الشيخ الغزالي، وأهم العوامل التي أسهمت بشكل أو بآخر في تكوين وبناء شخصية متميزة للغزالي. فالتوغل في استبيان الحمولة الفكرية للغزالي بإبعادها الدلالية العميقة لا تتأتى لباحث إلا بمعرفة صفات الغزالي النفسية والخلقية؛ اعتقادا منا بأن صفات الرجل النفسية والخلقية تنعكس بشكل أو بآخر على طبيعة التوجهات الفكرية والمعرفية، التي تتجلى عبر مسار حياة أية شخصية ...

I– صفات شخصية الغزالي :

وهب الله سبحانه وتعالى الشيخ الغزالي مجموعة من الصفات والخصال قلما تجتمع جميعها في كيان واحد. وإن كنا نجدها متفرقة عند العلماء والمفكرين والمصلحين، ومن أهم هذه الشمائل التي انطبعت بها شخصية الغزالي :

1– حب الغزالي لله وقوة اعتزازه به :

شخصية الغزالي شخصية إيمانية ربانية في المقام الأول تذكر دائما بأن الله لم يخلق الإنسان إلا ليرقى إلى مقام عبوديته، ويبلغ منزلة الخيرية ليتلاءم صوته مع رسالة الكون ويتفق سعيه مع غاية الخلق وحكمة الوجود. و " كان الغزالي يصدر في ذلك كله عن عقيدة راسخة تتجلى في قوة اعتزازه بالله في كل أحواله؛ فهو الذي يهبه القوة ويعصمه من اليأس والقنوط ويعبر الشيخ الغزالي عن هذه الفضيلة الإيمانية وهو في بداياته الأولى من تعليمه " ولقد مرت بي لحظات استوحشت فيها كل شيء واستبان لي عجز الخلائق أجمعين ولم يأخذ بيدي إلا الواحد القهار " [1]. وحديث الغزالي عن الله تعالى حديث المحب الواله، لا حديث الناسك المحترف، ويتكلم عن الله كأنه يراه

1- محمد الغزالي : مقتطفات من مذكرات الشيخ الغزالي (مرجع سابق) ص 163.

بين يديه بجلاله وجماله وكماله وكثيرا ما غلبته الدموع، وهو يتحدث عن كلمة التوحيد عن (لا إله إلا الله) ويقول : " إني أحب هذه الكلمة، وأود ان أقبلها، أبثهاحبي وشوقي وولهي " [1] وكما كان الغزالي عامر القلب بحب الله تعالى. كان كذلك فياض القلب فيما يتعلق برسول الله – صلى الله عليه وسلم - وفي هذا يروي حبه الشيخ يوسف القرضاوي " لا ريب أنك إذا اقتربت من الغزالي وعايشته وجدت ملء إهابه رجل عميق الربانية دافق الروحانية عامر القلب بخشية الله تعالى، دائم التلاوة لكتاب الله عزّ وجلّ، عميق الحب لله سبحانه، عميق الحب لرسوله – صلى الله عليه وسلم – " [2] وحب الغزالي لله ورسوله يرفده إيمان عميق بعيد الغور أعطى لشخصية الغزالي صورتها المتناسقة مع شتى القيم والصفات الإنسانية العظيمة.

لقد كان الغزالي يتمتع بنفس شفافة مدركة تسبح في ملكوت الله وترتشف النفحات النورانية من ضياء الوجود. وفي رأي أن هذه الصفة تحديدا هي ثمرة من ثمرات علاقة الشيخ الغزالي بالقرآن الكريم، واستدامة النظر في سياقاته ودلالاته ويتحدث الدكتور علي جمعة عن هذه الصورة الإيمانية المشرقة في حياة الشيخ الغزالي قائلا : " كان الشيخ من أهل القرآن محبا له تاليا لآياته متدبرا معانيه ... حتى ملأ عليه حياته فعاش به، وملأ عليه فكره فسار على نوره وملأ عليه وجدانه فظهر في صوته ودمع عينيه وخلقه مع ربه وخلقه مع الناس. فمفتاح شخصية الغزالي أنه من أهل القرآن " [3].. . وكل من سمع الشيخ أو قرأ مقالاته منذ فجر شبابه " علم علم اليقين مدى حفاوته بالقرآن، وتذوقه لأسرار بيانه وتفهمه لأغوار معانيه وحسن استشهاده به. ووجد له نظرات ووقفات مع الآي والسور تدل على أنه ابن القرآن حقا " [4].

2– علو الهمة والإقدام :

1- يوسف القرضاوي : الشيخ الغزالي كما عرفته (مرجع سابق) ص 101.

2- المرجع نفسه : ص :101.

3- علي جمعة : الشيخ الغزالي ورؤيته المنهجية للفكر الإسلامي والإنساني : العطاء الفكري للشيخ الغزالي (مرجع سابق) ص33.

4- يوسف القرضاوي : الشيخ الغزالي كما عرفته (مرجع سابق) ص 79.

حبا الله تعالى الشيخ الغزالي الهمة العالية والإقدام، فما إن يضع في حسبانه هدفا حتى يسرع إلى تحقيقه دون تردد أو انتظار. فكثيرة هي المواقف التي أقدم عليها الغزالي بهمة عالية وشجاعة لا نظير لهما. وعن هذه المواقف ما حدث له حين تم فصله سنة كاملة من الدراسة في المرحلة الثانوية، حيث عقد العزم على أن يدرس سنتين في سنة واحدة وقد فعلها الغزالي ونجح - وقد رأينا تفاصيل هذه الحادثة عند حديثنا عن دراسة الغزالي في معهد الإسكندرية الديني - وقريبا من هذا الموقف ما فعله الغزالي (في المرحلة الثانية) عندما أضاع نصف القرآن الكريم فعزم على إعادة حفظه مهما كلفه ذلك من ثمن، ويصف الغزالي الجهد الذي بذله في هذا السبيل فيقول : " ظللت أكافح في هذا السبيل نحو خمس سنين طوال كنت أقرأ " الربع " نحو عشر مرات، ومع ذلك يعز علي حفظه " [1]. كما عرف عن الغزالي شجاعته عبر محطات هامة من حياته، " فقد شارك وقاد عدة مظاهرات احتياجية ضد الظلم الاجتماعي والاستبداد السياسي، فعندما كان في معتقل الطور ورأى أن العسكريين الذين كانوا يشرفون على المعتقل يأكلون حق السجناء. خطب الجمعة داخل المعتقل فألهب العواطف وفجر روح الثورة على هذا الظلم، وبعد انقضاء الصلاة قاد الشيخ مظاهرة أجبرت أولئك المشرفين على الرضوخ لمطالب المعتقلين فباتوا منذ ذلك اليوم يتسلمون ما تقرر لهم من الأطعمة الجافة والمعلبات ليقوموا بأنفسهم بطبخها وتوزيعها " [2] وعلى هذا النحو من المواقف الجسورة انطبعت شخصية الشيخ الغزالي.

3- محاسبة النفس والرجوع عن الخطأ إذا تبين :

وهذه واحدة من المناقب اللصيقة بالغزالي فنجده دائم المحاسبة لنفسه وفكره وعلاقاته وتصرفاته ... يقول الشيخ الغزالي – في هذا الإطار – عن نفسه " إنني أقوم بالفعل أحيانا، ثم أراجع دوافعه في نفسي فأشعر أني لم أكن فيه مخلصا كما ينبغي ! غلبني حب الدنيا أو الاعتداد بالنفس فأحس الألم والندم، ورأى أني – بهذا الخلط – لا أصلح لولاية الناس وجعل كلمة الله هي

1- يوسف القرضاوي : الشيخ الغزالي كما عرفته (مرجع سابق) ص 269.

2- المرجع السابق نفسه : ص 16.

العليا "[1]. على أن هذه المراجعة للذات ومحاسبتها لا تصدر عن الغزالي مجرد أقوال، وإنما يمارسها أفعالا وسلوكا، وكثيرة هي الأمثلة التي تجسد هذه الخصلة الحميدة عند الشيخ فعندما احتدم الخلاف – في بداية الخمسينات – بين الشيخ الغزالي وحسن الهضيبي – المرشد الثاني للإخوان المسلمين – راجع الغزالي موقفه حياله بعد ذلك فرأى فيه من الخطأ والحدة وما يستوجب العودة عنه إلى الموضوعية في تقدير المواقف والأحداث والملابسات. وقد أصلح الغزالي ما وقع بينه وبين الهضيبي قبل رحيل الأخير بنحو عامين. وأثبت ذلك في الطبعة الجديدة من كتابه " من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث " والذين طالعوا ما كتبه الشيخ الغزالي أثناء خلافه مع الهضيبي، ثم يقفون على مراجعته لموقفه وسعيه للصلح مع المرشد العام يدركون إلى أي مدى كان الشيخ دقيقا في نقد ذاته متى تبين له وجه الخطأ فيها. وعندما سادت موجة الإشتراكية العالم العربي تصدى لها الشيخ الغزالي، وقد اضطره الأمر إلى استعمال بعض المصطلحات مثل الإشتراكية الإسلامية والديمقراطية ونحوها. وكان ذلك بمثابة خطة لرد المعجبين بالشيوعية والمد اليساري إلى الإسلام ونظمه العظيمة. – ظاهر الشيخ الغزالي في هذه الخطة الكثير من المفكرين الإسلاميين ومنهم مصطفى السباعي وسيد قطب ومالك بن نبي، وعبد العزيز البدري وأحمد الشرباصي وغيرهم – لكن الشيخ الغزالي وبعد تراجع المد اليساري راجع منهجه في محاربة هذا التوجه في الكثير من موارد كتاباته نجده يتحدث عن هذه المراجعة، وهو يعتذر أحيانا عن هذا المنهج رغم جدواه الهائلة في تلك المرحلة التاريخية. ومن ذلك قوله : " ... والكتب الأولى التي ألفتها في شبابي كانت دفاعا عنيدا عن الإسلام، وتقديما للبدائل التي تغني عن الشيوعية وهناك نقد موجه لهذه الكتب يتلخص في هذه النقاط : أن حقائقها العلمية مبعثرة ينقصها التماسك الفني. وأن العاطفة الحادة تسودها وأنني قبلت مصطلحات الديمقراطية والإشتراكية وذلك لا يجوز، وهذه التهم فيها قدر من الصواب وفيها أيضا بخس لجهد كبير. وعذري أني كنت أرتاد ميدانا لم أسبق إليه، والرائد يستكشف ويدع لغيره التنظيم وهذا ما حدث (...) أما قبول المصطلحات الحديثة فمازلت مترددا في حكمه ولا

1- محمد الغزالي : مشكلات في طريق الحياة الإسلامية (مصدر سابق) ص 108.

ريب أني سأهجر هذه المصطلحات الدخيلة بعدما يتحرك الفقه الإسلامي ويضع ما يغني عنها "[1].

.. ومن المواقف التي نسوقها – في هذا الإطار أيضا – ما يرويه الدكتور محمد عمارة مما يتعلق به شخصيا في علاقته بالشيخ. دون أن يكون قد جرى بينهما أي اتصال من قبل ذلك فعندما كان الشيخ الغزالي أستاذا بجامعة قطر بدأ عبد الرحمان الشرقاوي ينشر بصحيفة الأهرام سلسلة مقالات تحت عنوان (علي إمام المتقين) وكانت هذه المقالات تعرض أحداث التاريخ الإسلامي برؤية يسارية، فألقى الشيخ الغزالي محاضرة بالدوحة هاجم فيها مقالات الشرقاوي كما انتقد بشدة تيار ما يسمى باليسار الإسلامي، وكان أن ذكر اسم محمد عمارة في جملة من ذكر من كتاب هذا التيار إلا أن شابا قطريا – كان يتولى إدارة الشؤون الثقافية بجامعة قطر – أبلغ الشيخ الغزالي – وكان من مريدي فكره – بحقيقة فكر الدكتور محمد عمارة – وكان من القراء المعجبين بهذا الفكر – فسارع الشيخ الغزالي إلى مراجعة ما بدر منه وأخذ يقرأ بعض كتابات الدكتور عمارة ثم كتب له يقول : " بسم الله الرحمن الرحيم، أخي الأستاذ الدكتور محمد عمارة : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. وبعد : فإن القليل الذي قرأته لك أخيرا ردني إلى الصواب في أمرك، وجعلني أندم على تعجلي في عدك من كتاب اليسار الإسلامي... لقد كنت في ضيق شديد للحرج الذي وقع الفكر الإسلامي فيه عندنا هنا في الخليج الذي يمرح فيه الغزو الثقافي غير خجل ولا قلق... وتناولت ناسا قرأت لهم ما لا يسر، ولكني ما كنت قرأت لك وإنما حدثني البعض أنك تصف الشريعة الإسلامية بأنها من وضع الفقهاء وتتبنى النظرة المادية إلى الفلسفة الإسلامية.. وما كان يليق بي أن اعتمد السماع في تقدير الرجال، ومن ثم كنت – بعد وصفي لك باليسار الإسلامي- قلقا في عدالة الحكم الذي صدر مني بالنسبة لكم خاصة.. والآن، وبعد قراءات لآثارك الأدبية أيها الأخ العزيز رجعت إلى من حدثوني وقلت لهم : إن الطبيعة العقلية للدكتور محمد عمارة تتسم بعمق النظرية ودقة الحكم وسعة العلم والتجرد للحق.. وإذا مضى في

1- محمد الغزالي : الغزو الثقافي يمتد في فراغنا (الجزائر : دار الكتب ط 1 ، 1987) ص 138 – 139.

هذا الطريق فأحسبه سيكون نموذجا للأستاذ العقاد وعبقرياته الإسلامية.. معذرة عما قلته وعند أول فرصة لكتابة عامة سأنشر رأي فهذا حقك الذي يفرضه علي ديني والسلام عليكم ورحمة الله/ 25 جمادى الآخرة سنة 1404 هـ أخوك : محمد الغزالي "[1]. ويعلق الدكتور محمد عمارة على هذا الخطاب فيقول "قرأت خطاب الشيخ الغزالي.. وكانت المفاجأة التي هزت كياني من الأعماق..

لقد وجدتني أمام وثيقة لا يكتبها إلا واحد من عظماء الرجال.. فهذا الشيخ الذي يقع مني موقع الأستاذ من التلميذ يجلس في موقعه هذا ليراجع نفسه ويحاسبها، ولينقد ذاته وليعلن لي عن تصحيحه لموقفه مني، لا في إطار هذه الرسالة فقط، وإنما علنا وعلى رؤوس الأشهاد... حقا إنه رجل أواب "[2]. وتظهر لنا الأمثلة التي وقفنا عليها في هذا السياق التربية القرآنية الأصيلة التي أنضجت الشيخ وأصلت فيه فضيلة المحاسبة. وإنكار حق الذات في الإصرار على الخطأ. وكان الشيخ - في يفاعة شبابه - يتعهد سلوكه بالتقويم والإصلاح والرعاية ويخبرنا بذلك فيقول : " في صدر شبابي الأول كنت دقيقا في محاسبة نفسي، وكنت أرسم برامج قصيرة الأجل للتطهر مما أحقره من خلال وأعمال وأذكر أنني استعنت بإحدى المفكرات السنوية لإثبات الأطوار التي انتقل بينها من الناحيتين الذهنية والنفسية، وإن كنت فشلت آخر الأمر في استدامة هذا الأسلوب، ويرجع فشلي إلى أنني أطلب النتائج المستحبة بسرعة على حين أكون محاصرا بظروف لا تسمح بذلك أبدا "[3] .

4- البساطة والتواضع لأهل الإيمان :

كان للشيخ الغزالي سمات مزاجية ونفسية رفيعة فكان يجنح إلى المدح والدعاية وميل فطري إلى التواضع ومقت الكبر والتكلف وهو يصرح فعلا بذلك بقوله: " وأنا اجنح إلى المدح عن رغبة

1- محمد عمارة : الشيخ محمد الغزالي، الموقع الفكري والمواقع الفكرية (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 1 ، 1992) ص 108-

2- المرجع نفسه : ص 10 محمد عمارة : الشيخ محمد الغزالي، الموقع الفكري والمواقع الفكرية (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 1 ، 1992) ص 1087.

3- محمد الغزالي : جدد حياتك (دار المعرفة د. ط) ص 231.

عميقة، والتمس الجوانب الضاحكة في كل شيء وأود لو استطعت أن أعيش هشا باشا، والمفروض أن الناس يتوقعون من مثلي تواصل الأحزان، وإطراق الكآبة، حتى يكون تذكيره بالآخرة وإنذاره العصاة بالنار متفقا مع مخايل الجد والعبوس التي لا تفارق وجهه أبدا " [1]. ويروي عنه طلبته في الجامعة الإسلامية (الأمير عبد القادر) أنه كان كثير الاستشهاد بالطرف من الأخبار والنوادر من القصص ليفيض على محاضراته جوا من المرح ويدرأ بها الملل والسأم عن الطلاب...

والتواضع في الشيخ الغزالي ثمرة طبيعية لخلقه القرآني، وارتباطه الشديد به (القرآن) ثم إنه (التواضع) سجية نفسية زادها الإيمان ألقا وشعاعا. وجعل الشيخ ينفر من كل ما يعتقد فيه تكلفا أو كبرا. يقول الشيخ في ذلك عن نفسه " إني شعبي في تصرفي ولو كنت ملكا لأبيت إلا الانتظام في سلك الأخوة المطلقة مع الجماهير الدنيا، أخدمهم ويخدمونني على السواء ! قد فكر أحد الفراشين أن يزوجني ابنته يحسبني غير متزوج ! وضحكت مسرور، لأن الرجل لم يلمح في نفسي إثارة من كبرياء تصدني عنه برغم ما يفرضه الناس بيننا من تفاوت شاسع في الطبقات !! " [2].

وقد مر الشيخ الغزالي بمواقف كثيرة، ومحن صعبة جعلته يغير من طبع التواضع فيه قليلا. ويعلق الشيخ عن ذلك فيقول : " وقد تكون الأيام غيرت مني والتجارب القاسية علمتني فجعلتني - وأنا الضحوك المبتهج – أغوص في بحار من الأكدار أو أتحرى موضع قدمي وأنا أسير بين الناس، كأنما أحاذر شراكا منصوبة، أو أصعر خدي - علم الله لاعن الكبر - بل إحجاما عن قبول الدنية ورفضا لهضم الحقوق ! وما اضطررت إليه من عمل ينافي طبعي، فإن مرده طبيعة الأحوال التي أحياها فيها وليس البتة من طبيعة الرسالة التي أؤديها بعدما صرت إلى ما خطه القدر لي؛ أي رجلا من الدعاة إلى الله وهمزة وصل بين الأرض والسماء " [3].

1- محمد الغزالي : تأملات في الدين والحياة (الإسكندرية : دار العوة ط 2 ، 1992) ص 5.

2- المصدر نفسه : ص 06.

3- محمد الغزالي : تأملات في الدين والحياة (الإسكندرية : دار العوة ط 2 ، 1992) ص 6.

ولقد كان خلق التواضع بارزا في تصرفات الشيخ عميقا في مسارب نفسه، ويبدو ذلك جليا في هذه الشهادة التي يرويها الأستاذ إبراهيم نويري - أحد طلبة الدفعة الأولى في الجامعة الإسلامية – عن تواضع الشيخ مع أحد رجالات العلم فيقول : " إن خلق التواضع خلق أصيل في سلوك وسجية الشيخ الغزالي، لا يشوبه تصنع أو تكلف كما هو الحال عند بعض الناس، ومن ثمة فهو من أهم العوامل التي جعلت أخلاقيات الغزالي ذات عمق تأثيري يحس بألقه كل شخص له جهاز عاطفي سليم كتب له التعامل مع الشيخ الغزالي، وقد أصغيت مرة لحديث الدكتور زكريا مطر وهو يروي تأثره البالغ بهذا الخلق المتأصل في سلوك الغزالي، فقد حدث أن ذهب ذات يوم يزور الشيخ الغزاي في بيته بقسنطينة - وكان الدكتور مطر حينئذ يعمل أستاذا بجامعة قسنطينة - ولما دخل البيت بادر بخلع حذائه وجواربه عند المدخل، وعندما هم بالانصراف تفاجأ بالشيخ الغزالي يحمل له بنفسه حذاءه، ويناوله إياه في تواضع هو بحد ذاته آية من آيات انتصار المؤمن على كبرياء النفس، وشارة من شارات خفض الجناح لأهل الإيمان والتبسط مع الناس " [1].

5– الصدق والإخلاص في الدعوة إلى الله :

إن من أبرز الصفات في نفسية الشيخ الغزالي صفة الصدق. وهذه الصفة طبعت كتاباته كلها بالوضوح، كما طبعت دعوته إلى الله. والغزالي رجل دعوة مخلص لدعوته متجردا لها. وبذلك أضحى صدقه عنوانا لتعامله وكلامه ينبض بكل كلمة من كلماته. وينفذ كلامه إلى القلوب رقراقا عذبا كما ينساب الماء في الجداول فيلهبها بمشاعر اليقين ومعاني الإيمان. وصفة الصدق تقترن بالشجاعة دائما فحيثما وجدت صفاء النفس، وعمق صلتها بربها ودينها وجدت في المقابل الشجاعة التي تحمل صاحبها على مجابهة الباطل وبغض الظلم ومحاربته. وكذلك كانت نفس الغزالي أبية تجود بعمرها ووقتها. ويرخص عندها المال ومتاع الحياة في سبيل نصرة الإسلام.

وقد نمت التربية الدينية التي نشأ عليها الغزالي هذه الخامة الطيبة في أعماقه فأتت بالأعاجيب من فوق القمة التي ارتفع عليها، وقد مر بنا في استعراضه سابق - ما حدث بين

1- إبراهيم نويري : الشيخ الغزالي مفكرا وداعية (مرجع سابق) ص 65.

الشيخ الغزالي، والرئيس أنور السادات عندما اتهمه هذا الأخير بحرصه على الجاه والمال في قضية ذهابه إلى السعودية، فرد عليه الشيخ ردا حكيما كشف فيه حقيقة الموقف، بل وعرض عليه التنازل عن منصبه - كرئيس لقسم الدعوة وأصول الدين - بثقله العلمي ومغرياته المادية الكبيرة مقابل العودة إلى مصر. لخدمة الدعوة الإسلامية فيها. حقا لقد ملك الشيخ الغزالي بصدقه وإخلاصه لدعوته قلوب عارفيه فهذا الشيخ يوسف القرضاوي يقول عنه : " أشهد أني ما سمعت الغزالي إلا تأثرت به، وتجاوبت معه، وذلك ما لمست فيه طوال معايشتي له من صدق وتجرد، جعل صلاته ونسكه ومحياه ومماته لله... عاش الشيخ للدعوة عمره، وكانت هي أكبر همه، ومحور فكره وعلمه، ولم يلهث وراء مال أو جاه، فجاءه المال والجاه بفضل من الله تعالى، وبركة الدعوة، وهو دائما يذكر ذلك، ويذكر به. ولم يركض وراء المناصب التي يتهافت عليها كثيرون ممن يلبسون لبوس أهل الدين ولقد عرض على الشيخ أكثر من مرة أن ينضم إلى الحزب الحاكم وأن يرشح على قائمته ونثرت أمامه الوعود، ولوح له بالمناصب التي ارتقى إليها من دونه علما وعملا ودعوة وشهرة، وزاره أكثر من كبير من المسؤولين. يحاولون أن يلينوا عريكته، ويجروا رجله إلى القيد الذهبي البراق، ولكن الله سدد الشيخ وثبته أمام كيدهم فلم تلن له قناة، ولم يسل له لعاب وظل بعيدا عن مواكب الطبل والزمر، فما يطيق الشيخ أن يسكت عن حق فكيف يراد له أن ينطق بالباطل ؟ " [1] والدعوة إلى الإسلام لها كل عقله وقلبه ولسانه وقلمه، وجهده وجهاده.

" لا يستطيع الحوت أن يبتعد عن الماء يعيش به وله وفيه، ومن أجله يصل. ومن أجله يقطع وله يحيا وعليه يموت. أخلص دينه الله فأخلصه الله لدينه " [2].

هذه أهم وأبرز الصفات النفسية والخلقية في شخصية الغزالي. أما الإحاطة الكاملة بكل صفاته وخصاله فتتطلب صفحات كثيرة لا يتسع لها هذا البحث ولعله من المهم بعد أن وقفنا على بعض خصائص الشيخ الغزالي أن نقف على مجموعة من العوامل والعناصر التي كان لها تأثير في البناء الروحي والفكري لشخصية الشيخ الغزالي.

1- يوسف القرضاوي : الشيخ الغزالي كما عرفته (مرجع سابق) ص 55 – 56.

2- المرجع السابق نفسه : ص 55 – 56.

II- أهم العوامل المؤثرة في تكوينه :

مما لا شك فيه أن هناك مجموعة من العوامل والمؤثرات التي أسهمت بشكل أو بآخر في صياغة سلوك وأخلاقيات الشيخ الغزالي. كما كانت لها بصماتها وأثرها على مناحي تفكيره وتوجهه العلمي، ويمكن أن نحصر أهم تلك العوامل فيما يلي :

1 – تدين الأسرة وتشجيع والده له :

نشأ الغزالي وسط أسرة قروية بسيطة متدينة مستقيمة النهج والخلق. وكان والده متدينا محبا للعلم وأهله. لذلك عمل على تعهد ابنه بالرعاية والتربية الصالحة خاصة فيما يتعلق بأمر تحفيظ القرآن الكريم، وتلقين الفضائل السامية. والأخلاق الراشدة ولا يمكن - في هذا المقام - إغفال دور والدته التي كانت سيدة صالحة محسنة وبارة، " وكانت تحث الغزالي على أن يحسن للجميع، وتطلب منه – في كل مرة يعود فيها من القاهرة إلى قريته الصغيرة - أن يعد أكبر مبلغ من المال لانفاقه في أوجه الخير والبر، وكانت غالبا ما تكلفه أكثر مما أعد لهذا الغرض " [1].

ولقد كان إتقان الغزالي وحفظه للقرآن الكريم في مسقط رأسه من الأمور التي سرت أباه كثيرا، وأعطته هو ثقة بقدرته على اكتساب مزيد من العلم.

2– شغفه بالقراءة :

كانت للغزالي رغبة عارمة في قراءة الكتب، وتحصيل المعرفة وهو يتحدث عن هذا فيقول : " وطفولتي كانت عادية ليس فيها شيئ مثير، وإن كان يميزها حب القراءة... فقد كنت أقرأ كل شيء، ولم يكن هناك علم معين يغلب علي بل كنت أقرأ وأنا أتحرك وأقرأ وأنا أتناول الطعام " [2].

1- محمد شلبي : الشيخ الغزالي ومعركة المصحف في العالم الإسلامي (مرجع سابق) ص 25.

2- يوسف القرضاوي : الشيخ الغزالي كما عرفته (مرجع سابق) ص 56.

لقد كان للقراءة في حياة الغزالي أهمية كبيرة، فهي التي عمقت نظرته إلى الحياة والناس وبالتالي ساعدته على إعمال العقل في النظر إليهم والتعامل معهم تعاملا عقلانيا. وشغف الغزالي – المبكر - بالقراءة كان له دوره البارز في تكوين رصيده المعرفي الضخم الذي تبدى بوضوح - فيما بعد - في عطائه الفكري، وفي قدرته ومعالجته للكثير من المسائل الشائكة المرتبطة بواقع المسلمين والحياة الإسلامية بوجه عام " وللقراءة أهمية خاصة - يقول الشيخ - لكل من يدعو إلى الله، بل هي الخلفية القوية التي يجب أن يستند عليها الداعية، وضحالتها أو نضربها تهمة خطرة للمتحدثين في شؤون الدين، وإذا صحت تزيل الثقة منهم " [1].

3– تتلمذه على يد كبار العلماء وطبيعة البيئة التربوية التي عاش في فلكها :

شب الغزالي تواقا إلى المعرفة والاستنارة، واتسع عقله المتوقد، ونشاطه الذكي إلى التماس السبل والطرائق التي تصله بغاياتها. فكان تلقيه العلم على يد كبار العلماء ومفكري الإسلام في ذلك العصر من أكثر العوامل تأثيرا في صياغة التوجه العلمي والخلفية الفكرية عند الشيخ الغزالي. ومن العلماء الذين نهل الغزالي من بحر علمهم الشيخ عبد العزيز هلال، والشيخ إبراهيم الغرباوي، " وكانا يشتغلان بالتربية النفسية، ولهما درجة عالية في العبادة والتقوى، وكانا يمزجان الدرس برقابة الله وطلب الآخرة، وعدم الفتنة بنيل الإجازات العلمية " [2].

وهو بهذا يرسم لنا صورة متوهجة عن الأخلاقيات السامية التي كان يحملها هؤلاء العلماء من سلوك عالي وفطرة صافية. وقدوة حسنة تركت بصماتها الواضحة في شخصيته، وغير بعيد من هذا ما يرويه الغزالي في - مذكراته - عن عميق تأثره بشيخه محمد الريان، " الذي كلفه ذات يوم بإعراب الجملة التالية (عبدت الله) فما كان من الغزالي إلا أن أجابه - على غرار ذلك الجيل الملتزم - بأن اسم الجلالة منصوب على التعظيم، فما تمالك الشيخ أن بكى من هذا الموقف

1- المرجع نفسه: ص 56.

2- يوسف القرضاوي : الشيخ الغزالي كما عرفته (مرجع سابق) ص 29.

المتأدب مع الله. وحق لإنسان مشغول القلب بحب الله أن يبكي وهو يستمع إلى ذكر مولاه معظما على لسان تلميذه، ولا جرم أن مجرد اختزان الشيخ الغزالي لهذه الذكرى منذ ذلك العهد إنما يصور مدى تأثره بموحيات ذلك الجو المتوهج بالإشراق " [1].

وينبغي أن نشير هنا إلى عامل البيئة الذي كان له أكبر الأثر في تكوين الخلفية الدينية للغزالي في فكره وحتى سلوكه. فلقد ترعرع الغزالي في بيئة علم وصلاح حيث الإقبال على طلب العلم، وانتشار الجمعيات ذات الطابع التربوي والفكري، بالإضافة إلى وجود حركة نشيطة للكتب والمكتبات.

لقد تفاعل الغزالي مع ذلك كله واندمج فيه بالإيجاب، وهو يشير إلى ذلك بقوله : " أنا لم أرث الدين عن والدي كما ورثت قصر القامة وبياض البشرة، بل لقد مرت علي أيام فرغت نفسي من كل اعتقاد، وتركت لعقلي أن يوازن ويختار، والذي أعانني على إيثار الإسلام : إن لغتي هي لغة القرآن وأن الدراسة الناقدة له ولغيره كانت ميسرة لي، أي أن ظروف البيئة التي احتوتني هي التي جعلتني مسلما على حين حرم غيري هذه المنحة الطيبة، لأن ظروف بيئته باعدت بينه وبين الاهتداء، بل لعلها زينت له الأخذ بضده، وملأت نفسه ثقة ورضا بما عنده، وليس ما عنده إلا الضلال الخادع، إن آثار البيئة في النطق والسلوك ونوع الدين لا يمكن نكرانها " [2] وهذه رؤية إيمانية عميقة - عند الغزالي - لحقيقة الصفات التي ينبغي أن يفخر بها المسلم، صفة الإيمان والهداية التي خص الله بها بعض عباده. و - في رأيي - أن اهتمام الغزالي لهذه القضية هو أثر من آثار وعيه الصحيح لحقيقة الشخصية المسلمة.

كما وجدت كوكبة من العلماء الذين أسهموا في هندسة وتشكيل البيئة العلمية والتربوية والفكرية التي تركت بصماتها الواضحة في البناء العقلي والفكري للشيخ الغزالي ومن هؤلاء الشيخ

1- قطب عبد الحميد قطب : محاضرات الشيخ محمد الغزالي في إصلاح الفرد والمجتمع، الجزائر (مكتبة ريحاب ...1995، د. ط) ص 19.

2- محمد الغزالي : كيف نفهم الإسلام (الجزائر: دار الكتب 1987 م) ص 18.

عبد العظيم الزرقاني قاضي والشيخ محمود شلتوت والشيخ محمد آبو زهرة والشيخ عبد الوهاب خلاف والدكتور محمد عبد الله دراز والدكتور أحمد الغمراوي ... على أن تأثره الأكبر والذي ظل لسانه يلهج بالثناء والوفاء لصاحبه كان لمجدد القرن الرابع عشر الهجري الإمام الشهيد حسن البنا؛ الرجل الذي اتصل به الغزالي اتصالا وثيقا. ورأى من دماثة خلقه، وعظمة فكره ما جعله يثق فيه ويتخذه مرشدا وقدوة ويرتبط به غاية الإرتباط، ويتأثر به أيما تأثر. ويصف الغزالي عمق صلته بالإمام حسن البنا وما استفاده منه فيقول : " حسن البنا أستاذي الأول في ميادين كثيرة وكنت وأنا طالب أستمع إلى محاضراته في القرآن الكريم وأتأمل معه في النظرات التي كان يرسلها، وكنت أعود إلى بيتي فألخص ما استطعت فهمه من هذه المحاضرات، حتى تجمع لدي كتاب في هذا الصدد، لكنه ضاع مني، لكن معانيه بقيت في ذاكرتي. واستفدت من الإمام الشهيد في طريقة التفسير التي تعتمد على المعاناة الخاصة والذوق الشخصي، وذلك لطول تدبره في كتاب الله وشدة ارتباطه به، فقد كانت قدرته خارقة على فتح القلوب لأسرار الوحي "[1].

وظل الشيخ الغزالي محبا لحسن البنا وفيا لبيعته مشيدا بجهوده البناءة والسباقة في سبيل حركة الإحياء الإسلامي. وإذا فهمنا بعمق دلالة هذه الرابطة بين الرجلين. فإننا لا نعجب ونحن نجد الغزالي يذكر الإمام البنا في موارد كثيرة من كتاباته. بل إن بعض مؤلفاته - مثل دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين - كان شرحا وتأصيلا لأفكار هذا الإمام المجدد. وفي الذكرى الأولى لاستشهاد الإمام البنا كتب الغزالي مقالا بعنوان (غصن باسق في شجرة الخلود) قال فيه : " لقد قتل حسن البنا يوم قتل والعالم كله أهون شيء في ناظريه ! ماذا خرقت الرصاصات الأثيمة من بدن هذا الرجل ؟ خرقت جسدا أضنته العبادة الخاشعة، وبراه طول القيام والسجود، خرقت جسدا غبرته الأسفار المتواصلة في سبيل الله وغضنت جبينه الرحلات المتلاحقة إلى أقاصي البلاد، رحلات طالما عرفته المنابر فيها وهو يسوق الجماهير بصوته الرهيب إلى الله ويحشدهم ألوفا ألوفا في ساحة الإسلام ! لقد عاد القرآن غضا طريا على لسانهم، وبدت وراثة النبوة ظاهرة في شمائله،

1- مسعود فلوسي : الإمام محمد الغزالي : غصن باسق فس شجرة الخلود (مرجع سابق) ص 32.

ووقف هذا الرجل الفذ صخرة عاتية انحسرت في سفحها أمواج المادية الطاغية، وإلى جانبه طلائع الجيل الجديد الذي أفعم قلبه حبا للإسلام واستمساكا به (...) لقد عرفت التجرد للمبدأ في حياة هذا الرجل، وعرفت التمسك به إلى الرمق الأخير في مماته (...) عجبا لهذه الدنيا وتبا لكبرائها ! وا رحمتاه لضحايا الإيمان في كل عصر ومصر، أكذلك يقتل الراشد المرشد " [1].

4- الصراعات السياسية وعصر الاستعمار :

في بدايات القرن الماضي كانت مصر وعلى غرار كل البلاد الإسلامية مستهدفة من حركة الاستعمار الغربي الذي استطاع ضرب مقاومة الشعوب الإسلامية وسلبها مقوماتها الحضارية وجعلها ترزح تحت كابوس الجهل والفقر والتخلف. وفي هذا اليم المضطرب كان الغزالي حفيا بأمته إذ ساير الأحداث وتفاعل معها. ومما لا شك فيه أن الكثير من إفرازات وانعكاسات تلك الأحداث كان لها تأثيرها في نفس الغزالي ووجدانه، وقد التصقت بذاكرته - كما جاء في مذكراته - الكثير من صور الظلم والممارسات الاستعمارية المهينة في محاولات استئصال شأفة المد الإسلامي في مصر. ولعل تفتق وعي الغزالي المبكر اتجاه تفاعلات الساحة السياسية المصرية قد لعب دورا هاما في شحذ فاعليته و تزكية الشعور لديه بانتمائه الإسلامي وسرعة إنسلاكه في حركة الإخوان المسلمين - وهي في بدايات ظهورها - والتي رأى الغزالي في طروحاتها ما زاده قناعة وإيمانا بضرورة الكفاح ضد الاستعمار و كشف عملائه وهدم أوكاره وهتك أستاره.

"ولعل هذا ما يعمق فهمنا لدوافع الغزالي للوقوف بشجاعة في القصر الملكي - ممثل الهيمنة الإستعمارية والمصالح الغربية - وإفرازاته الإجتماعية والاقتصادية المتمثلة بشكل أخص في المختلفة مظاهر الإقطاع والفروق الهائلة في مستوى العيش والكرامة الإنسانية وتداعيات الظلم الاجتماعي والغبن الاقتصادي. وصور هذه المعارك الضارية التي وقفها الغزالي ضد تلك السياسة الاستعمارية الظالمة قد بينها بجلاء في بواكير مؤلفاته (الإسلام والمناهج الإشتراكية) و (الإسلام

1- محمد الغزالي : تأملات في الدين والحياة (مصدر سابق) ص 50 – 51.

المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين) و (الإسلام والأوضاع الاقتصادية) و (الإستعمار أحقاد وأطماع). كما أن اختزان ذاكرة الغزالي - في طفولته وشبابه - الكثير من المآسي التاريخية المرتبطة بواقع الأمة الإسلامية وافتقادها للفاعلية الحضارية يسبب سقوط الخلافة الإسلامية على يد الطاغية مصطفى كمال أتاتورك. لقد رأى الغزالي تكالب الأعداء على أمة الإسلام، والتحديات الكبيرة التي تحيط بالمسلمين. كل هذه التراكمات والترسبات أثرت في صياغة وتكوين شخصية الغزالي وجعلته يتبوأ موقع المدافع الغيور عن أمته. ولعل هذا ما يفسر لنا طبيعة مواجهاته الدفاعية الأولى - كرد فعل طبيعي لحماية الشخصية التاريخية والحالة النفسية للأمة من الذوبان والانكسار أمام تصارع الأفكار والأنظمة لإيجاد البدائل الثقافية للإسلام. لقد وقف الغزالي الخندق الأول - بوعي كبير- في وجه الزحف الأحمر (الشيوعي) والزحف الأحقر (العلماني والرأسمالي) ... فجاءت كتبه (الإسلام في وجه الزحف الأحمر) و(ظلام من الغرب) و(الغزو الثقافي يمتد في فراغنا) و(حصاد الغرور) و(قذائف الحق) .. الخ كدرع حصين يدفع به غوائل ذلك التيار الكاسح الذي يعمل في مخطط تآمري لمحو شخصية الأمة الإسلامية. والحقيقة البادهة - التي نقرها هنا - أن الأوضاع والظروف السياسية التي كانت مصر والعالم الإسلامي مسرحا لها - في بدايات القرن العشرين - ليس فقط للمواجهات العسكرية التاريخية بل للمواجهات الحضارية الشاملة. تعتبر كلها من أهم المؤثرات في صياغة وتكوين البناء الفكري عند الشيخ الغزالي. ولا شك أن جميع انعكاساتها المختلفة والمتناقضة كان لها حضورها الدائم في العطاء الفكري والمعرفي للشيخ الغزالي.

5- الثقافة الانسانية الواسعة :

من العوامل التي كان لها أكبر الأثر في صياغة البناء الفكري للشيخ الغزالي ثقافته الواسعة التي تشكلت بداية بحكم دراسته الأزهرية فقد تخرج الغزالي في كلية أصول الدين وهي كلية الثقافة الإسلامية المتنوعة من التفسير والحديث والعقيدة والملل والنحل والمنطق والفلسفة والتصوف وعلم النفس والتاريخ وأصول الفقه، وكان الغزالي أزهريا متمكنا متفوقا وقد أكّد ذلك بدراسته في

تخصص الدعوة والإرشاد. وإلى جوار الثقافة الدينية أضاف الغزالي إلى ذلك قراءاته الخاصة لعطاءات العقل الإنساني وإبداعاته المختلفة في مختلف حقول المعرفة.

ويدل الإنتاج الفكري للشيخ الغزالي على سعة إطلاعه وكان الغزالي شغوفا بقراءة ما يكتب في مباحث علم الحياة والبحوث النفسية – رغم أنه لا يتقن من اللغات سوى العربية – ولا أدّل على ذلك من قراءة الشيخ لكتاب المؤلف الأمريكي ديل كارنيجي (دع القلق وابدأ الحياة) وقيامه بجهد أسلمته؛ أي إعادة مد أفكار الكتاب بجذورها الإسلامية. ومن ذلك ما يتجلى أيضا في رد الشيخ على مطاعن المستشرقين ضد الإسلام ولاسيما رده على المستشرق اليهودي جولد تسيهر صاحب كتاب (العقيدة و الشيوعية في الإسلام) بكتابه القيم (دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين). ونلمس أثر هذا البعد في فكر الشيخ في جوانب متفرقة في مؤلفاته. و استنبطاتنا لعمق هذا التوجه في فكر الشيخ الغزالي يخلص بنا إلى نتيجة مؤداها أنّ هذا التوجه ثمرة من ثمرات تأمله العميق في القرآن الكريم فالبعد الإنساني في القرآن ظاهرة بقوة في شتى المسائل التي تعرّض لها والقضايا التي عالجها. إنني أميل إلى هذا الاستنتاج " لأن الشيخ الغزالي يؤثر الأدب والدراسات النفسية على غيرهما من العلوم والمجالات التثقيف "[1]. ولعلّ هذا يفسر احتفاءه الشديد بتأمل العقّاد وتعمقه، وروح الرافعي وتألقه، وسهولة المنفلوطي وتدفقه... وغيرهم من الأعلام والرواد الذين يزخر بهم تراثنا الأدبي، وكان الشيخ الغزالي يصدر في ذلك كله عن رحابة نفسية وفكرية عميقة.

هذه هي أهم العوامل التي اختلطت وتواشجت جميعها لتشكل حالة ذهنية وعاطفية نفسية مفتوحة ومتحفزة عند الشيخ الغزالي بيد أنّ المؤثرات الإسلامية خاصة منها الوعي ووثوق الصلة بالقرآن كان لها أعظم الأثر في بلورة فكر الغزالي الإسلامي الذي يمثل حالة فكرية ناضجة تزخر بتأثرها البالغ بالثقافة القرآنية والدينية.

1- قطب عبد الحميد قطب : محاضرات الشيخ محمد الغزالي في إصلاح الفرد والمجتمع (مرجع سابق) ص 21.

الفصل الثاني

البعد الديني و الأدبي في فكر الغزالي

- أدبية النثر لدى الغزالي.
- ملامح الشعر و الشاعرية في شخصية الغزالي.
- الغزالي و الدعوة الإسلامية .

المبحث الأول : أدبية النثر لدى الغزالي

ظلَّ محمد الغزالي متوهّج الفكر والعقل، والمشاعر، يعبّر بكل صراحة وتفتّح عن هموم الأمة الإسلامية والعربية، وما يحاك ضدها من مؤامرات الظلم والعدوان. فقد عالج القضايا الإسلامية والعربية والاجتماعية بالنظرة الشاملة الفاحصة الواعية، موزعًا نظره على كل الزوايا والمنحنيات والنتوءات، فلا يترك من مساحة الموضوع قيد أنملة إلا استوعبه، وعالجه.

وكان متمتعا بقدرة خاصة على استدعاء الشواهد القرآنية والنبوية، والتاريخية، والعلمية، والإحصائية لتأييد آرائه وتدعيمها، ولكن بدون تعنت أو تعسف، أو افتئات، متحليًا في جدله بأدب الإسلام في أناة، ووقار ولين ورحمة، ولكن دون أن يتخلى عن حماسة المتمكن، واستعلاء الإيمان ، وبات كذلك حتى مع أعدائه الذين هاجموه ، عفَّ القلم عفَّ اللسان حتى لقي الله تعالى وهو على هذه الحال[1].

ومما يدل على هذه النصرة القويمة للإسلام ما كتبه في أدب، وسمْت في كتابه من هنا نعلم ناقدا لما كتبه محمد خالد محمد في كتابه من هنا نبدأ، وقد أرسى محمد الغزالي في نقده ذاك أدب الإسلام السمح في الجدل، والمناظرة والحوار والتحدي، والتصدي.[2] ولقد كان الرجل يملك القدرة على الجمع بين ما هو قديم وما هو حديث ،فلا يرفض الحديث بحجة أنه بدعة، أو أنّ صاحبه علماني، فهو ينطلق في التعامل من قوله تعالى :" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ"[3]. وتلك ميزة كبار العلماء، الذين ما زادهم تواضعهم إلا رفعا.

---

1 – ينظر ، سليمان بن فهد العودة ، حوار هاديء مع محمد العزالي ، الرياض 1409 هـ .

2 – يشهد لخالد محمد خالد – رحمه الله – أنه رجع – بعد ذلك ببضع سنين عن كل ما كتب في كتابه (من هنا نبدأ)، وذلك في كتاب بعنوان «دين ودولة»، وافق فيه كل ما كتبه الغزالي في كتابه (من هنا نعلم).

3– المائدة، 08.

وقد وضع الشيخ ميزانا صحيحا به يتم التمييز بين التدين الصحيح والتدجيل والدخيل
على وقد وضع الشيخ ميزانا صحيحا به يتم التمييز بين التدين الصحيح والتدجيل والدخيل
على هذا الدين الحنيف الذي أبى الله إلا أن يتم نوره ،إذ كتب الإمام يقول : " نحن نقول: إننا نحارب التدين الباطل بالتدين الصحيح، ونحارب الكهانة المنافقة بالإسلام الحق، ونختبر كل ما يجد في الدنيا من أسماء وحقائق بما لدينا من كتاب وسنة، فما وافق مواريثنا المقدسة من كتاب الله وسنة رسوله قبلناه، وما جافاه نبذناه، ولا كرامة " [1].

وفي نفس السياق كان الإمام يكتب خاطرة أسبوعية ، في جريدة الشعب المصرية بعنوان هذا ديننا معالجا أهم القيم الإسلامية والإنسانية ، معرجا على مشاهد الانكسار التي كان ومازال يعيشها المسلمون وبخاصة في هذه الأيام ،أمام الصهيونية العالمية والصليبية الحاقدة التي مافتئت تفتت أمر هذه الأمة ، وما نحسب ذلك إلا في تخلف المسلمين وتقهقرهم ، وابتعادهم عن الدين الصحيح ، ولذلك ظل الإمام ينفخ في هذا الأمر أمر التطور والنهوض بالأمة ، والسير بها نحو التقدم والازدهار ، مبعدا إياها عن كل تخلف ، أو بدع ضارة أو عادات إجتماعية خبيثة ، أو ما دار في هذا الفلك، وكانت الخاطرة لا تزيد على ثلاثمائة كلمة، ولكنها كانت – بما تتمتع به من «تكثيف» و«تقطير»، في التقييم، وجمال عرض... شهادة حقيقية بأن الغزالي من البارعين في كتابة الخاطرة ، في هذا العصر ، وبذلك اجتمع لقلمه القدرة على كتابة «السفْر الضخم»، وكتابة الأسطر المقطرة الوافية، وما أصعبها إلا على أمثال الغزالي .

إن شخصية الغزالي لتجمع في أقطار النفس بين التواضع واستشعار العزة واستعلاء الإيمان، وجمعت في أقطار القلب بين روحانية دفاقة، وواقعية لا تجور، وجمعت في أقطار العقل بين

1 – محمد الغزالي : من هنا نعلم ، ط 02 ، دار النهضة مصر ، القاهرة 1997 م ، ص 110.

سعة الأفق، والحسم، والقدرة على النقد والنقض والإقناع ، بل إنه الحضور الدائم للشيخ ويصدق قول الشاعر [1]:

فلا كلُّ مفقودٍ يُراع لفقْدهِ *** و لا كلُّ حيٍّ فائقٌ، و محبّبُ
ولا كلُّ من يحيا الحياةَ بحاضرٍ *** ولا كل من في القبرِ ماضٍ مغيَّبُ

فإن خلودَ المرْءِ بالعمل الذي *** يقودُ مسارَ الخير لا يتهيّب
عزيزًا مع الحق القويم.. منارةً *** تشدّ إليها كلّ قلب و تجذب

وسيظل الغزالي حاضرا ، وإن غاب برسمه وجسمه ، فإن ما ترك من أفكار نيّرة ، وكتب قيّمة ، وجولات هنا وصولات هناك في مجالات متعددة فكرا ، وأدبا ، وشعرا ، وتربية ودعوة ، كلها كفيلة بأن تبقيه بين الأحياء حيا ، وتلك سمة العظماء الأجلاء الذين نكن لهم كل الحب والتقدير لمالهم من مواقع في دنيا الناس ، فالغزالي كان المعنى والمبنى متسقا في فكره، ودقة عرضه وإيمانه بالمنقول ،والتوافق في الأعطيات ، وقوة في الإقناع والاستمالة .

وفضلا عن كتبه الدعوية والفكرية التي لطالما كان ينشد فيها التطور والرقي الذي تحدثنا عنه سابقا، حرصا منه على أن لا تبقى الأمة الإسلامية متخلفة، تتربص بها الأمم شرقا وغربا ،فإنه كان يقدم كل ذلك بأدب رفيع آسر جميل لأنه يعلم «وإن من البيان لسحرًا»، فالرجل – رحمه الله – كان يعرض الحقائق الإيمانية، والمضامين الفكرية، وقواعد الدين والخلق في أسلوب طلي أخاذ، يشد القارئ إلى المعروض– كتابًا أو مقالاً، أو خطبة، أو محاضرة – ويحقق له المتعة الوجدانية، زيادة طبعًا على الحصائل الفكرية؛ إنه يقدم الدواء في «عصائر» طيبة المذاق، فواحة الأريج، منزهًا عن التجرد والجفاف، فجاء نقيًا نديًا، يؤتى أكله – بإذن ربه – كل حين، وإن كل شريحة من شرائحه النصية في أي كتاب من كتبه لتصلح شاهدًا على

1 – د / جابر قميحة : شعر في مرثية السيدة زينب الغزالي سنة 2005 .

هذه السمة: حلاوة الأسلوب وطلاوته، وتدفقه وقوة أسره، ونقدم في السطور الآتية بعض القطوف التي تدل على هذه السمة:

1 – "إذا دهمتك شدة تخاف منها على كيانك كله، فما عساك تصنع؟ تدع الروع ينهب فؤادك، والعواصف الجائحة ترمى بك في مكان سحيق، أم تقف مطمئنًا، وتحاول أن تتلمس بين هذه الضوائق مأمنًا يهديك إليه الفكر الصائب؟"[1].

2 – "... والحق أن الرجولات الضخمة لا تعرف إلا في ميدان الجرأة، وأن المجد والنجاح والإنتاج تظَل أحلامًا لذيذة في نفوس أصحابها، وما تتحول حقائق حية إلا إذا نفخ فيها العاملون من روحهم، ووصلوها بما في الدنيا من حس وحركة.

وكما أن التردد خدش في الرجولة، فهو تهمة للإيمان، وقد كره النبي –صلى الله عليه وسلم– أن يرجع بعدما ارتأت كثرة الصحابة المصير إليه"[2].

3 – "الرجل صاحب الرسالة يعيش لفكرته، ويعيش في فكرته، فحياته فكرة مجسمة تتحرك بين الناس، تحاول أبدًا أن تفرض على الدنيا نفسها، وأن تغرس في حاضر الإنسان جذرها ليمتد على مر الأيام والليالي فروعًا متشابكة تظلل المستقبل. وتتغلغل فيه"[3].

4 – "إن محمدًا وصل الناس بربهم على ومضات لطاف من تقدير العظمة ورعاية النعمة، فهم إذا انبعثوا لطاعته كانوا مدفوعين إلى أداء هذه الطاعات، بأشواق من نفوسهم، ورغبات كامنة تجيش بتوقير العظيم وحمد المنعم".

"والعبادة ليست طاعة القهر والسخط، ولكنها طاعة الرضا والحب، وليست طاعة الجهل والغفلة، ولكنها طاعة المعرفة والحصافة" [4].

---

1 – محمد الغزالي: جدد حياتك ، ط 02 ، دار النهضة ، مصر ، القاهرة 2004 م ، ص 24.

2 – المصدر نفسه: ص 49 ، وهو يشير إلى رؤية النبي عليه الصلاة والسلام –في البقاء والتحصن بالمدينة للدفاع عنها ، ولكنه نزل على رأي الصحابة في الخروج إلى قتال المشركين ، فكانت معركة أحد ، انظر ابن هشام 63،105/2.

3– محمد الغزالي : تأملات في الدين والحياة ، دار الكتاب العربي ، المنياوي القاهرة ، 1951 م ، ص 102.

4– محمد الغزالي: فقه السير ة ، دار الكتاب العربي ، المنياوي القاهرة ، 1952 ، ص 151.

وغير خاف أن الشيخ الغزالي ترك تراثا فكريا زاخرا يربو على الستين كتابا في قضايا متنوعة، وهذه الكتب تمثل عصارة رحلة طويلة وملاحظات هادفة سجلها على فترات مختلفة على مدار أكثر من ستين سنة.

إن السمة الغالبة على هذا التراث، سمة أدبية فكرية من طراز رفيع ونادر، وكل من يقرأ الأدب الدعوي الذي خلفه الغزالي يقف على حقيقة هامة مؤداها أن الغزالي أديب من طراز ممتاز، يتكلم عن الإسلام بقلم بليغ، فلقد توافرت للغزالي من ملكات فطرية ما تفرق عند غيره من الناس.

الأسلوب الأدبي في مجال الدعوة الإسلامية عند الغزالي :

إنّ أدنى تأمل في ما خلّفه أسلوب الغزالي في مجال الدعوة إلى الله يهدي بالعاقل إلى أنّه يحوي على نماذج راقية من الصور البيانية الأدبية سواء على جهة الأبيات الشعرية أم النثرية؛ الشيء الذي جعل من خطاب الغزالي أن "... يختار بحسه الأدبي ما يراه مناسبا من الموروث القديم، ومن الإنتاج الحديث، ويمزجه بالحقائق الدينية ويعرضه في وقته ومكانه المناسبين، حتى يلائم به أذواق الناس ويلبي حاجتهم إلى القيمة الفكرية والمتعة الأدبية، وهو يدرك بلا شك أنّ الأدب في هذا العصر أصبح بفنونه وأساليبه المختلفة يجذب قطاعا عريضا من الناس، وأصبح الذوق بشكل عام ميالا إلى اكتساب المعرفة والثقافة بطرق فيها يسر واقتصاد، وفيها جاذبية وإمتاع "[1].

بل أبعد من ذلك أننا نجد خطاب الغزالي من وجهته الأدبية لا يظل محافظا على مسار واحد وهو الإطار الفني الملازم للصور البيانية البلاغية فحسب، وإنّما يبتعد ليصل إلى تلك الأساليب القائمة على مبدأ الإقناع والإمتاع؛ وهو إذ ذاك لا يستطيع أن ينسلخ عن عالم النهج القرآني سواء على جهة الصورة أم المضامين، ولعلّ السبب في ذلك –حسب تصور الغزالي– إنّما يعود في أساسه الأوّل إلى أنّ الخطاب الفكري والدعوي في حاجة ماسة إلى لغة تخاطب عالم العقل والوجدان معا، للولوج إلى مكامن علم النفس المختلفة التي بثّ فيها الرب جل وعلا أسرارا وجودية كونية تسيرا جنبا إلى جنب

1– محمد الغزالي : دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من هذا القرن. طبعة دار الفكر، دمشق. ص 15.

مع ذلك النظام الفطري البشري، محاولة في نهاية المطاف أن تحقق غاية السر الوجودي الذي قام عليه الخلق وهو : الإقناع والإمتاع؛ في الحالة الأولى لا يتجسّد الإقناع إلاّ عن طريق استعمال لغة العقل القائمة على المنطق والفلسفة والدراية بصورها وأشكالها، على أن تكون الحالة الثانية لا تنزاح عن مبدأ الذوق والتصور السليم للغة الخطاب من بابها الواسع الذي يتماشى والواقع[1].

ولقد كان من ثمار هذا النوع من التمازج بين لغة الخطاب الديني الدعوي ولغة الخطاب الأدبي أن راع الغزالي بكل ما يملك من زاد معرفي ذلكم "... الركام من الثقافات، والصراع بين الأفكار والتفاوت بين المجتمعات، كان لابدّ من التجديد في الوسائل والطرق الدعوية التي من شأنها أن تكسب روح الجماعات، سواء أكانت إسلامية أم غير إسلامية، واللغة هي أداة الفكر، وهي الوسيلة الأساسية المستخدمة في مجالات الدعوة والإعلام، والتغيير والبناء، والأسلوب الأدبي اللطيف في الكتابة والتعبير "[2].

ولعل ما يقوي تصور الغزالي للخطاب الأدبي الرفيع الملازم لحركة الدعوة إلى الله تعالى، أنّه راح في كثير من المقامات يبيّن بأنّه على الرغم من التطور الملحوظ الذي لازم الخطاب الأدبي في العصر الذي عاش فيه –زمنه- إلاّ أنّ الطابع الذي كان يميّز قالبه الخارجي لا يرقى إلى مستوى عال من التقدم والازدهار الذي ينبغي أن يلعبه الخطاب في عالم النفوس؛ فيتحقق شرط التواصل الإبلاغي القائم على القناعة التي تتماشى وحرمة الحق، وهو القائل بصريح العبارة إنّ " تطور الأدب في عصرنا هذا لا ينكر، وقد بلغ من تمكن المؤلفين والمتأدبين في اللغة أن تناولوا الموضوعات التافهة فأخرجوها في ألبسة زاهية، ووجهوا ألوف القراء –بسحر بيانهم- إلى ما يريدون، فهل يبقى الكلام في العقائد حكرا على هذا النمط من الحواشي والمتون "[3].

1- ينظر: المرجع نفسه، ص 15.

2- ينظر:بن عيسى بطاهر:الشيخ محمد الغزالي : الداعية الأديب. في الموقع تحت عنوان :
WWW.Methak.org/ar/? articles = topic&topic =55

3- محمد الغزالي : عقيدة المسلم. طبعة دار القلم دمشق، 1979، ص : 10.

ويكثر الظن بأنّ هذا النوع من الإحساس بعالم اللفظ من جهته البيانية الذي كان يمتاز بها؛ إذ راح يتشرب من منبعها الكينوني والقائمة على تلك الخطابات القرآنية التي تعطي الاهتمام البالغ إلى العقل والفكر والروح والنفس والقلب والجسد حتى يتنفس تنفسا وجوديا يختلف باختلاف السياقات والأحوال؛ ذلك أنّ واقع الخطاب القرآني من منظور الغزالي استطاع أن **يلوّن "... حديثه للسامعين** تلوينا يمزج بين إيقاظ العقل والضمير معا، ثم تابع سوقه متابعة إن أفلت المرء منها أولا لم يفلت آخرا، كما يصاب الهدف حتما على دقة المرمى، وموالاة التصويب، وذلك هو تصريف الأمثال للناس، إنّه **إحاطة الإنسان بسلسلة من المغريات المنوعة، لا معنى** له من الركون إلى إحداها، أو معالجة القلوب بمفاتيح شتى لابد أن يستسلم القفل عند واحد منها " [1].

لكن لسائل أن يسأل في هذا السياق بالذات المتعلق بشرعية الخطاب الأدبي من منظور الفكر الغزالي، هل استطاع خطاب الغزالي من خلال تعامله مع عالم الدعوة إلى الله أن يميز في الخطاب المتعلق بخصوصية الأدب ؟ أم أنّه ظل كالذين سبقوه في هذا الميدان يتغنى بالإطار الأدبي من بابه الخارجي الذي لا يسمن ولا يغني من جوع ؟

المتمعن في ما كتبه الغزالي وبخاصة في كتابه المشهور " مشكلات في طريق الحياة الإسلامية " **يدرك أنّ** الخطاب الغزالي في جله يدل على دلالة غير مصرّح بها والقائمة على تلكم التفرقة التي استطاع أن يقيمها في ذاتية الخطاب؛ حيث قسمه إلى قسمين اثنين : أحدهما تراثي إسلامي، والثاني حداثي تغريبي لا يمس المبادئ الحسنة بل يظل يدعو في كثير من السياقات إلى حقائق **وأهداف لا تتماشى وحرمة الدين الإسلامي.**

يقول الغزالي في هذا المقام ما بيانه " إنّ هذه النهضة الأدبية المباركة كانت تبنى على المهاد الأول، وتصل من أمجاد المسلمين ما أضاعه التفريط والغدر، وظاهر أنّ محافظتها على التراث، **وتقديسها للقيم الدينية، وولاءها العميق للغة العربية، أنّ ذلك كله ثابت لا يتزحزح... لكن**

1- محمد الغزالي : نظرات في القرآن. طبعة مؤسسة الخانجي بمصر 1958م، ص: 123.

الاستعمار الثقافي لم ييأس، وعداوته للغة القرآن لم تفتر، إنّه يريد القضاء على الإسلام، وأيسر السبل إلى ذلك القضاء على العربية وقواعدها وآدابها، وأظنّه اليوم قد بلغ بعض ما يشتهي؛ فقد اختفى الأدب العربي الأصيل، وإذا وجدت كتابات بالحر ف العربية فإنّها وعاء لمعان مبثوثة الصلة بأصولنا الروحية والفكرية " [1].

ولعل من أخذوا عن الشيخ الغزالي راحوا يقرون إقرارا جازما بتلك القدرة البيانية الخطابية التي كان يمتاز بها في كثير من المقامات؛ الشيء الذي جعل من بين هؤلاء من كان يرى أنّ الشيخ كان يعرض الحقائق الإيمانية، والمضامين الفكرية، وقواعد الدين والخلق في أسلوب طلي أخاذ، يشد القارئ إلى المعروض، زيادة طبعا على الحصائل الفكرية... إنّه يقدم الدواء في عصائر طيبة المذاق؛ فواحة الأريج، منزها عن التجرد والجفاف؛ فجاء نقيا نديا، يؤتى أكله –كل حين بإذن ربه، وإن كل شريحة من شرائحه النصية في أيّ كتاب من كتبه لتصلح شاهدا على هذه السمة، حلاوة الأسلوب، وتدفقه وقوة أسره.

إنّ الذي لم يصرّح به النص هو أنّ مسار الخطاب الأدبي الذي لازم النهضة وبخاصّة زمن أحمد شوقي والرافعي وغيرهما إنّما ترتكز معالمه في أنّه كان يعكس ذلكم الواقع المتجدد ولكن على سبيل ما كان قائما في عمق ما كانت تؤمن به هذه الأمة من تراث عربي أصيل يعكس شخصيتها وتقاليدها وأعرافها وأخلاقها الدينية والعقائدية وهلم جرا، حتى إذا طاف على هذه الأمة طائف من مكايد الشيطان وتلاعبات في القيم والأحكام التي تتماشى وحرمة هذه الأمة، راح الخطاب ينصاع إلى ينصاع إلى تلكم المسلمات الواقعية التي مهّدت الطريق إلى استعمر على اختلاف اتجاهاتها أن يسيطر على التصور العربي بما يمتاز به من خلفية عربية أصلية سواء على طريق المعتقد الديني أم ما هو مبثوث في تراث هذه الأمة العربية، مما جعل من مسار الخطاب ينحو نحو هذا الاتجاه؛ وهو ما عبّر عنه الغزالي بصريح العبارة "...إذا كان الأدب مرآة أمة، ودقات قلبها؛ فإنّ المتفرس في أدب هذه الأيام العجاف لا يرى فيها البتة ملامح الإسلام ولا العروبة ولا أشواق أمة تكافح عن رسالتها،

1- الغزالي : مشكلات في طريق الحياة الإسلامية. بيروت، ص : 99.

وسياستها القومية، وثقافتها الذاتية، ما الذي يراه في صحائف هذا الأدب، لا شيء إلا انعدام الأصل وانعدام الهدف، والتسوّل من شتى الموائد الأجنبية، وحيرة اللقيط الذي لا أبوة له "[1].

إنّ علاقة الأدب بالدعوة الإسلامية هو كعلاقة الحق مع الشجرة؛ إذ إنّ الشجرة لها القدرة **الكافية** على سبيل الاستعارة أن تقيم مع الحق والباطل علاقة ما؛ غير أنّ العلاقة الأولى تظل باقية مستمرة مادام السر الوجودي باقيا على حاله وأصله، بخلاف حين تكون الشجرة تقيم علاقة مع الباطل فإنّ ذلك يجعل أمرها ينتهي بانتهاء زمن الباطل الذي منبعه الخبث والخديعة والنفاق **وكل ما لازم الشر ظاهرا وباطنا.**

من هذا المنطلق حاول الغزالي أن يصور الأدب الرفيع القائم على المبدأ والنزاهة والتحدي بأنّ له القدرة في أن يحقق بعدا معرفيا وحضاريا وفلسفيا وفكريا مع الخطاب الديني الإسلامي ظاهرا وباطنا، ويكفي لهذا التصوير الذي آمن به الغزالي أنّنا نجده في كثير من خطبه وكتاباته يستدل على ذلك بقوله تعالى: **{وَمَثَلُ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ، تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا}**[2]. إنّه تصوير فني جمالي وجودي يجعل من الخطاب الأدبي الذي التزم به الغزالي يأخذ [redacted] شرعية معرفية وحضارية وفلسفية يختلف عن كثير من الخطابات الأدبية التي راح يتغنى بها كثير من المنتسبين إلى هذه الأمة العربية شكلا لا مضمونا.

ولعل من الأدلة القاطعة على اتصاف الشيخ الغزالي بقريحة الشعر سواء على جهة النظم أم النثر، ما نجده في كثير من السياقات يوجه نقدا لأولئك الشعراء من العرب الذين يتغنون بكثير من [redacted] الأشعار ظانين بأنّها ترقى إلى مستوى عال مما دأب عليه العرب الخلص؛ الشيء الذي جعل من الغزالي يصف هذا النوع من الشعر أو الأدب بالشعر المرسل الذي لا وزن فيه ولا قيمة خيالية **تصويرية** يقوم في ظلها ؛ إذ يقول بصريح المعنى **"...قد ظل العرب أقل...من عشرين قرنا يصوغون** شعرهم حسب البحور المأثورة عنهم، حتى جاء هذا العصر الأنكد بما يسمى : الشعر المرسل، محاكاة

1- محمد الغزالي : مشكلات في طريق الحياة الإسلامية. **(مصدر سابق(ص : 107 وما بعدها.**

2- إبراهيم، 24-25.

للشعر الأوربي كما يقولون، وأكرهتني الأيام على سماع هذا اللغو من بعض الإذاعات أو قراءته في عض المجلات؛ فماذا وجدت ؟ تقطعا عقليا في الفكرة المعروضة كأنّها أضغاث أحلام، أو خيالات سكران... ثم يصب هذا الهذيان في ألفاظ يختلط هزلها وجدها، وقريبها وغريبها، وتراكيب يقيدها السجع حينا، وتهرب من قيوده أحيانا، ثم يوصف المشرف على هذا المخلوط الكيمياوي المشوش بأنّه شاعر" [1].

بل نجده في سياق آخر من الكتاب نفسه يذهب إلى أبعد من ذلك حين يقول " قد راقبت إنتاج ذوي الأسماء اللامعة في هذا الميدان المبتدع؛ فوجدت السمة الغالبة على هذا اللغو المسمى شعرا لا تتخلف أبدا، التفكير المشوش أو اللاتفكير، والتعبير الذي يجمع الألفاظ بالإكراه من هنا ومن هنا، ويحاول وضعها في أماكنها، وتحاول هي الفرار من هذه الأماكن، والسؤال الذي يتردد باستمرار : لماذا أيها القوم تسمون أنفسكم شعراء إذا كنتم لا تحسنون قرض الشعر وبناء القصيدة ؟ لماذا لا تحاولون أن تكونوا ناثرين بعد استكمال القدرة العقلية واللغوية " [2].

إنّها الكلمة الطيبة التي ظل الشيخ منذ زمن بعيد يؤمن بها في اختياره لمشوار الدعوة إلى الواحد الأحد، وذلك وفق ما تؤديه هذه الكلمة من سحر في البيان خارجة ممن بيّن ذلك في قوله الحكيم والمحكم "وإنّ من البيان لسحرا ". نعم هو ذلكم البيان المحكم الذي ينطلق من حكمة الكلمة التي حاول الشيخ بكل ما يملك من زاد معرفي أن يجعلها تسير جنبا إلى جنب مع الكلمة السّواء الواردة في قوله تعالى { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا } [3].

وخير دليل على هذه السمة التي امتاز بها الغزالي في تعامله مع واقع الدين الإسلامي وفق خطابه الأدبي الرصين وفكره الثاقب، ما دلت عليه غالبية الكتب التي حاول من خلالها أن يجسّد

1- محمد الغزالي: مشكلات في طريق الحياة الإسلامية. (مصدر سابق). ص 103.
2- المصدر نفسه. 105.
3- آل عمران، 63-64.

معالم الخطاب الأدبي في ضوء ما يمليه الضابط الديني الإسلامي بمفهومه الواسع، وعليه يمكن الإشارة إلى هذه الحقائق في النقاط الآتية :

1- يشير في كتابه جدد حياتك عن بعد وجودي يلازم الإنسان وهو يقتحم عالم المعرفة حسب ما يقتضيه طبيعة التصور الذي يؤمن به هذا المخلوق؛ فيقول ما نصّه "...إذا دهمتك شدة تخاف منها على كيانك كله؛ فما عساك تصنع ؟ تدع الروع ينهب فؤادك، والعواصف الجائحة ترمي بك في مكان سحيق، أم تقف مطمئنا، وتحاول أن تتلمس بين هذه الضوائق مأمنا يهديك إليه الفكر الصائب "[1].

2- ينتقل الشيخ بأسلوبه الأدبي الرصين إلى ذكر أهم المواصفات المتعلقة بالمعنى الحقيقي لمفهوم الرجولة؛ إذ يجدها ما لازمت الحق الذي ارتضاه الله لنفسه وذلك في إطار له علاقة بالمواقف التي لا ينبغي أن ينزاح عنها من طرف قدر الرجولة الواردة في محكم تنزيله ؛ إذ يقول بصريح العبارة "...والحق أنّ الرجولات الضخمة لا تعرف إلا في ميدان الجرأة، وأنّ المجد والنجاح والإنتاج تظل أحلاما لذيذة في نفوس أصحابها، وما تتحول حقائق حية إلا إذا نفخ فيها العاملون من روحهم، ووصلوها بما في الدنيا من حس وحركة...وكما أنّ التردد خدش في الرجولة؛ فهو تهمة للإيمان، وقد كره النبي عليه السلام أن يرجع بعدما ارتأت كثرة الصحابة المصير إليه " [2].

3- إنّ الإنسان الذي عرف إنسانيته ينبغي أن يعيش لفكرة حسب نظرة الشيخ الغزالي، وهذه الفكرة لن تستطيع أن تؤتي أكلها إلا إذا كانت مقترنة بالسر الكينوني الذي يؤدي لا محالة إلى رضاه سبحانه وتعالى؛ الأمر الذي يجعل من هذه الفكرة أن يظل الإنسان يسير في وجوده الإنسان وفق ذلكم النور الذي أشار إليه الخطاب القرآني في كثير من السياقات. يقول الشيخ في هذا المعنى ما بيانه "...الرجل صاحب الرسالة يعيش لفكرته، ويعيش في فكرته؛ فحياته فكرة مجسّمة تتحرك بين الناس، تحاول أبدا

1- ينظر: محمد الغزالي : جدد حياتك. دار النهضة بمصر، القاهرة، 2004م، ص 24.

2- المصدر نفسه: ص 40. أما الاستشهاد الذي استشهد به الشيخ بسيرة المصطفى عليه السلام فهو يشير إلى ما وقع في غزوة أحد. للتفصيل يمكن العودة إلى سيرة ابن هشام. 2/ من 63 إلى 105.

أن تفرض على الدنيا نفسها، وأن تغرس في حاضر الإنسان جذرها ليمتد على مرّ الأيام والليالي فروعا متشابكة تظلل المستقبل، وتتغلغل فيه "[1].

4- إنّ السر العظيم في استجابة الناس لدعوة النبي عليه الصلاة والسلام على حد اعتقاد الشيخ الغزالي إنّما كان عن طريق تحبيب المصطفى للخلق دينهم الذي ارتضاه الخالق لنفسه؛ فراح الشيخ يقر إقرارا جازما بأنّ "...محمدا وصل الناس بربهم على ومضات لطاف من تقدير العظمة ورعاية النعمة؛ فهم إذا انبعثوا لطاعته كانوا مدفوعين إلى أداء هذه الطاعات، بأشواق من نفوسهم، ورغبات كامنة تجيش بتوقير العظيم وحمد المنعم...والعبادة ليست طاعة القهر والسخط، ولكنّها طاعة الرضا والحب، وليست طاعة الجهل والغفلة، ولكنها طاعة المعرفة والحصافة "[2].

هذا ما تعلق بالخيط المنهجي الرابط بين خطاب الغزالي وسير أخلاق المصطفى عليه السلام وأخلاق الرجال الذين عاشوا من قبله يستضيء بنورهم الفيّاض القائم على التجارب والخبرات؛ فيحاول في ضوء ذلك أن يجسّد معالم الإسلام في ظل خطاب أدبي رفيع يرقى إلى مستوى ما تقوم عليه الحضارة بمفهومها الواسع.

لكن اللافت للانتباه أنّنا نجد الغزالي مثلما يستشهد في مسار الدعوة إلى الله بخطابات النبي عليه السلام، لا يخلو أن يستشهد بأبيات شعرية من القدامى؛ فيعطي للبيت الشعري بعده ليس فقط في ذلكم العصر الذي قيل فيه، بل يحقق بينه وبين العصر الذي يتحدث فيه نوعا من الانسجام قلّ من الدعاة من يقدر على ذلك؛ وهو القائل في هذا الشأن بالذات "...وإنّني بعدما بلوت الناس أجدني مضطرا لأن أقول : محّض عملك لله، وانشد ثوابه وحده، ولا تنتظر أن يشكرك أحد من الناس، بل توقع أن يضيق الناس بك، وأن يحقدوا عليك، وأن يبتغوا لك الريبة، وينسوا الفضل، وأن يكونوا كما قال الشاعر :

إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحا *** عني وما سمعوا من صالح دفنوا

1- ينظر محمد الغزالي : تأملات في الدين والحياة. دار الكتاب العربي، المنياوي، القاهرة 1951 م. ص 102.

2- محمد الغزالي : فقه السيرة. دار الكتاب العربي المنياوي القاهرة. ص 151.

جهلا علينا، وجبنا عن عدوهم *** لبئست الخلتان : الجهل والجبن " [1]

والحديث عن هذا النوع من الإبداع في الجانب الدعوي المتعلق بذلكم الخطاب الأدبي الرفيع، يحملنا الحديث عن ميزة الخطاب من جهة ما يحمله من أبعاد معرفية وحضارية تختلف الواقع الذي راح الغزالي يجسّه في كثير من كتبه.

ميزة الخطاب لدى محمد الغزالي :

الثابت الذي لا شك فيه أنّ الحديث عن الأدب في عالم الداعية الشيخ محمد الغزالي يستدعي من الباحث أن يكون على علم عميق بمجال تحليل الخطاب؛ ذلك أنّ أغلى ميزة استطاع خطاب محمد الغزالي أن يحققها في عالم المعرفة هو مزجه بين لغة الخطاب القائمة على المحادثة والمحاورة واللغة القائمة في سياق التعبير والكتابة والتي لا تخرج عن تلك الأنظمة التقعيدية المتفق عليه؛ الأمر الذي جعل من هذا النوع من المزج أن يعطي للخطاب الدعوي صبغة خاصة قلّ من استطاع من غالبية الدعاة التحلي بها [2].

غير أنّه من باب أولى أن ننبه إلى أنّ محمد الغزالي في تعامله مع سياق الكلمة فإنّه في الغالب الأعم نجده يراعي "...طرق أدائها، واختيار الوسائل الخطابية التي تناسب الناس في هذا العصر الذي تنوعت فيه الثقافات، وامتزجت فيه الأفكار، وأصبح التفاوت بين الناس واضحًا في مجتمع مستويات

1- ينظر محمد الغزالي: جدد حياتك. دار النهضة بمصر، القاهرة، 2004 م، ص 113.

2- يقول بن عيسى بطاهر في هذا السياق ما بيانه "إن الحديث عن تجربة الشيخ الغزالي الواسعة في مجال الدعوة الإسلامية، وجهوده خلال فترة زمنية زادت على نصف قرن أمر قد تستوعبه أكثر من دراسة علمية متخصصة، وفي هذا المقال لن نسلط الضوء على هذا الجانب، بل سيكون الحديث حول جانب آخر برع فيه الشيخ وهو توظيف الأدب في خدمة الدعوة، سواء أكان ذلك في لغة الخطاب والمحادثة أم في مجال التعبير بالكتابة، وهو من الجوانب التي لا يحسنها كثير من الدعاة، ذلك أن الدعوة الإسلامية هي كلمة تقال، وفكرة تثار، فإذا أحسن الداعية التعبير عنها مع وجود عناصر الإخلاص والصواب والقدوة الحسنة آتت الدعوة أكلها بإذن الله تعالى، وأدت وظيفتها في مجال تغيير النفوس وبنائها"، ص22

www.alghazaly.org/index.php?id

الحياة الفكرية والثقافية " [1] ؛ الشيء الذي جعل من شخصية الغزالي أن تمتاز بفصاحة اللسان، وبراعة الخطابة، وحسن الإلقاء. ولكن لسائل أن يسأل كيف يستطيع القارئ إدراك مواطن هذه القضايا الأدبية من خلال كتبه التي لربّما الطابع الذي يغلب عليها هو الطابع الدعوي الملازم للخطاب الديني ؟

المبحث الثاني: ملامح الشعر والشاعرية في شخصية الشيخ الغزالي

غير أنّ الذي يريد أن يدرس الشيخ الغزالي من جهة الإطار الأدبي الشعري يستوجب منه المقام أن يعود إلى كتبه الأولى قبل أن يشتهر بخطابه الديني في الأوساط الدينية المختلفة عالميا؛ حيث تروى الروايات على أنّ الغزالي حين كان يبلغ من العمر ثمانية عشر عاما رزقه الله تعالى بقريحة في الشعر راح من خلالها يؤلف ديوانا شعريا تحت عنوان : الحياة الأولى [2].

واللافت للانتباه في عنوان الديوان : الحياة الأولى، بأنّ المتلقي له لأول وهلة قد يظن بأنّه يرمي إلى الحياة الدنيا أو ما شابه ذلك مما يدل عليه لفظ الأولى. يقول أحد النقاد معقبا على بعد هذا الإطلاق ما بيانه "...والحياة الأولى عنوان كالمنشور الزجاجي الذي يعطي ألوان الطيف السبعة، مع أنّ مصدرها شعاع واحد. وكذلك هذا العنوان قد يبادر ابتداء فيعطينا دلالة دينية تعني الحياة الدنيوية، استلهاما لقوله تعالى {وللآخِرَةِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنَ الأُولَى} وقد يعطي دلالة زمانية تعني أنّه شعر الحياة الأولى أي الشبيبة الباكرة، وقد يكون المقصود الأولوية بمفهومها الزمني كأنّ الديوان يرسم الحياة الأولى – بفتح الهمزة وتسكين الواو- أي الحياة الأجدر بأن تعاش دينا وخلقا وسلوكا ؛ فهي صاحبة المرتبة الأولى - بضم الهمزة – متقدمة على كل المراحل " [3].

1- ينظر الموقع نفسه: ص 22.

2- ينظر الغزالي : الديوان الحياة الأولى. الطبعة الإسلامية بالإسكندرية. 1936 م. كما طبع في دار الشروق بالقاهرة سنة 2005 م.

3- ينظر أ.د. جابر قميحة : وقفة نقدية مع محمد الغزالي الأديب الشاعر. الأدب العربي. المكتبة الأدبية .
www.soufdz.net/vb/showthread.php

والأمر لا يقف عند هذا الحد بل نجد من تعامل مع ديوان الغزالي من راح يعطي الإطار العام الذي كان يدور في فلك الديوان؛ الشيء الذي جعل من بعضهم يقر إلى أنّه "...هكذا طمأن الشيخ قارئ شعره من مجرد أن تقع عيناه على عنوان أولى قصائده أنّها سيرة ذاتية رفيعة المحتوى، بل هي منهج لسيرة ذاتية سوف يقوم الشيخ الشاب على التزامه في مسار نقي، ومضمار نظيف، سعيا إلى مستقبل مجيد، ومكانة رفيعة، كل ذلك القول الرصين أطلقه الشاعر، وهو ابن ثمانية عشر ربيعا "[1].

وفي شأن طبيعة الديوان للغزالي في ما يتعلق بالمتعارف عليه لدى الشعراء من الغزل والهجاء والنفاق والمدح الذي لا يتماشى والأخلاق النبيلة؛ فإنّ ديوانه في الغالب الأعم قد "...خلا تماما من الغزل حتى البريء منه، وخلا من الهجاء والنفاق، والمدح الكاذب، وكل ما يشين ذوي المروءة، ولكنه عالج الحكمة والإخوانيات، والتعبير عن ذاته وسلوكه، ومكارم الأخلاق والإنسانيات والروحانيات في طوابع ووجهات صوفية، وتحدث عن بعض مظاهر الطبيعة كالفجر والشروق والشمس وبعض الموضوعات الوطنية "[2].

هي إذن بعض من الملامح النبيلة التي حاول الشيخ الغزالي أن يسير على منوالها في عالم الديوان الذي كتبه، مما جعل من غالبية القصائد تنحو نحو الإطار الأخلاقي من بابه الإسلامي الواسع الذي يعطي الحق للأدب كأدب رفيع يسمو عن الرذيلة وعما من شأنه يشوه أخلاقيات هذه الأمة الإسلامية بما هي موصوفة بالكرم والعفة والطهارة، وأيضا يعطي الحق لتلك القضايا الأساسية التي جاء الإسلام لنشره والدعوة إليها.

لكننا نلقي انتباها إلى أنّ عالم القصائد الموجودة في الديوان لربّما غدت تتعامل مع الحقائق الوجودية وفق سياقات مختلفة وذلك حسب الإطار المنهجي الذي حاول الشيخ أن يسير عليه في

1- المرجع نفسه والموقع نفسه.

2- المرجع نفسه والموقع نفسه.

مجال الدعوة إلى الله، وعليه يمكن أن تقسّم قصائده – على حد تعبير جابر قميحة- حين يصرّح قائلا : [1]

1- المعروف أن الشعراء الإسلاميين، وذوي التوجهات الدينية، وأكاد أقول شعراء العربية بعامة، وخصوصًا في شعر الشباب والبدايات، يميلون – بل يكثرون من النظم في المناسبات الإسلامية كذكرى مولد الرسول – صلى الله عليه وسلم – والهجرة، والإسراء والمعراج، وبدر، والفتح...وغيرها، وعلى ذلك كان شوقي وحافظ، وأحمد محرم، ومحمد الأسمر، ومحمود غنيم، وعزيز أباظة وغيرهم.

ولكننا لم نجد شاعرنا الغزالي يخوض هذا المخاض، وينظم في هذه المناسبات التي تهم كل مسلم، وهو من هو تدينًا وفقهًا، واعتزازًا بالإسلام.

وقد يفسر ذلك بأن الشاعر قد استغرقه شعر الدفق الروحي التصوفي، فوجد فيه ما يكفيه مؤنة هذه الموضوعات من شعر المناسبات.

وربما جاء هذا التوجه كنوع من " الاعتزاز الذاتي " دفعه إلى إغفال نهج الآخرين، وتوجههم الموضوعي والفني.

2- في عناوين كثير من قصائد الغزالي غزارة، وقوة إيحاء بعيدًا عن المباشرية والتصريح مثل : الزمن السّحور، سرى وثرى، نور الحقيقة، صمت الريف الهامد، الموت الضال في مرض الطفولة، سقطت ولما تنضج، النور الغريق، الشروق في القبور، ابن الظلمات. وأشهر من نجد عنده هذه السمة في العصر الحديث الشاعر محمود حسن إسماعيل - رحمه الله - فمن عناوين قصائده : أحزان الغروب، ثورة الضفادع، الناي الأخضر، لهيب الحرمان، سجينة القصر، أدمع ومآتم، أغاني الرق، عبيد الرياح، جلاد الظلال، حصاد القمر، عاشقة العنكبوت، هدير البرزخ.

1- ينظر بالتفصيل إلى جابر قميحة : شرائح النثر في شعر الأميري. بحث مقدم في الملتقى الثالث للأدب الإسلامي بالمغرب. أغادير. في الأيام 16- 18 من يناير سنة 2001 م.

3- الغزالي في تشكيله الشعري إتباعي كلاسيكي فهو ينهج النهج الخليلي في نظم القصيدة: **الوزن** الواحد والقافية الواحدة، وهو يعتز بهذا « **النظام** » ويخلص الولاء له في مغالاة؛ حتى إنه يرى أن الخروج عليه يخرج الإبداع من وصف الشعرية ليدخله دائرة النثر، ولذلك حملة شعواء على ما سماه «**بالشعر المرسل**»، **فهو** - في نظره تقليد أعمى لما يكتبه الغربيون، وهو انسلاخ منكود من النظام الشعري العربي الأصيل الذي أرسى قواعده من قرابة عشرين قرنًا، وهو لا يزيد على كونه تقطعًا عقليًا في الفكرة المعروضة كأنها أضغاث أحلام، أو خيالات سكران، في ألفاظ يختلط هزلها وجدها، وقريبها وغريبها، وتراكيب يقيدها السجع حينًا، وتهرب من قيوده أحيانًا.

فالسمة الغالبة على هذا اللغو لا تتخلف أبدًا : التفكير المشوش، أو اللاتفكير، والتعبير الذي يجمع الألفاظ بالإكراه من هنا ومن هنا، ويحاول وضعها في أماكنها، وتحاول هي الفرار من هذه **الأماكن**.

وينقل في هذا السياق الناقد الأديب مجدي وهبة إلى أنّ النص السالف الذكر يحوي في باطنه على ورود مصطلحات ثلاثة يحويها الغموض من كل مكان؛ الشيء الذي جعل منه يشير إلى أنّ هذه المصطلحات الثلاث هي : **الشعر المرسل، والشعر الحر، وقصيدة** النثر؛ في الوقت الذي يبين الناقد أنّ الشيخ الغزالي راح يشن حملته على الشعر الحر الذي لا قيمة له في الوجود الإنساني ولا الواقع الوجودي؛ على أساس أنّ "**... الشعر المرسل هو الشعر الذي يلتزم بوحدة الوزن مع اختلاف** القافية، ولعبد الرحمن شكري كثير من هذا النوع، ولكنه لا يجد له نصيرا في الوقت الحاضر. **أما الشعر الحر أو شعر التفعيلة فهو الشعر الذي لا يلتزم بوحدة الوزن أو وحدة القافية؛ فهو متحرر من الوزن** الواحد والقافية الواحدة، ولكنّه يجعل التفعيلة لا البحر أساس الوزن **ورائد هذا** اللون في الأدب العربي بدر شاكر السياب بديوانه أزهار ذابلة أو نازك الملائكة بقصيدتها الكوليرا على خلاف في ذلك "[1].

أبعد من ذلك أنّنا نجد بعضا من النقاد من يذهب إلى أنّ : "**... ما يسمى بقصيدة النثر هناك** شبه إجماع على صعوبة وضع تعريف جامع مانع لها، وإن كان الرافضون لها – **ما أكثرهم – يسجلون عليها** ما تحتويه من فوضى وانقلاب وتمرد عشوائي، وتنكر لكل مفاهيم البناء والشكل، وخصوصا

1- مجدي وهبة : **معجم مصطلحات الأدب**. الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1999 م، ص : 46.

البناء الموسيقي" [1]. بل نجد في سياق آخر الناقدة سوزان برنار أنّها ترى بأنّه "... يوجد في قصيدة النثر – في آن واحد – قوة فوضوية مدمرة تميل إلى رفض الأشكال الموجودة وقوة منظمة تميل إلى وحدة شاعرية " [2].

إذن موقف الغزالي مما سمّي بقصيدة النثر لا يعتد به و لا يجعله من الشعر أو القصائد التي [redacted] أمر به الدين الإسلامي. ولكن نلقي انتباها في مقامات أخرى من ديوان الغزالي – الحياة الأولى – [redacted] ولكن الحقيقة غير ذلك لأنّ الغزالي حاول من ورائها أن يجعلها تتماشى و ما كان يؤمن به من عمق الفكرة وقناعة المعتقد والتصور السليم المنطقي لواقع الدين والحياة معا. إنّها فكرة الحلول والاستبطان التي تجسّدت في كثير من السياقات من ديوانه المشهور – الحياة الأولى -.

الحلول والاستبطان من خلال ديوان : الحياة الأولى :

[redacted] اللغوية والتداولية بالمسكوت عنه أو غير المصرّح به، وخير دليل على ذلك أنّك عندما تعود إلى ديوانه تجد الشيخ لا يتحدث عن القضايا التي دأب عليها تصور الشعراء للأدب وما صاحب ذلك من قضايا وحقائق تتماشى والواقع الإنساني والحضاري، بل خطابه يتجه إلى تناول حقائق الغالب فيها [redacted] والاستبطان ولكن ليس بمعناهما الصوفي الباطني وإنّما بمعناهما الروحاني الذي يحقق نوعا من الانسجام والترابط مع عالم الإنسان بمفهومه الشامل الذي راح القرآن يتحدث عن ذلك في كثير من السياقات والأحوال. إنّ ميزة هذا النوع من الخطاب يقترب إلى حد بعيد مع ما أشار إليه صاحب المثل السائر حين قال "... إنّ طريق الإحسان في منثور الكلام يخالف طريق الإحسان في منظومه؛ لأنّ الترسل

1- المرجع نفسه : ص 181.

2- ينظر : سوزان برنار : قصيدة النثر من بودلير إلى أيامنا. ترجمة زهير مجيد، بغداد، 1939 ، ص 157.

هو ما وضح معناه، وأعطاك سماعه في أول وهلة ما تضمنته ألفاظه، وأفخر الشعر ما غمض فلم يعطك غرضه إلا بعد مماطلة منه " [1]، بل أبعد من ذلك أنّ التصريح في شأن خطاب الغزالي"... ووضوح الذاتية والأوصاف المباشرة يخرج بالعمل الشعري عن نطاق الجمال ويجعله تقريريا " [2].

إذن المقصود بالحلول ضمن هذا التصور القائم على المسكوت عنه هو محاولة تحقيق جانب مهم في أرض الوجود الإنساني لا يخرج عن معايشته لموضوعه واندماجه في جوانبه بغض النظر عن تلكم القشور والقضايا الخارجية التي لا تسمن ولا تغني من جوع وذلك إذا ما قورنت بالإطار الباطني لهذه الظواهر التي كان يؤمن بها الغزالي. على أن يكون مفهوم الاستبطان هو ذلكم الاهتمام البالغ بالقضايا من حيث ما تدل عليه من جانب كوني روحاني يتماشى وعالم النفس القائم على الإيمان والتوحيد؛ وهو أمر غدا الغزالي يجسّده عن طريق تلك النظرات في عالم الوجود الخارجي القائم في العالم من الطبيعة وغيرها. كل هذا وذلك نجده مجسدا بوضوح من خلال ديوانه المشهور الحياة الأولى[3].

ولا يقف الحد عند هذا المقام في شأن امتياز مفهوم الحلول والاستبطان في عالم الديوان، بل نجد تقسيم الديوان يدور في فلك من المفاهيم التي تقترب إلى حد بعيد مع طبيعة التصور الصوفي ولكن من جهة ما له علاقة بعالم ما كان يؤمن به الشيخ الغزالي.

فبد رجوعنا إلى الديوان - الحياة الأولى – وجدنا الغزالي ينتقل من سياق وجودي كينوني إلى سياق آخر؛ فهو تارة يشير عن طريق مبدأ الحلول والاستبطان إلى ما سمّاه تحت العنوان : **نور** الحقيقة؛ حيث يظل عن طريق هذا الإطلاق يعيش في غضون الأبيات الشعرية في عالم التأمل والتدبر في عالم نور الحقيقة محاولا عن طريق ذلك أن يصل بعالمه النفسي والروحي والقلبي إلى حالة تختلف عن حالة كثير من البشر [4].

1- ابن الأثير : المثل السائر. مكتبة الخانجي. القاهرة. 1979 م. 1 / 92.

2- محمد غنيمي هلال : قضايا معاصرة في الأدب والنقد، دار نهضة مصر القاهرة، د.ت. ص : 60.

3- ينظر بالتفصيل المجمل :ديوان الحياة الأولى، ص : 144 وما بعدها.

4- ينظر الديوان : ص : 116.

ثم لا يلبث به الأمر حتى ينتقل عن طريق مبدأ الحلول والاستبطان إلى ما سمّاه بـ : **الخمرة** الإلهية؛ وهو لعمري إطلاق أو تسمية ظاهرها صوفي ومن قبلها تلكم الحقائق المتعلقة بالحلول والاستبطان القائم على ذلك الذوق المتميز لعالم الحقيقة المطلقة من بالها الواسع؛ الأمر الذي جعل من أسلوب الغزالي يتجاوز المحدود في النظام اللغوي **المتعارف عليه** ليصل إلى ما وراء اللغة الذي يحقق نوعا من الرفعة والسمو المحمود الذي لا يقدر من حيث الفهم والإدراك إلا من رزقه الله تعالى نورا من نوره [1].

غير أنّ ما يستدعي مقام البحث أن ننوه إلى **اهتمام الشيخ بالأسلوب النثري الذي يعكس** ذلكم البعد الأدبي الفني الرفيع الذي يتماشى والخطاب الأدبي المتفق عليه عند القدامى والمحدثين. **لكن خطاب الشيخ على جهة النثر ربّما جعله يتميز** عن كثير ممن اهتموا بالنثر، بحكم أنّ الشيخ حاول أن يخلق في ذاتية النثر عالما آخر يتماشى وما تقتضيه طبيعة الفكرة التي كان يؤمن بها، وهي تحقيق الرضا الرباني **على النفس والروح والقلب والجسد. وعليه لا مانع من أن يعطي مثالين اثنين على** هذا النوع من النثر الذي كان يمتاز به الغزالي في خطاباته المتنوعة والمتعددة.

النص الأول : - يقول الشيخ الغزالي "النفس المختلة تثير الفوضى في أحكام النظم، وتستطيع النفاذ منه إلى أغراضها الدنيئة، والنفس الكريمة ترقع الفتوق في الأحوال المختلة، ويشرق نبلها من داخلها، فتحسن التصرف والمسير وسط الأنوار والأعاصير. إنّ القاضي النزيه يكمل بعدله نقص القانون الذي يحكم به، أما القاضي الجائر فهو يستطيع الميل **بالنصوص المستقيمة، وكذلك نفس الإنسان حين** تواجه ما في الدنيا من تيارات وأفكار ورغبات ومصالح، ومن هنا كان الإ**صلاح النفسي الدعامة** الأولى لتغلب الخير في هذه الحياة؛ فإذا لم تصلح النفس أظلمت الآفاق، وسادت الفتن حاضر الناس **ومستقبلهم** " [2].

1- ينظر: الديوان الحياة الأولى، ص 83-90.

2- المصدر نفسه، ص 94.

النص الثاني : - يقول الشيخ الغزالي "...تمثيلية الصلاة في إطار من **غيبوبة عقلية تامة، هل له من** صلاته شيء ؟ إنّنا لن نعده مبارزا بالعصيان، وتاركا للفريضة، لكن هل هذه التمثيلية تزكى نفسا، **وترفع رأسا** ؟ ... هذا المصلي الذاهل صنو المؤمن المقلد، وكلاهما لا تنهض به حياة، و لا يرشد به مجتمع؛ لأنّ كليهما معطوب من داخله، وأجهزته النفسية والفكرية في حالة ركود، على أن خطورة هذا النوع من التدين تبدو في ميادين الأعمال العادية؛ فالرجل صاحب الفكرة أو صاحب الدعوة **يتفاعل مع الحياة العامة، وتتفاعل معه؛ لأنه يستحيل أن يتحرك بمعزل عنها، فإن كان صاحب عقل يقظان، ويقين وثّاب فرض نفسه عليها، وطوع** كل شيء حوله لما يريده. والبيئة الفاضلة أثر أناس لهم شرف وهمّة، والبيئة المائعة أثر أناس أمرهم فرط، وأخلاقهم سائبة. والأمة المجاهدة صنع أناس يغالبون بإيمانهم، ويسخرون ما يملكون لدعمه، ويوجهون مواهبهم العلمية، وأنشطتهم الاقتصادية والاجتماعية **لخدمة ما يعتنقون، والمؤمنون المقلدون، والمصلون الذاهلون ينفعلون، ولا يفعلون، ويقادون ولا يقودون، ويعيشون وفق ما** يقال لهم، لا ما توحيه ضمائرهم"[1].

إنّ أدنى تأمل في هذين النصين يهدي بالعقل المتمعن إلى أنّ الشيخ عن طريق هذا النثر يجسّد ما يسمى في المجال الأدبي الفني بمبدأ المفارقة أو المتقابلات الضدية، التي حاول الغزالي على حسب سيزا قاسم أن يكثر من هذا النوع في أسلوبه النثري وهو أسلوب "... **يعتمد بصفة أساسية على عرض المتناقضات، أو المتقابلات، فهو يقتضي وجود طرفين تربط بينهما علاقة الضدية، وقد تكون** المفارقة بين لفظين كالأبيض والأسود، كما تكون بين صورتين أو لوحتين متقابلتين لهدف فني أو **فكري** " [2].

لعل طبيعة الخطاب النثري في شخصية تصور الغزالي ينحو به إلى منحى لا نجده عند كثير من الدعاة أو الأدباء؛ يحاول بكل ما يملك أن يجعل من الخطاب النثري لا يسير وفق بعده الجمالي

1- محمد الغزالي : الغزو الثقافي يمتد في فراغنا. **دار الصحوة. القاهرة** 1987 م. ص 69.

2- **ينظر** بالتفصيل إلى سيزا قاسم : المفارقة في القصص العربي المعاصر، مجلة فصول، العدد الثاني، المجلد الثاني، القاهرة، 1982م.

فحسب، بل يمزج بين الجمالية الكائنة في الخطاب والجمالية الكائنة في السر الوجودي الإنساني الذي يعلم علما يقينا بأنّ هذا الإنسان ما أوجده الخالق سبحانه وتعالى في هذا الوجود الكوني إلا ليؤدي وظيفة وهي تحقيق الرضا الرباني على الأرض وعلى عالم النفوس البشرية على الإطلاق. **وعليه ما** يمكن ملاحظته في الخطاب النثري من خلال النموذجين المختارين سالف الذكر هو أنّ الغزالي يحاول أن يعكس في ظل هذا الخطاب عدة حقائق معرفية ودينية وأخلاقية وفلسفية وعقائدية وغيرها مما سنبينه الآن بشيء من التفصيل فنقول وبالله التوفيق ما يلي :

1- إنّ عالم النفس في عالم الخطاب النثري للغزالي لها مخرجان اثنان : أولهما ما كان ينصب في لب الحق الذي يؤدي لا محالة إلى صفة الكرم التي هي من صفات الخالق سبحانه وتعالى، وهو **القائل** والنفس الكريمة ترقع الفتوق في الأحوال المختلة ويشرق نبلها من داخلها... فهو تصوير فني يختلف جملة وتفصيلا عن التصوير الفني الذي لازم كثير من الشعراء الذين تعاملوا مع الظواهر عن طريق **الخطاب النثري**. إن هذه الميزة ما استطاعت أن تؤتي أكلها إلا لأن صاحبها راح يربطها بحبل الخطاب القرآني فزينها حق تزيين ورفعها رفعة مباركة لا تعرف الدنو ولا تؤمن به. **على أن يكون** المخرج الثاني لا يخرج عن النفس المختلة التي همها الوحيد هو الفوضى في عالم أحكام النظم؛ إذ تجدها لا تستقر على حال ولا تؤمن بضابط؛ فشأنها شأن الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث.

2- ثم من طبيعة الخطاب النثري لدى الغزالي أنه يحقق نقلة بين الحين والآخر فكثيرا ما نجد الغزالي يبدأ بالتصوير من درجة السهل لينتقل في ما بعد إلى درجة تحمل في طياتها بعدا معارفيا لا يعرفها إلا **أولو الألباب. فهو يقول إن القاضي النزيه يكمل بعدله...** إلخ فيا ترى ما السر في انتقال حركية النثر من مشهد النفس بما هي مختلة وما هي كريمة إلى عالم القضاة ؟ إنها لفتة لطيفة – حاول الغزالي عن طريقها أن يعطي لحركية النثر حقها من حيث ما تحمله من معاني تصب في عمق الدعوة إلى الله تعالى؛ فهو بقدر ما يبين حقيقة القضاة بضربيهم : **من هو على الحق ومن هو على الباطل، يبين من المسكوت عنه هذا النوع من المفارقة أو التقابل أو المقابلة الوجودية القائمة بين القاضي الملزم بالحق** والمجاوز لحرمة الحق. إنّ هذا البيان الذي يسلكه الخطاب النثري لدى الغزالي استطاع أن يعطي

للخطاب الديني رونقا وجمالية تجعل المتلقي المستمع العالم بخصائص هذا النوع من الخطاب يستجيب لمتطلبات ما يقوم به هذا الخطاب من بعد ديني يختلف باختلاف المقامات والأحوال.

3 - ينتقل الخطاب النثري بتلكم الشمولية الاستغراقية التي يحويها باطنا و ظاهرا، ليبين حقيقة الصلاة في واقع من انتسب إلى دين الله تعالى، فيصوره الغزالي بتلكم القناعة الايمانية الكونية التي ظلت تسير معه طوال حياته، بأنّه شأنه شأن العابد الذاهل والمقلد الأعمى الذي لا يسمن ولا يغني من جوع؛ الشيء الذي جعل من تصور الخطاب النثري أن يبين هاتين النفسيتين في إطار اتصالهما بعالم الصلاة؛ فكلاهما على حد تعبير الغزالي لا تنهض به حياة، ولا يشرد به مجتمع، والعلة في ذلك أنّ كلايهما معطوب من الداخل، وللمعطوب من الداخل من لا يستقيم له حال ولا يستقر على استقامة ؛ فبينه وبين السر الوجودي القائم في عالم الصلاة بعد المشرقين؛ فلا هو فاهم للحياة التي وجد فيها الحياة ولا الحياة مؤهلة سلفا لأن تفتح مع هؤلاء عالما يسير مع عالم الحق الذي ارتضاه الله تعالى لنفسه و أكرمه ذلك على النفس التي عرفت قدر ذلك.

إنّ ما يلاحظ في الخطاب النثري للشيخ الغزالي أنّه يساير الحقائق من بابها الشامل محاولا تناول ذلك وفق ما كان يؤمن به الشيخ و ما كان يريد الوصول إليه. وإنّها لعمري حقيقة معرفية قلّ من يستطيع تحقيقها والدعة إليها في قالب أسلوب يحويه نوع من الجمالية الفنية و الأدبية التي جعلت الخطاب الغزالي في كثير من المقامات يكون منسجما مع عالم الذات العربية الأصلية التي همها الوحيد هو هذه اللغة التي شرّفها الخالق فأنزل في ظلها محكم تنزيله بلسان عربي مبين؛ فجاءت التراكيب في جلها وتجلياتها منسجمة مع ذلكم التصور الذي كان يؤمن به الغزالي منذ أمد بعيد والذي استطاع من خلاله أن يدعو إلى ما كان يؤمن به شكلا ومضمونا.

ولا يقف الشيخ الغزالي عند هذا الحد بل يحاول بكل ما أوتي أن يحقق نوعا من الترابط بين الخطاب النثري الوارد في سياقات أحاديث المصطفى وواقع الشعر مسقطا ذلك حسب ما راح كثير ممن يتغنون بالدين والتدين الزائف الذي ليست له علاقة على الاطلاق بمنطق الأشياء، من ذلك ما

غدا يستشهد به ذلكم الحديث الذي رواه مالك بن أنس قائلا : قال لي أستاذي ربيعة [1]: يا مالك من السفلة ؟ قلت من أكل بدينه؛ فقال : من سفلة السفلة ؟ قلت من أصلح دنيا غيره بفساد دينه، فصدقني أي قال لي : صدقت [2]. وقال الفضيل بن عباس " لأن أكل الدنيا بالطبل والمزمار أحبّ إليّ من أن آكلها بدين " [3].

ويذهب في سياق آخر يحاول أن يمزج بين تصوره الديني العربي وبين ذلكم الأسلوب العربي القديم النثري؛ فتخرج العبارات منسجمة في قالب لغوي عربي بليغ يحدوه نوع من الاستقلالية التي تتماشى وطبيعة الفكرة التي كان يؤمن بها في وجوده.

يقول في هذا السياق ما بيانه "... وإنني بعدما بلوت بالناس أجدني مضطرا لأن أقول: محّض عملك لله، وانشد ثوابه وحده ولا تنتظر أن يشكرك أحد من الناس، سبل توقع أن يضيق الناس بك، وأن يحقدوا عليك، وأن يبتغوا لك الريبة، وينسوا الفضل، وأن يكونوا كما قال الشاعر :

إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحا *** عني و ما سمعوا من صالحي دفنو ا

جهلا علينا، وجبنا عن عدوهم *** لبئست الخلتان : الجهل والجبن " [4]

وتارة نجد الشيخ الغزالي يمازج بين الشعر الحديث مع ذلكم الأسلوب النثري الذي كان يمتاز به في كثير من المقامات محاولا أن يعكس ذلك الحق الذي ظل يؤمن به منذ زمن طويل، وهو إذ تجده يوظف النصوص على سبيل الاستشهاد والتقوية فإنّه في الغالب لا ينصاع إلى مبدأ ما تؤمن به منهجية البحث، بل يعطي لذلك جمالية ورونقا سواء من حيث الشكل والمضمون، إذ تجده في هذا السياق نفسه ينتقل إلى مشهد آخر فيحقق في ظله انسجاما واتساقا مع عالم الحق الذي يؤمن به،

1- غالبا ما يكنى هذا الإطلاق لدى أهل الحديث بأبي عثمان ربيعة بن أبي عبد الرحمن فروخ، وهو الملقب بربيعة الرأي والسداد، وهو فقيه أهل المدينة المنورة، أخذ عنه مالك الكثير.

2- محمد الغزالي. من هنا نعلم. (مصدر سابق). ص 94 وما بعدها.

3- المصدر نفسه.

4- عد إلى جدد حياتك. (مصدر السابق). ص : 113.

وهذا كله بفضل سر الوجودي الذي كان يتمتع به في كتاباته النثرية التي كانت تمتاز في اعتقادنا بطابع إطلاقي شمولي؛ فهو يقول " ...وماذا على المريض المصاب بقرحة الأمعاء، لو أنّه حسب الموت نقلة من بلد إلى بلد، وماذا لو نحمل نبأ العلة التي أصابته بطمأنينة وتسليم لأنّه يؤمن بالله، ولا يحزن من لقائه، وإن اقترب موعده، ومن أبيات للشاعر محمد مصطفى حمام :

علمتني الحياة أنّ حياتي *** إنّما كانت امتحانا طويلا

قد أرى بعده نعيما مقيما *** أو أرى بعده عذابا وبيلا

علّ خوفي من حسابي كفيل *** لي بالصفح يوم أرجو الكفيلا

علّ خوفي يردني عن أمور *** خبثت غاية وساءت سبيلا

وعد الله من ينيب ويخشى *** بطشه رحما وصفحا جميلا

و بحسبي وعد من الله *** إنّه كان و عده مفعولا "[1]

ومن بين صور الخطاب النثري الفريد من نوعه الذي امتاز به الشيخ الغزالي هو توظيفه للبعد السياقي للجملة الذي جعله في الغالب الأعم يتماشى وما كان يؤمن به، وهو توظيفه لنوعين من التراكيب الجملية : تركيب مساو لقدر الفكرة المعبر عنها في سياقات متعددة الغالب فيها ما كان يسير وفق مبدأ الدعوة إلى الله، وهي تراكيب إذا ما تتبعناها وجدناها لا تخرج عن جمل طويلة يحدوها نوعا من التصوير الفني الملازم لطبيعة النثر.

وهناك تراكيب أخرى لربما نجدها تحافظ على مبدأ القصر ولكن من حيث المضمون تحوي على معان كثيرة، من ذالك ما ورد في جدد حياتك حين راح الغزالي يعطي لعالم النفس تصويرا رائعا ينطلق ليس من عالم الشعر بل من عالم الخطاب النثري المنسجم الذي يعطي للفظ حقه من حيث النظم والوظيفة معا؛ فهو يقول " ... ولن يتم تذوق النفس لربد الرضا بإصدار أمر جاف، أو فرض

1- المصدر نفسه، ص 30 – 31.

تكليف أجوف، كلا؛ فالأمر يحتاج إلى تلطف مع النفس، واستدراج لمشاعرها النافرة، وإلا فلا قيمة لأن تقول : أنا راض، ونفسك طافحة بالضيق والتفزز، وأول ما يطلبه الإسلام منك أن تتهم مشاعرك حيال ما ينزل بك "[1] .

إنّ المسكوت عنه في هذا النص هو أنّ الألفاظ المختارة من قبل الشيخ تعكس في طياتها بعدا نثريا استطاع إلى حد بعيد أن يعكس عدة حقائق معرفية قد يظن بأنّها تصب في عمق الخطاب الصوفي، وذلك من مثل : الرضا والتكليف والنفس والحرية والأمر والنهي والعطاء وغيرها، وهذا زعم نعتقد أنّه لا يتماشى مع الإطار العام لخطاب الشيخ، ولكن الأجدر أن يقال إنّ مثل هذا النوع من التمايز الكائن في الخطاب النثري للشيخ إنّما يعكس ذلكم التلاحم بين الخطاب القرآني وواقع الفكرة التي كان يؤمن بها؛ الأمر الذي جعل من الخطاب يتجاوز حدود البنية السطحية ليصل إلى تلكم الصور البيانية التي تعطي للإحساس حقّه وللمشاعر حقها وللتصور حقه الذي يستوفيه؛ فتحقق حينها شرط اللطف البياني الجمالي في قالب لغوي يميل إلى النثر أكثر من ميله إلى الشعر، مصداقا لقوله تعالى { وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا } من سورة البقرة.

إن غالبية التراكيب اللغوية التي نجدها في معظم مصنفاته النثرية حتى ولو أنّها التزمت بما يمليه النظام القواعدي من أحكام ومقاييس؛ إلا أنّها استطاعت إلى حد بعيد أن تجعل من الخطاب النثري ينماز بأنساق متسقات، وإن اختلف في إطارها الشكلي الخارجي؛ فهي من ثمة على حد تعبير أحد النقاد بمثابة باقة الزهر التي لها القدرة في أن تجمع بين الورد والنرجس والفل والريحان، ولكنها رغم هذا التنوع الوجودي القائم في عالم الأسرار الربانية؛ فإنّها لا تلتقي في النهاية إلى تحقيق هدف لا يخرج عن التلاحم و الجمال والتقطير؛ تماما ما استطاع الخطاب النثري أن يعكس هذه المعاني في طياته عبر تماشيه مع واقع الخطاب القرآني بصوره و مشاهده.

1- المصدر السابق نفسه، ص 134.

إنّ الميزة الوحيدة التي انفرد بها الخطاب النثري لدى الشيخ الغزالي كونه لم يلتزم بمنهج واحد مما دأبت عليه الدراسات على اختلاف مجالاتها الداخلية والخارجية، بل راح تصوره يحوي المنهج لا العكس، وهو تصور فلسفي قل من يتصف به كثير من الباحثين؛ على أساس أنّ ..." اختيار الناقد نفسه لمنهج دون آخر ما هو إلا تعبير عن فلسفته وعقيدته واتّجاهه وذوقه، ولعل هذا هو الذي يحمله عندئذ على التركيز على جانب دون آخر فقد يكون عمله متّجها إلى ماهية الأدب أو وظيفته، أو قيمته، أو قد يكون وصفيا أو سيكولوجيا أو تذوقيا " [1].

لمثل هذا النوع من التعامل مع المنهج في عالم الدراسات غدا الغزالي يتعامل مع الخطاب النثري القرآني ليس وفق ما تمليه طبيعة التصور المنهجي البشري، بل وفق ما يقوم عليه واقع النص القرآني من غاية ليست كباقي الغايات ومقصد ليس كباقي المقاصد الأخرى على الإطلاق.

إنّ المنهج القرآني الواحدي الذي يجعل من طبيعة النص يتماشى ومقصدية السر الوجودي الكينوني الذي خلق من أجله الإنسان؛ الشيء الذي جعل من حركية الخطاب النثري لدى شخصية الغزالي لا تنزاح عنه أبدا.

إنّ المسكوت عنه في عمق الخطاب النثري الذي كان ينماز به الشيخ محمد الغزالي هو أنّ المراحل التي يتألف منها واقع التصور الديني الإسلامي من منظوره هي الرتب الإيمانية التي يعترف بها القرآن الكريم ويحتفظ بها علامات ثابتة في التدرج التربوي الذي تنبني عليه التربية الروحية وشروط الخلق السوي في واقع الحضارة العربية الإسلامية التي كان يدعو لها الشيخ الغزالي في كثير من السياقات والمقامات؛ على أساس أنّ جل المراتب على حسبه لا تخرج عن حقائق تتماشى مع السر الوجودي الكوني الملازم لواقع البشر في ظل ما يؤمنون به من إيمان وصدق وتذوق وتصور وغيرها؛ ففي قيم الذوق على حسب ما جاء في كثير من الخطابات النثرية للغزالي وقيم الرزق وقيم النظر والتدبر وقيم العمل وقيم الوجود الكوني لا تتساوى في عالم الناس، بل تتراتب وكلها لها نصيب منها

1- وليد قصّاب : مناهج النقد الأدبي الحديث. دار الفكر، دمشق، ط 1 ، 2007 ، ص 21.

هو كسبها الاجتهادي علما والجهادي عملا، ويجمع الشيخ هاتين الحقيقتين فيما أسماه بالتربية المجاهدة المقتبسة من قوله تعالى {والذين جاهدوا فينا } .

ولعل خير ما نختم به هذا الفصل القائم في البعد الكوني والجمالي والخلقي في الخطاب النثري للشيخ الغزالي أنّ الحجج النصية ليست من منظوره حججا قائمة على مبدأ الاستقلال كما راح يزعم في ذلك المنسبون إلى دين الله تعالى، بل هذه الحجج النصية الواقعة في كثير من السياقات هي أفخاخ ينصبها كل من يريد أن يستمد سلطة من النصوص يسكت بها خصومه تحصنا بقدسية النص للإلجام لا للإفهام، وهي تستعمل في الغالب الأعم لتأليب العوام، ولما كان الشيخ الغزالي لا يقبل حتى بإلجام العوام فكيف يجوز لنفسه السكوت على إلجام العلماء بمجرد كونهم يسعون إلى تحرير علوم الملة من الجمود علما وأن التمييز بين علماء العقل وعملاء النقل في مجال الإلهيات وحتى العالم والعامي إذا أمده الله تعالى بنور الإيمان لا معنى له عند مسلم؛ فهم طبيعة الخطاب القرآني.

إنّ القرآن الكريم قد خاطب الناس، من حيث هم عقلاء – على حد تعبير الشافعي– دون تمييز بينهم إلا بالدرجة لا بالطبيعة. لا ريب أنّ سنة الخلق اقتضت أن يكون بعض الناس أعلم من بعضهم الآخر في أحد المجالات، لكن لا أحد يمكن أن يعد عالما بإطلاق ولا أحد يمكن أن يعد عاميّا بإطلاق؛ بل من هو أعلم في مجال قد يكون أجهل في مجال آخر والعكس بالعكس، وهي حقيقة معرفية ظل الشيخ الغزالي رحمة الله عليه يدعو إليها في قالب لغوي رفيع يحدوه الإطلاق من كل مكان وفق ما يمليه التصور الديني الإسلامي من بابه الواسع.

المبحث الثالث: الغزالي والدعوة الإسلامية

لا يكاد الشيخ الغزالي يبتعد في كل محطاته الفكرية من معادلة (الوحي – الواقع) وهي رؤية تكاملية لقراءة الوحي وقراءة الواقع. أو قل قراءة القرآن وقراءة الوجود بكل أبعاده، إنه يفسر الظواهر الوجودية بأدوات الوحي والسماء. ولا يرى الغزالي أية فاصلة بين كتاب الخلق وكتاب الخالق وبالنتيجة يقرر أن العلاقة بين الكون والإسلام هي ذات العلاقة بين العلم والدين وهي العلاقة ذاتها بين النظرية والتطبيق. إنه يعبر عن الوجود (بالآيات الصامتة)، وعن القران (بالآيات الناطقة) فالذي خلق

الحياة مغلفة بأسرار كثيفة أبى أن يجعلها لغزا معضلا للإنسان، فجعل الدين مفتاح الإغلاق، وجعل القرآن مصدر الدين. وإن التطابق بين حقائق القرآن ومعارف الكون مفروض ابتداءا، فإن منزل الكتاب هو مجري السحاب ... ويعتقد الغزالي أن الانغلاق والانكفاء على قراءة النص القرآني باعتباره مصدرا تشريعيا – بصورة تجزيئية- هو خطر عظيم ولا بد من قراءة شاملة الأبعاد مترابطة الوشائج تختزن الرؤية التوحيدية في نظرتها للكون والحياة، ومن هنا جاءت دعوته إلى التفسير الموضوعي وتجاوز التفسير الموضعي الذي شاع تاريخيا.

إن المتتبع لكتابات الغزالي الدعوية يدرك أن للرجل فكرا وبيانا ومنهجا وأسلوبا، قد انفرد بها دون سواه، مما جعله يخترق قلوب الناس كالبرق بل قد ملك عليهم مجامع أفئدتهم، وأهوائهم ،وشدّ اهتمامهم، لما يحمله من تجديد في خطابه الديني المعاصر، الذي وجدت فيه ضالة الناس وحاجاتهم، إلى خطاب آفاقي، وبلاغ تجديدي، مفعم بالروح الحيوية والرؤية التجديدية الحديثة. وبالحياة الفاعلية، وبالحركية الاجتهادية ،في فهم الأطر المرجعية، المقدسة، وفي التعامل مع التراث الإسلامي، بحيوية مفعمة بروح الشباب، والصدق والإخلاص، والغيرة على الإسلام والمسلمين.[1]

وما يميز الشيخ محمد الغزالي عن غيره من العلماء والدعاة قديما وحديثا جملة من الأمور، أهمها:

- فهمه العميق والدقيق لروح الشريعة الإسلامية ولمقاصدها الحنفية السمحة، وللمقاصد النبيلة التي أنزلت من أجلها.

- فهمه لروح الشريعة الإسلامية الفاعلة والمحركة لنهضة الأمة الإسلامية.

- إدراكه أزمة الأمة الإسلامية المعاصرة، ولأسباب تخلفها وتعثرها،وطرق نهضتها.

- رؤيته الاستشرافية الآفاقية الناهضة، والمستقبلية الأكيدة، فقد نبه باقتطاع الصليبية العالمية لأجزاء مهمة من العالم الإسلامي وضمها للصليبية العالمية بفعل التبشير المستمر.

- دفاعه المستميت عن الإسلام والتنبيه إلى خطر المتحدثين باسمه من: متحدث جاهل ومنافق

1- أ حمد عيساوي: الغزالي فارس الدعوة الإسلامية في العصر الحديث، عن مجلة الوعي الإسلامي العدد :489 ، ص200.

عليم اللسان و سياسي صاحب هوى

- تنبيهه لخطر المتحدثين الجهال بإسم الإسلام،ممن لا فقه لهم، ولا علم عندهم، ولا موهبة علمية لهم.

- شجاعته النادرة،وتصديه المتميز للجامدين والمعاندين والمقلدين، وتضحيته المتميزة أمام جحافل الفقهاء البله والمغفلين من المتحدثين باسم الإسلام، وتقديمه للفتاوى الجزئية التي تعاني منها الأمة، والتي تحمل من أجلها الكثير.

- تكوينه للنخب وللبؤر الدعوية المتميزة، ممن حملت المشعل الدعوي الناهض من بعده.

- جرأته في الحق، فخطابه يوجه إلى السلاطين والملوك والرؤساء أحيانا.

- حكمته وعقلانيته ورشده المتميز في خدمة الإسلام والمسلمين محليا وإقليميا وعالميا .

- تصديه - بالكتابة والتأليف، وكل أشكال الاتصال والتعبير والنقد - لما يصيب الإسلام والمسلمين، ولما يتهددهم، على الصعيدين الداخلي والخارجي.

- تصديه بكل الوسائل الناجحة والناجعة والمتوفرة لكل علل وأمراض المسلمين، والتنبيه على خطرها القاتل عندما تستشري فيهم.

- تأسيه الصادق والحقيقي والواقعي بالمنهج النبوي الصحيح، وبتطبيقاته العملية الموروثة عن جيل الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين .

- وقوفه الحازم في وجه المقلدين والجامدين والمعوقين والمخذّلين.[1]

- رفضه في كل منظومته الفكرية التعصب لمذهب بعينه أو إلزام الناس باجتهاد واحد، وكان رحمه الله يرى أن انقسام الناس فرقا وراء المذاهب قد جعلهم أتباع عدة شرائع لا أبناء دين واحد نتيجة التعصب.

منهج الغزالي الدعوي :

1 - أ حمد عيساوي : الغزالي فارس الدعوة الإسلامية في العصر الحديث ، عن مجلة الوعي الإسلامي، العدد :489

يعد الشيخ محمد الغزالي يرحمه الله من بين مجموعة قليلة من العلماء المسلمين المعاصرين ممن تخصص في العمل الدعوي، وممن قعد في أساليبها ومناهجها ووسائلها وأسسها، وقد أعطاه الله فتحا عظيما وجليا في علومها، فأبدع وقعّد ونظّر لها، وكان يرى أن سبب نكبة الإسلام والمسلمين من عدوين اثنين الأول خارجي قوي وجبار، وهو خطير على الإسلام تجب مقاومته. والثاني داخلي أخطر من الأول، وهو سبب بلاء الأمة الإسلامية، إذ يقدم الإسلام ويعرضه عليهم أسوأ عرض،ويشوه صورته بين الناس، ولا يقبل عثرات المذنبين، ولا تيه التائهين، ولا خطأ المخطئين، ولا إسراف المسرفين على أنفسهم وغيرهم، بل يحمل عليهم بجهله وكبريائه،ونفخته الكاذبة، فيفسد صورة الإسلام وسماحته في قلوبهم وصدورهم. ولذا كرّس الشيخ حياته في سبيل تقديم الإسلام الصحيح إلى هذه الأصناف أفضل تقديم، وعرضه على الناس أحسن عرض.

وقد كان يرحمه الله يركز في العمل الدعوي على القواعد والأركان الدعوية التالية: فقه الذات، وفقه المرجعية، وفقه لب التراث ومقصده، وفقه الآخر المحتاج للإسلام، مشكلا بذلك مدرسة دعوية متميزة، وقد جسّد روح التجديد الدعوي، وبذلك يكون قد أثر في الساحة الدعوية الإسلامية أيّما تأثير، وقد لقي فكره وطرحه امتدادا عميقا لدى شباب الصحوة الإسلامية في العالم العربي والإسلامي، وصارت كتبه تدرس في جامعات ومعاهد وكليات الشريعة الإسلامية [1].

وصفه الشيخ يوسف القرضاوي [2] في ذكرى تأبينه، فقال:" لقد ترك الشيخ محمد الغزالي بصمات واضحة على العقل الإسلامي، لا يمحوها اختلاف الليل والنهار، بما ألف من عشرات الكتب، وما أنشأ من مئات المقالات، وما أقام من آلاف الدروس والخطب والمحاضرات ...لقد عاش الشيخ الغزالي حياته كلها: حر الفكر والضمير، حر القلم واللسان، ولم يعبّد نفسه لأحد، إلاّ لربه الذي خلقه فسواه. ولم يبع ضميره، ولا قلمه لمخلوق.[3]

1 - من هذه الكتب نذكر : مع الله دراسة في الدعوة والدعاة، والدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر، وهموم داعية.

2 - يوسف القرضاوي: الغزالي كما عرفته، رحلة نصف قرن، ط 3، دار الشروق 2000، ص21 .

3 - ينظر : أ حمد عيساوي : الغزالي فارس الدعوة الإسلامية في العصر الحديث ، عن مجلة الوعي الإسلامي، العدد :489

آليات التجديد في الفكر الإسلامي لدى الغزالي :

نقصد بالفكر الإسلامي ، تلك المحاولات العقلية التي قام بها العلماء ، وهم يفسرون الإسلام في مصادره الأصلية ،تفقها واستنباطا للأحكام ، بحثا في صلة العبد بخالقه وفي صلته مع غيره من بني البشر ،معاملات ومعالجة لما يستجد من أحداث في تاريخ الأمة الإسلامية. ومن خلال تتبع المسار العقلي الإسلامي نستشف بأن الإسلام قادر على مواجهة أية ثقافة فكرية إنسانية دون أن يخشى عليه طالما أن هناك من المنتسبين إليه من يستطيع استيعابه وفهمه في أصوله وغاياته .كما أن الإسلام قادر على مواجهة أحداث الحياة وتطور المجتمع ، هذا التفاعل إنما يدل على مرونته وسعة استيعابه لمستجدات الحياة.

فالفقه الإسلامي تدل كثرة مذاهبه ومدارسه على سعة مُحاولة لتكييف الأحداث من وجهة نظر الإسلام، والخلاف الذي بينها في اعتبار بعض أصول الفقه والمراجع التي ترد إليها لحكم الحوادث لم يكن إلا خلافاً ناشئاً عن رغبة المختلفين في ضرورة الحرص على بقاء الأمة الإسلامية آخذة بالإسلام في منهج حياتها اليوم.

وبدون التعريج على المقاييس الفقهية التي اعتمدها الفقهاء في استيفاء الأحكام القرآنية أو غيرها، يبقي الحديث عن هذا العقل الجمعي الذي حاول أن يوفق بين مبادئ الإسلام من ناحية، وبين تجديدها ورصد حركة تطور الزمن من ناحية أخرى، مستمدا خطابه ومؤصلاً_ في ذات الوقت_ لقاعدة فقهية ترى انتهاء النصوص ولا انتهاء للوقائع [1]،ويطرح العديد منها محاولات جديدة للفهم، وقراءة مغايرة للنص الذي تستمد منه الأمة أسسها ومنهجها إلا أن كل حضارة لها فترات ازدهار وانحسار، وعلى حد تعبير مالك بن نبي _ الدورة الحضارية_ وتخلق فترة الانحسار ضربا من التخبط والاضمحلال، وانكماشاً، أو تمركزا حول الحقبة القديمة " فترة الازدهار" محاولة الاستنارة والاستضاءة بها في وقت التيه والتخبط، منزلة بذلك أحكاما لوقائع القديمة على الوقائع الحديثة دون الوعي

1- د محمد البهي: الفكر الإسلامي في تطوره، الطبعة الثانية مكتبة وهبة، مصر، (1401هـ، 1981م) ص 6.

باختلاف الزمن، وتغاير معطياته وحاجاته؛ ومن هنا يكشف النص قراءته عمق الأزمة وأبعادها، فيبدأ الخلاف حول تفسيره والاستفادة منه، وكيفية معالجته للواقع، وهنا يفسر النص تبعا لخلفيات معرفية، أو أيدلوجيات أخضعت النص لمبادئها، ولم تخضع مبادئها له. ويبقي الخطاب الآخر وهو خطاب الحضارة المهيمنة، والتي استطاعت أن توطد أركانه من خلال فهم عقلية الآخر، عن طريق حملات استكشافية استشرافية استطاعت أن تكتشف مواضع الخلل في بنية العقل العربي والإسلامي، فأجادت التعامل مع هذه البنية المخربة في ظرفها الراهن، وصدرت إليه خطاباً احتل مكانة المرجعية لدي البعض من أبناء الأمة كونه خطاب الحضارة المهيمنة؛ ولقد صدق ابن خلدون حينما سطر مقولته الرائعة: "المغلوب مولع بتقليد الغالب". وقد اتخذ هذا الخطاب صورا عدة فمابين صورة بحثية، وأخري أكاديمية وثالثة معرفية بمستوياتها المختلفة أسس لنفسه مركزية، واحتل مكانة في بنية العقل المخرب، الذي استقبل هذا الخطاب دون إعمال العقل فيما يلقي إليه، فكان جديرا بأن يقتل النباهة لديه، وأن تكون لديه قابلية للاستعمار ومن ثم وبعد مرور فترة من الزمن استطاع هذا الخطاب أن ينشئ تيارات تؤمن بمرجعيته، وتستمد أصولها منه، فكان نشوء الخطاب العلماني العربي الذي حاول أن يتخذ من الغرب قبلة ومرجعية، وامتد هذا الأمر ليشمل الدين، وأن يحل محله بتياراته الدهرية والإلحادية،والتي وصلت ذروتها في الفترة المعاصرة، وهي فترة إفراغ الدين، أو علمنته.

إلا أن الدين الإسلامي هو دين الله الباقي، والرسالة الخالدة، فقيض الله له من يذود عنه، ويدافع، ولقد بدأت محاولات الدفاع عن الدين بداية بطرق مختلفة، وتميزت بين رافض للخطاب الغربي ذاته، وبين مناهض للوجود الواقعي نفسه. ومن خلال ذلك وجدت حركات عبر الزمان والمكان تطورت وكونت مدارس إصلاحية متنوعة الاتجاهات والمناهج والطرق كلها تصبوا إلى هدف واحد.

ولقد كان الشيخ الغزالي أحد إفرازات هذه المدارس، فلقد حدد المنهاج الذي ينتمي إليه مشروعه الفكري التجديدي، هذا المنهاج الذي يوازن بين النقل والعقل، على نحو متميز، وإذ هو يروج للعقل

ويقدم الدليل، معتبرا أن العقل أصل النقل، والكتاب مقدم على السنة، هو الأصل للنقل وليس العكس كما تدعي المدارس السلفية، ويتقدم الكتاب على السنة.كما أن مدرسته ترفض مبدأ النسخ وتنكره إنكاراً حاسماً أن يكون في القرآن نص انتهي أمده، ومن ثم فهي تنكر التقليد المذهبي، وتحترم علم الأئمة، وتعمل على أن يسود الإسلام العالم بعقائده وقيمه الأساسية، ولا تلقي بالاً إلى مقالات الفرق والمذاهب القديمة أو الحديثة .

لقد دافع الشيخ في عدة جبهات، فبين دفاعه عن الإسلام ضد منتقديه والمفترين عليه، وبين استبداد سياسي وقمعي يحاول أن ينحِّي الإسلام وخطابه خارج الساحة، من أجل أهداف برجماتية قريبة الأجل، وخارجة عن إطار ديمومة التاريخ، وبين حركات إسلامية حاولت أن تستنهض وتنهض بالأمة فغالت وفرطت وأفرطت، فضلت وأضلت، وبين فكر إسلامي عانى أشد ما عانى من المنتسبين إليه، والقائمين عليه والمتحدثين به، وبين فقه يحتاج إلى تجديد،ومحاولة إعادة القراءة في ضوء الوقت الراهن، وبين حرب حضارية مزعومة .

في كل تلك الميادين وقف الشيخ مدافعاً ومسددا وناصحا ومجدداً، محاولا قراءة النص واستنباط آلياته، والإضافة إليه، وتلقيه تلقي الواعي الناقد؛ إذ يكتسب النص مركزية كبيرة في قلب الثقافة الإسلامية، وقد ارتكبت باسم النص حماقات وأفعال ما أنزل الله بها من سلطان؛ فقد اتخذت بعض الحركات الإسلامية من بعض الكتب مرجعا لها وهاديا، ككتاب " الأحكام السلطانية والولايات الدينية"[1] فنقلت عنه الجماعات الإسلامية دون تطوير أو اجتهاد، سواء أكانت معتدلة أم متطرفة ، ولهذا كان لزاما على أمثال الشيخ الغزالي من مراجعة ودراسة ومناقشة مثل هذه الكتب، لأنها أثرت في الفقه الإسلامي السياسي منذ ذلك التاريخ إلى يوم الناس هذا، ولذلك عمد الشيخ إلى تطوير آليات القراءة واستنباط الأحكام .

وضع زعيم حركة الإخوان المسلمين حسن ألبنا أصولا عشرين ،خاطب بها الجماعات الإسلامية في زمانه سعيا منه للتقريب والتأليف ، وقد قام الشيخ الغزالي بشرحها مضيفا إليها عشرة

1 - الإمام أبي الحسن السهر وردي: المتوفي سنة 450 هجرية

أصول أخرى رآها ضرورية [1]. هذه الأصول تختص بوضع المرأة، وطبيعة الأسرة،وحقوق الإنسان وطبيعة الحكام، وأساس الحكم، وطبيعة الملكية، ووظيفة الدعوة الإسلامية، والعلاقة بغير المسلمين، والمواثيق الدولية، والتعاون بين الدول ودور المسلمين فيه؛ ولقد مثلت تلك الإضافات مجمل المشروع الفكري للشيخ الغزالي، والذي اتسم بسمة التجديد والأصالة .

يقول الشيخ رحمه الله: "ولعل إخراجي لهذا الكتاب يرجع إلى ضرورة الحفاظ على الإسلام من هوس أولئك الأغرار، إلى جانب أن الجمهور فقير إلى حقائق إسلامية كثيرة حرم منها دهراً، فالمسلمون ينهضون بالعلم لا غير؛ ولذلك فقد أعطيت نفسي الحق في إضافة عشرة مقررات أخرى أحسب أننا بحاجة إلي إشاعتها،وشرحها وارد في كتبي الأخرى، وفي مؤلفات الرجال الذين يكدحون في الحقل الإسلامي الرحب، ولا أدري أأصبت في هذه الإضافة أم أخطأت، وحسبي أن الحق قصدي"[2].!!...

وتلك الإضافات نجملها فيما يلي :

- النساء شقائق الرجال، وطلب العلم فريضة على الجنسين كليهما، وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وللنساء_ في حدود الآداب الإسلامية_ حق المشاركة في بناء المجتمع وحمايته.
- الأسرة أساس الكيان الخلقي والاجتماعي للأمة، والمحضن الطبيعي للأجيال الناشئة، وعلى الآباء والأمهات واجبات مشتركة لتهيئة الجو الصالح بينهما،والرجل هو رب الأسرة، ومسئوليته محدودة بما شرع الله لأفرادها جميعاً .
- للإنسان حقوق مادية وأدبية تناسب تكريم الله له، ومنزلته الرفيعة على ظهر الأرض .

2 - محمد الغزالي: دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، الجزائر، دار الكتب ، 1408 – 1988م، ص 40.

2- المصدر نفسه، ص 40 .

- الحكام_ ملوكاً كانوا أم رؤساء_ أجراء لدي شعوبهم، يرعون مصالحهم الدينية والدنيوية، ووجودهم مستمد من هذه الرعاية المفروضة، ومن رضا السواد الأعظم بها، وليس لأحد أن يفرض نفسه على الأمة كرهاً، أو يسوس أمورها استبدادا.
- الشورى أساس الحكم، ولكل شعب أن يختار أسلوب تحقيقها.
- الملكية الخاصة مصونة بشروطها وحقوقها التي قررها الإسلام، والأمة جسد واحد لا يهمل منها عضو، ولا تزدري فيها طائفة، والأخوة العامة هي القانون الذي ينتظم الجماعة كلها فرداً فرداً، وتخضع له شؤونها المادية والأدبية.
- أسرة الدولة مسئولة عن الدعوة الإسلامية، ودفع الأذى عن أتباعها حيث كانوا، وعليها أن تبذل الجهود لإحياء نظام الخلافة.
- اختلاف الدين ليس مصدر خصومة واستعداد، وإنما تنشب الحروب إذا وقع عدوان، أو حدثت فتنة، أو ظلمت فئات من الناس.
- علاقة المسلمين بالأسرة الدولية تحميها المواثيق الإيخائية الإنسانية المجرد، والمسلمون دعاة لدينهم بالحجة والإتباع فحسب، ولا يضمرون شراً لعباد الله .
- يسهم المسلمون مع الأمم الأخرى _ على اختلاف دينها ومذاهبها_ في كل ما يرقى مادياً ومعنويا بالجنس البشري؛ وذلك من منطلق الفطرة الإسلامية والقيم التي توارثوها عن كبير الأنبياء محمد_ صلى الله عليه وسلم .

تلك هي المبادئ العشرة التي أقترح إضافتها، وهي تتسم بالشمولية، والتعدد، كما أنها تركز على جانب عالمية الإسلام، وتجدد دعوته،وأنه صالح لكل زمان ومكان بمبادئه السامية العالية. وفي ذات الوقت تدفع الكثير من الشبهات التي أثيرت حوله ،وهذه الإضافات تحتاج إلى عملية دراسة، وتأصيل في إطار التراث الإسلامي بمناهجه المختلفة، وأهم المعالجات التي اشتملت عليها لكثير من الأحكام الفقهية، والدعوية، وإبراز الجانب الخلقي والمعرفي لمرتكزات الدعوة الإسلامية وعالميتها .ولعل المتتبع لهذه الإضافات يتبين له بأن المرجعية التي اعتمدها الشيخ تنطلق من القرآن

والسنة، والتاريخ الإنساني والإسلامي ، بالإضافة إلى الثقافة الدينية والإسلامية ، دون تجاوز الواقع .

إن أبعاد المشروع الفكري التجديدي للشيخ الغزالي ترتكز على أسس مهمة، ويمثل الواقع أحد أهم تلك الأسس، فإدراك الشيخ للواقع،ومحاولة قراءة النص عليه تختلف اختلافاً بيِّناً عن كثير من الحركات الاجتماعية الإسلامية، والتي قرأت النص بعيدا عن الواقع ، الأمر الذي أوقعها في كثير من المزالق ، لأن المجتمع يتحرك ويتغير ، ومنه لابد أن يتحرك الحكم وفقه .ومن هنا كانت نظرة الشيخ الغزالي نظرة فارقة في مسيرة التطور والتجديد، ولذلك كان نقده لحركة الصحوة الإسلامية نقد مستبصر ومدرك للواقع وما يحويه، واضعا يده على مناطق الخلل، أو بما أسماه _ رحمه الله_ العلل والأدوية [1].

الفقه الإسلامي بين الجمود والتطور :

إنّ العقل الإسلامي مبني على التدبر والتفكر، وفحص الأدلة وموازنتها والمقارنة بينها وبين بعضها البعض؛ ليخرج بنتيجة تستنير بها حياة المسلم وتسعد، وفي ذلك دلالة واضحة على مكانة العقل في الإسلام، ولقد بني القرآن خطابه على ذلك؛ إذ ذكر في أكثر من موضع الحض على التفكير وإعمال العقل، فقال: { أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ } { أَفَلَا يَعْقِلُونَ } ، { أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ } [2].

وحينما تدبر العقل الإسلامي الخطاب القرآني استطاع أن يستنبط منه أحكاما وضوابط خاصة بحياة الفرد المسلم، فقعَّد الفقهاء أصولا لفقه، وبوبوا لأبوابه، وبنوا على قواعده أحكاما وفقا لما أتيح للعقل في ذلك الوقت من معطيات عقلية ومنطقية . ولما كان المجتمع كما أسلفنا الذكر متحركا متغيرا متطورا ، كان لزاما على المحدثين من إعادة القراءة لأن المنتج المعرفي قد اختص بفترة زمنية معينة كانت

1 د/ محمد البهي: الفكر الإسلامي في تطوره، مكتبة وهبة، مصر، ط2، 1401هـ، 1981م ، ص 6 .

1 - أنظر الآيات: 80 ، الأنعام، 24، محمد، 05، الحشر.

لها ظروفها ووقائعها وحوادثها ،فوجب على العقل المسلم المفكر أن يعيد النظر فيما كان من منتج معرفي سابق له ظروفه الخاصة التي أحاطت به، ويقوم بعملية تجديد لما لديه من قواعد وأصول وأحكام، مع التأكيد على مبدأ المرجعية القرآنية .

وقد عمل الشيخ الغزالي على ذلك، فقد نهج منهج السلف الصالح مع الإضافة إليه من خلال نزعة تجديدية اتسمت بالحكمة والجمع بين أصول الواقع والوقائع، ومتغيراته، وبين أصول الإسلام الثابتة وفروعه التي تقبل الاجتهاد والتأصيل، وتبرز دور العقل، وعند الوقوف على حدود النصوص، وتقديسها ، فعند تناوله لبعض القضايا يعلق على من استقى حكما ظاهريا من قوله تعالى " وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا "يقولون : إذا أمكنتنا الأيد، لم نبق على أحد من الكافرين. فيجيب الشيخ بأن هذا منهج قطاع الطرق وليس منهج دعاة إلى الله.

وربما كان سبب تخلف المسلمين في جميع مناحي الحياة الأخلاقية والاجتماعية والسياسية، وبعد الهوة بينه وبين العالم المتقدم ، هو اجترار المقولات القديمة التي كرست لعهد التخلف والاضمحلال، يقول الغزالي :" إننا محتا جون إلى فقهاء يستطيعون النظر في سياسة المال والحكم، ويرفضون أن يسبقهم الإلحاد إلى اجتذاب الشعوب الفقيرة في هذه الميادين الخطيرة، ومحتا جون إلى فقهاء يقومون على شؤون التربية والإعلام برحابة الإسلام وبشاشته لا بالتزمت والتكلف ، إن الفقه الإسلامي كما قدمه السلف حضارة معجزة ، أما الفقه الإسلامي كما يقدمه البعض الآن فهو يميت ولا يحيي " .[1]

إن الفقه الإسلامي كما قدمه سلفنا حضارة معجزة، أما ما يقدمه البعض الآن فهو يميت و لا يحيي، ويرى الشيخ أن المهمة الحقيقية لتجديد الفقه الإسلامي لن تكون إلا من خلال إعمال طاقات العقل، وتحريره من براثن الماضي، فقد ردَّ الشيخ بعض الأحاديث الثابتة في الصحاح إذا

1 - د/ محمد البهي: الفكر الإسلامي في تطوره، (مكتبة وهبة، مصر، ط2 1401هـ، 1981م)، ص 6

ناقضت منطق العقل،أو منطق العلم، أو منطق الدين نفسه حيثما يراه، وهو يرى أن المسلمين لم يؤذوا من الأحاديث الموضوعة قدر ما أوذوا من الأحاديث التي أسيئ فهمها واضطربت أوضاعها، حتى جاء أخيرا من ينظر إلى السنن جمعاء نظرة ريبة واتهام وتمنى لو تخلص المسلمون منها.[1]

الغزالي والصحوة الإسلامية :

لقد كانت إحدى إبداعات التفكير وسرعة الإدراك لدى الشيخ الغزالي تحرره من الانزواء خلف فكر جماعة، أو تيار إسلامي معين ،فقد استطاع الشيخ أن يرى الحياة والمجتمع من خلال عقل المسلم الحر ، وهو يؤمن بأن العقل بدون حرية لا يحقق إلا ما توجهه إليه الجماعة التي ينتمي إليها ، بل إن العقل يغيب عندما يحصر في إطار جماعة فكرية معينة تجعل الولاء لأفكارها وليس للإسلام ، بل إن العقل في مثل هذه الأحوال إما أن يغيّب أو أن يغتال.

من هنا راح الشيخ الغزالي يقدم نصائحه إلى الصحوة الإسلامية ، نصيحة المجرب المطلع على خبايا الأمور وعللها ، ولذلك كتب في هذا الإطار كتبا كثيرة [2]، يرشد فيها ويقوم ويدعو إلى ما يجب أن تكون عليه الأمة الإسلامية ، والمسلمون إسلاما وولاء له حقيقيا لا شكليا ، مهيأون ليقظة عامة تحمي حاضرهم ومستقبلهم ووجودهم الرسالي الذي ارتضاه الله لهم[3] .

2 - محمد الغزالي : السنة بين أهل الفقه والحديث ، ط1، القاهرة، دار الصحوة، 1405 هـ - 1985 م، ص 200.

1 - مثل عموم الداعية، الدعوة والدعاة

3 - محمد الغزالي: حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة ط:2 ، نهضة مصر 2002، ، ص217_218.

الفصل الثالث

مقاربة أسلوبية في النصوص النثرية عند الغزالي

- المستويات الجمالية في أدب الغزالي.
- جمالية التقديم و التأخير.
- التمثيل و الاستشهاد .

المبحث الأول: المستويات الجمالية في أدب الغزالي

إن الدارس لأدب الغزالي يتجلى له بمستويات جمالية عدة؛ فهو كالتيار الكبير الذي تصب فيه روافد أدبية شعرية ونثرية وأطروحات دينية عميقة وسياسية تكتسي طابع التنوير والانفتاح على الآخر واحترام حرية الإنسان ومعتقداته. و إن الشيخ الغزالي شخصية موسوعية في الثقافة والدين والأدب والتاريخ والدعوة، إضافة إلى اتسامه بأخلاق الباحث والمتمثلة أساسا في الصبر والجرأة على طرح القضايا بموضوعية وعقلانية وعمق.

والمقاربة الجمالية للنصوص النثرية والشعرية والتي نلتمس من خلالها الحيوية و التجدد و القدرة على الامتداد والزمن من صفات تلك النصوص،ذلك لأنه يشتمل على خصائص المنهج الفني ،سواء أكان ذلك على مستوى النسيج والصياغة، والبلاغة والتكثيف أو المجاز في الاستعارة والتشبيه والكتابة و الاستطراد و ما إلى ذلك من أساليب اللغة البيانية التي كانت ومازالت السمة الأساسية التي تجعل من النص منفتحا على القراءة أو المقاربة من عدة زوايا وهكذا فالنص النثري عند الغزالي بمجمله يشكل صورة شعرية متميزة.

و قد قلت الدراسات الأكاديمية التي تهدف لاستجلاء مكنونات ذلك النص وسبر أغواره الدلالية و البنائية و تلمس جمالياته ومستويات القراءة و التلقي و قوة الشعرية المكتنزة فيه.

كما أبهرت هذه الشعرية ومستوياتها الجمالية كثيرا من النقاد والأدباء،فأبحروا في تلك النصوص عبر قراءة أسلوبيته حينا ودلاليته حينا آخر وذلك للكشف عن انساق نثرية سواء في شعرية التشكيلات الإيقاعية أو شعرية البنى التركيبية ، فهذه المقارنة الجمالية للنص الغزالي كانت تشير إلى ما حولها النص من بيئة وثقافة وملامح الشخصية المنتجة لهدا النص والمؤثرات أو المراجع التي تبدو وتظهر أنها واضحة في النص كتأثر الغزالي بالنص القرآني، ولذلك لابد أن تمر تلك المقاربة بالحديث عن بنية الغزالي وعصره وثقافته وقد كان ذلك في فصول من البحث.

وما أن الشعرية هي المحور الرئيسي الذي تجلى عليه المستويات الجمالية للنص الغزالي، و ذلك باعتباره سمة جمالية بكل ما لها من صلة بإبداع المفكر،حيث تكون اللغة هي الجوهر والوسيلة في الوقت ذاته.

ومن فهمنا هذا للشعرية و تعمقنا في تلك النصوص النثرية واصلين رؤانا التحليلية والنقدية إلى ذروة الشعرية عبر أنساقها وتجلياتها التي تشع بها لغة الغزالي ،كما يقول جون كوهين john cohen : " إن الملمح الملائم للشعرية هو الكثافة " فإن مفهوم البلاغة في الأدب العربي هو نظير للكثافة أو ما يعبر عنه بالاقتصاد في الكلام عند القدامى وهو أن نقول معاني كثيرة في كلمات مقتصدة وبالتالي فهي متفجرة بالمعنى،و اللغة حتى تشخص المفردات بطاقة دلالية وقتية تنقلها إلى مصاف اللغة الأخرى داخل نص اللغة الشعرية التي تجعل من النص قابل للامتداد في الزمن لما تمتلكه من قدرة تأويلية و طاقة تعبيرية و صورا شعرية تترك في المتلقي أثرا ومتعة، كما يقول ياكبسون ما يجعل من رسالة لفظية أثرا فنيا ،و المدونة النقدية العربية لم تلغ هذا المفهوم سواء في نصوص قدامة بن جعفر أو حازم القرطاجني أو تلميحات الجاحظ ،بضرورة وجود قانون فني يجعل النص اللغوي نصا شعريا.

ومن خلال هذه المقاربة حول الشعرية وتمظهراتها المجازية كالصورة والانزياح والتكثيف واستخدام الأنساق النصية كالتكرار والتضاد والتقابلات والتناظر والإيقاع، وكذلك أنساق السجع والجناس يجعل من تلك الأنساق معززا للشعرية.

إن الغزالي مقتدر ببراعة شديدة على صناعة الخطاب الأدبي النفاذ إلى القلوب والعقول معا بلغة بسيطة تلقي بظلال المرح والعفوية في إيقاع هادئ أنيق، ونطق مطمئن، فلا حماسة عاتية تهيج المشاعر والنفوس، ولا فضول في الكلام ينسي بعضه بعضا.

شعرية الإيجاز:

إن الإيجاز من سمات النص النثري عند الغزالي المميزة له كنص أدبي يتسم ببلاغة إيجازية،فقوله رحمه الله:" وأنا أجنح إلى المرح عن رغبة عميقة، والتمس الجوانب الضاحكة في كل شيء وأود لو استطعت أن أعيش هاشا باشا والمفروض أن الناس يتوقعون من مثلي تواصل الأحزان وإطراق الكآبة، حتى يكون تذكيره بالآخرة و إنذاره العصاه بالنار متفقا مع مخايل الجد والعبوس لا تفارق وجهه، أبدا"[1].

فهذا النص على إيجازه يلخص شخصية الغزالي في بعض المفردات في معاني موجزة ،فكلما يقول سس دي لويس[2].

إن الإيجاز هو تركيز ما له أهمية كبيرة في حيز صغير، غير أن فن الإيجاز من فنون القول التي لا يقدر على توظيفه جماليا إلا من لهم قانون على مسك زمان الإيجاز و معرفة أدواته الإجرائية والفنية المكرسة له.

فالتواضع في الشيخ الغزالي ثمرة طبيعية لخلقه القرآني، هذه البساطة في التعبير تعكس شخصية منفتحة تملك سمات مزاجية و نفسية رفيعة،فكان يجنح إلى الدعاية والمرح والمدح، وميل فطري إلى التواضع ومقت الاستعلاء وروح تفاؤلية عالية تجنح إلى التفكير الايجابي والإقبال على الحياة كما أن قوله: و أنا اجنح إلى المرح، فهذا أن المبتدأ والخبر حققا الإيجاز بالتنبيه المصيب لهدفه الدلالي.

وهذا الإيجاز يفتح مديات التأويل كما يعرف في ذاكرة المتلقي وفي التفاعل مع طاقة المتلقي، قال طه حسين مرة عن أديب تكلم في موضوع ما تكلم كثيرا ولم يقل شيئا فالبلاغة أو الإيجاز تسحب النص من خبر الكلام العام إلى حيز الأهمية بالمفردات المقتصدة التي تؤدي كما من المعاني،أو كما يرى طه حسين من الكلام الكثير الذي خلا من المعنى، إلى الألفاظ ذات إيحاءات وتصورات

1 - محمد الغزالي: تأملات في الدين و الحياة،الإسكندرية، دار الدعوة، ط 2، 1992، ص 5.

2 - سي دي لويس: جمالية الإيجاز، د ت، ط3، ص 25.

مكثفة تنبئ عن حشد هائل من الرؤى والتصورات ،فالقطعية النثرية التي أدرجناها لمقارنة شعرية الإيجاز عند الغزالي تصور حياته الباطنية والوجدانية في بضع مفردات ذات شحنة وطاقة تعبيرية وفنية و إيحائية ترسم لها صفات من حياة هذا المفكر العملاق، حياته النفسية وشخصيته التي نجح بالبساطة والتواضع والانفتاح على الآخر والتواصل عن طريق أسلوب المرح والدعابة.

تبقى قضية الغزالي في الايجاز من أهم القضايا النقدية والجمالية على مستوى الأسلوبية،حيث يتحول الكلام من مستوى التعبير العادي إلى المستوى الاستثنائي الذي يمنحه صفة الجمال وتجعله منفتحا على المقاربة النقدية، وذلك عبر آليات التأويل. من أجل طرح قواعد جمالية لتلك النصوص النثرية والشعرية، خذ مثال على ذلك الغزالي وهو يصف وظيفة المرأة البيتية على أنها من أشرف الأعمال وأقدسها وما يحسنها إلا من استكمل لها أزكى الأخلاق وأنقى الأفكار "[1].

فمن منطلقات الشعور بأهمية دور المرأة في مؤسسة البناء الاجتماعي، والتأهيل الحضاري لاسيما في إعداد الإنسان الصالح .. كان اهتمام الشيخ الغزالي بالمرأة كبيرا، فقد شغلت وضعيتها حيزا هاما في تفكيره وأنشطته العلمية والاجتماعية، الأمر الذي يجبر كل دارس أو متابع لفكره على ملاحظة هذه المساحة وحدودها والتوقف بإزاء خلفياتها ومراميها في سياق البحث عن ترجمات منهجية، وتأويلات عميقة لدلالاتها المتنوعة بشتى أبعادها في سياق مشروعه الفكري.

إن تجربة الشيخ الغزالي الطويلة في ساحة الدعوة الإسلامية، وعمق فهمه للحياة الإسلامية فضلا على سعيه الدائم للتوافق والانسجام مع الفطرة السليمة على النحو السليم الذي ترشد إليه نصوص الوحي الكريم. قد أثبت في وعيه المتيقظ أن المرأة الواعية المتمسكة بمنحى الهدايات الذي رسمته تعاليم الإسلام السمحاء هي الوحيدة القادرة على تجسيد الإسلام في بعده الرسالي في إدراك ماهية البيت كأصل ثابت يتفرع عنه الاستثناء في خروج المرأة للعمل بدافع ظروف خاصة ألزمتها بها الظروف..

1 - محمد الغزالي: ركائز الإيمان عن العقل و القلب منشورات دار الشروق، ط 1418هـ-1997م، ص 221.

وهنا يتضح مدى ما أبدعه صاحب النص من جهد إبداعي تجمع قضية اجتماعية كبرى تتراوح من مفهومي الآجلة والعاجلة ومن وجهة دينية، في مساحة تعبيرية تبقى عالقة في ذهن المتلقي، ذلك لصغر حجمها وقلة ألفاظها وكثافة معانيها،ويبدو أن الغزالي أراد طرح قضية اجتماعية مستخدما أسلوبه الأدبي الذي يغلب عليه ببساطة الألفاظ ذات شحنة روحية وتجريدية كقوله: أزكى الأخلاق، وأنقى الأفكار، وأشرف الأعمال، فهي عبارات موجزة ولكنها تحمل كثافة في المعنى، حيث جمع بين القداسة والأخلاق والأفكار وهذه المفردات أقرب إلى خبر التجريد والظرف الزماني المطلق والذي يدخل نحويا أو تركيبيا ضمن بنية أسماء التفضيل مثل أزكى، وأنقى، وأشرف، وهذه الأسماء تدل على ثلاثة معان: الأولى: وهو الدلالة على أن شيئين اشتركا في صفة وزاد أحدهما على الأخر فيها.

ومن تنامي بوادر ومعطيات النضج والواقعية في منظور الشيخ الغزالي لشؤون المرأة وحرصه على تربية الأجيال المسلمة تربية صالحة بعده عن مجرد تكوين التركيب بين الصياغة الفقهية والمحكومة بضوابط ومحددات شرعية، وبين إملاءات وقائع اجتماعية تحفزت للبروز والتشكل بواسطة جملة مستجدات وظروف جمعت عدة عوامل في إفرازها وإظهارها على الصعيد الواقعي المتحرك، بل إننا نذهب إلى ابعد من ذلك لنقرر أن هذا المنظور الجديد للشيخ الغزالي المستند على دعامة تجربة حية لصيقة بوضع المرأة وظروفها المعيشية اليوم، كان في أصله ومكوناته منظورا مؤسسا على مرتكزات منهجية نابعة دون تعسف من طبيعة العقل المسلم المتمثل لمقاصد الشرع.

ثانيا: تظهر جمالية الأسلوب الذي اعتمده الغزالي في توصيف صورة المرأة بالتدليل على الصفة المثالية كقولهم: العسل أحلى من الخل والصيف أحر من الشتاء، والمعنى أن العسل زاده في حلاوته على الخل.

ثالثا: أن يراد به ثبوت الصفة لمحله،من غير النظر إلى مسألة التفصيل كقولهم، الناقص والأسح، اعدل بني مروان، أي هما عادلان و لا عدل في غيرهما، و في هذه الحالة " يجب المطابقة" وعلى هذا نقدم قول أبي نواس.

كأن صغرى و كبرى من فقاقعها * * * حصباء على أرض من ذهب[1].

فصغرى وكبرى هنا بمعنى صغيرة وكبيرة فهما عاريتان من التفصيل فالنص إذن يوظف مجموعة من العلامات اللغوية الدالة ليمتزج الحسي المادي بالمعنوي التجريدي عاجلا من الفكر أكثر جمالا وأسرع نفاذا عند المتلقي.

ولكي يمكن للنص أن يكون ذا وظيفة شعرية يتحتم أن تتوافر في النص نفسه كل العلامات المعينة التي تتيح إمكانية وبهذا يتضح ملمح آخر من الإيجاز الذي اعتمد إشراك أكثر من آلية جمالية وذلك اختزالا لتفاصيل كثيرة عن قصدية المعنى وانحصاره من ذهنية الغاية وهي صورة المرأة الكادحة العاملة العاطفة وهي صورة ذات معنى شريف وفعال والكلام عن دلالة النص بأقسامه المختصرة ولاسيما في آخرها:العاطفة دلالة على إنسانية صاحب النص،الذي يوظف مفردات ذات شحنة روحية وعاطفية وإنسانية، وعلى قول النفري كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة..."[2].

واستمرارا في عرض شواهد جمالية الإيجاز يقول الغزالي رحمه الله:" الرجل الكبير يحفظ شرفه، ويسفك في صيانته الدم والمؤمن الحر يحمي عرضه، ويبذل دونه الروح، وقد جاء في الحديث: إن الله يغار وإن المؤمن يغار، وغيرة الله أن يأتي المرء ما حرمه الله.

يبين الغزالي في هذا النص العلة التي يدعو فيها الناس إلى ضرورة اختيار السلوك الايجابي، وهو بذلك يقدم فلسفة في الحياة مفادها أن اغتنام الملذات لا يؤسس حضارة أو مجتمعا، فهي تلغي القيم الاجتماعية والثقافية اللذان تؤسسان أرضية كل مشروع اجتماعي، وكثير من الحضارات انهارت بفعل الترف واستبدال مسلم القيم والأخلاق والثقافة إلى الشهوات والترف، فالناس يجتمعون على الدنيا والمصالح الآتية، والتنعيم بهما، وهو يصور لكل ذلك بلغة استعارية مجازية تقدم على عرض هذه الحيثية الفلسفية عن طريق إيراد مجموعة من الجمل ذات الدلالة المركزة عبر نظام تركيبي يقوم على

1 - ديوان أبي نواس، ص40.

2 - ينظر: شرح محمود أفندي اصف: المطبعة العمومية، ط1، 1998 م، ص 196.

عنصر الإيجاز. ويستطرد الغزالي وهو بشرح ما سبق ذكره من معان في صورة أكثر جمالية وإيضاح بقوله: " وذلك العوج في الكون المستقيم على أمر الله هو الذي يجعل الأرجاء توشك أن تنتقض على العاصي فتخفي رسمه ووسمه"[1]، فهنا يبدع الغزالي بشكل جمالي في استقطاب انتباه المتلقي ويؤجج هذا الشعور عنده عندما يقابل بين صورتين الأولى إيجابية هادئة وادعة مطمئنة، والثانية ناقمة ساخطة مستهترة.

يقول الغزالي في موقف آخر: " أرأيت إن الحياة الدنيا تتحرك داخل إطار من الفناء، تنكمش حولها رويدا رويدا، وهي لا بد منقلبة إليه يوما .. ولكن كيف نجعل الناس يستعدون للبعث، وهم عنه في شغل، أو تكذيب، وما بعده هو الحياة كل الحياة، والحق كل الحق"[2].

ومما سبق ذكره يمكن الاستفادة من نمطين من الوصف في مقابلة الصورة بين الإحساس بالاغتراب والحزن، وهاتان الصفتان المتوازيتان على طريقة الضد، المتصلة بالضمير العائد على الدنيا والإنسان، وهو الهاء، حيث الاعتراف بشعرية النص والحد الأدنى من هذه العلامات، "وهو الذي نستقبله بوصفه الخواص الأساسية المميزة للنص"[3].

في القسم الثاني لقول الغزالي في توصيف الصورة المثالية للمرأة " لكانت صورة المرأة الكادحة العاملة وليست صورة هؤلاء النسوة اللاتي يغشين الأندية والملاهي ودور الغناء"[4].

هذا النص يجدد لنا الدور الكبير في تجسيد ظاهرة الإيجاز فهذه الجملة الشرطية توجز ما تفصل قبلها وتختصر ما سيأتي بعدها مستوعبة ذلك في جملة مكثفة تقبل الانفتاح على نفسها لعرض

1- محمد الغزالي: نظرات في القرآن، ط 5، د ت، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ص 101.
2 - المصدر نفسه، ص 100.
3 - محمد الغزالي: الإسلام والطاقات المعطلة دار الصحوة، القاهرة، 987، ص 144.
4 - المصدر نفسه، ص 144.

مزيد من الدلالات المرتبطة بها فضلا عما يسجّل من خلالها من أداء صوتي حققه حرف اللام متكررا ثلاث ولو كان...لكانت...لا... هؤلاء وجاءت هذه المفردات أو الحروف لإسناد وتركيب الموجز بتعزيز جماليته من خلال الصوت بما يحمله حرف اللام في قوله " لو كان" من إيقاع خافت يتناسب مع دلالة المعنى وهي أن الحديث عن المرأة يستدعى الخفوت وعدم الجهر والإعلام تقودان إلى الفكرة التي طرحها الغزالي بإيجاز، مبدعا شعرية وجمالية تؤثر في نفسية المتلقي كما لو أنها بؤرة، حيث استعارها لتكون تعبيرا مجازيا عن الدنيا التي تهفو إليها النفوس " والتربية المنشودة ليست دروسا تلقى، إنما هي جو يصنع وإيحاء يغزو الأرواح باليقين الحي والعزيمة الصادقة"[1] فتميز القيم والرؤى، وسبل الحق هو ما تؤكده رؤية الغزالي والذي أوجز من خلاله مجموعة من الأفكار الايجابية تتعلق بسلوك بني البشر وعقائدهم ودخلهم.

أما العنصر الثاني الذي دعا إليه الغزالي في ذلك النص ،فهو ضرورة التمركز حول المبدأ والرسالية والاعتبار من الأمم والحضارات القديمة،و في هذا النص الذي يتسم بالإيجاز الشديد ويحتكم إلى نظام تركيبي موجز ومكثف،أن صح التعبير،ترد ثنائيات أنطولوجية تؤكد استعمال النص على جمالية اللغة من جهة، واشتماله على مضامين فلسفية وأنساق ثقافية واسعة تقرأ من خلال سياق الكلام الذي يزخر بتلك المضامين ويمكن تلخيصها في الثنائيات التالية:

1. ثنائية الحق والباطل: " أما الطبيعة الإنسانية العامة، فهي لا تستغني عن مذكر دائم التنبيه إلى أن الآخرة حق، وأن الذهول عنها جرم وإن الانحصار في الدنيا غفلة ... وكم نحن بحاجة إلى صور منوعة تثبت في أنفسنا القيم الصحيحة للحياة والممات وما بعدهما"[2] .

1- المصدر نفسه، ص 109.

2 - المصدر السابق نفسه، ص 98

و الحق هو هوية وتراث الأنبياء والقدسيين والمستضعفين المتنورين، والباطل وهو العنوان الذي يجتمع حوله المتكبرون والظلمة وأعوانهم

2. كناية الموت والحياة : وترتبطان بفلسفة دينية وطروحات قرآنية تبناها العلامة الغزالي وتشبع بهما، فهو يجمع بين الثقافة الدينية والفكر العقلاني، أي أنه يجمع في فلسفته وفكره بين العقل والنقل وهو تكامل له جذور، التاريخ عند المعتزلة وإخوان الصفا والأشاعرة، حيث التراث حاضر في شعوره وذهنه، ومن هنا أمكن القول أن الغزالي يمثل تلك الفئة الدينية المتنورة المعتدلة التي تتجه إلى الحياة الحقيقية وهي الأبدية، التي تبدأ بالانفتاح على الرسالة والانتقال إلى عالم الملكوت عبر محطة البرزخ النورانية ويمكن للنص إذن أن يستمر بالانفتاح والاتساع انطلاقا من فئة من المضامين التي توفرت عليها شعرية الإيجاز.

3. ثنائية الإنسان بين الإيجابية والسلبية: فالأول اختار طريق الانفتاح والايجابية مع الله، ثم المجتمع، أما السلبي فهو الذي اختار طريق التقوقع حول الذات وعبادتها، وإلغاء الآخر بإشغاله تارة وإقصاءه تارة أخرى. ولكن هذا الإحساس بجمال اللغة عند الغزالي لا يقتصر على النظر إليها من زاوية واحدة، فأكثر من عامل شارك في إنتاج جمالية النص عند الغزالي لعل أهمها وجود عنصر التكثيف في إيصال الفكرة والاختصار في عدد المفردات المكونة للكلام عبر ظاهرة الإيجاز منصهرة في تركيب الكلمات الذي يحكم نظام الجملة.

ومن شواهد النهج على شعرية الإيجاز في إحدى خواطره قوله:" نعم: قد يقع في القرآن تفصيل بعد إجمال، أو تقييد بعد إطلاق، أو تخصيص بعد تعميم، بيد أن ذلك شيء غير الزعم بأن هناك آيات بطل حكمها أو وقف تنفيذها"[1].

1 - المصدر السابق نفسه، ص 229.

نجد إحساسا غامضا بأن شعرية ما تكتنفه تجعل بالإمكانية تحقيق صدى جمالي، لا يعرف أسبابه مع ما يقدمه من وضوح الدلالة التي يكتفيها. ولكن هذا الإحساس بجمال اللغة لا يقتصر على النظر إليها من زاوية واحدة، فأكثر من عامل شارك في إنتاج شعرية هذا الكلام، أولها عنصر التكثيف في إيصال الفكرة والاختصار في عدد المفردات المكونة للكلام عبر ظاهرة الإيجاز منصهرة في تركيب الكلمات التي يحكم نظام الجملة.

وعندما نتساءل ما هو العنصر الذي يجعل من هذا النص أو ذاك النص من النصوص أكثر جمالية، فإن علم الأدب يقرر أنه ليس في تصنيف الإنتاج الفردي بقدر ما هو في الإجراءات التي تتضمنها مع التأكيد على أن الشعرية والأدبية تحملان نفس المفهوم وهذا يؤكد لنا ضرورة الالتزام بالجملة كمفردة جوهرية في الخطاب أو جسدا كليا يتشكل من مجمل الإجراءات المقاربة للنصوص.

والإيجاز يحقق لنا شيئا آخر ألا وهو الالتفات وهو أسلوب آخره من أساليب البلاغة، ومظهر تركيبي آخر متمثلا بتغيير مواقع الألفاظ وإظهار ما يستحق التركيز عبر آلية التقديم والالتفاف حول المعنى الذي يراد الإشارة إليه ،فإذا حاولنا قراءة النص على فرض أن تكون في السياق العادي يمكن أن يصل الكلام إلى المعنى الأتي: إذا لم يكتب الإنسان الإرادة فلا مجال للمغامرة في وضوح مشاريع وأهداف وغير ذلك من السياقات التركيبية والأبنية النحوية التي يمكن أن تحمل المعنى نفسه ولكن ستفقد خصوصياتها الجمالية في التركيب.

ومن خلال هذا العدول في تشكيل سياق المفردات في الجملة، تتحرك فاعلية الإيجاز في الربط بني دلالة الكلي والجزئي في عبارات موجزة حيث تجمع بين المفاهيم و المضامين، فالجزئي هو عدم التركيز على عنصر الإرادة ، أما الكلي فهو عدم التخطيط لوضع مشاريع وأهداف وإذا أخذنا درس في الشعرية المطروحة هنا فان الملمح الملائم للشعرية هو الكثافة في طرح الأفكار والدلالات بأكبر قدر من الاختصار لإيجاز الفكرة، وهذا يؤكد لنا القول الذي يذهب إلى أن خط التطور البارز في الشعرية

العربية المعاصرة يتمثل في التقلص المتزايد للأساليب التعبيرية و هذا يستدعي توظيف آلية التأويل التي تنفتح على الدلالة.

وقد أصبحت نصوص الغزالي من خلال أسلوب الإيجاز والتكثيف ذات قيمة خاصية هي ذاتها خاصية الأمثل و الحكم حيث الانفتاح على الاستعمال ثم الانتشار.

المبحث الثاني : جمالية التقديم و التأخير

إنّ قضية التقديم و التأخير في بناء اللغة هي من أكثر القضايا التركيبية ظهورا في الإفصاح عن الجهد الذي بذله الكاتب أو المفكر وذلك من أجل العدول باللغة عن كينونتها المتمثلة في الأساليب التقليدية التي لا تخرج اللغة إلى فضاء التمييز والجمال مما يعرف عند النقاد بشعرية كبير النظام أو خرقه ، و ذلك لخلخة في بنية التموقع الجمالي وظاهرة الجمل الاعتراضية هي إحدى تجليات هذه الخلخلة في بنية الكلام أو قل هي نوع من أساليب الالتفات التي أشرنا إليها في مبحث جمالية الإيجاز.

فالتقديم و التأخير كسمة أسلوبية في نصوص الشعرية والنثرية قد تحدث عنها البلاغيون القدامى، و فصلوا القول في تحديد مواطنها التركيبية والجمالية وما يترتب عليها في تحديد إعادة أو إساءة في النظم فابن قتيبة مثلا وهو يتحدث عن الآداب التي تقتضي من الكاتب الالتزام بها في مدونته الشهيرة أدب الكاتب يقول وهو يوجه النصح للكاتب: نستحب له أن استطاع أن يعدل بكلامه عن الجهة التي تلزمه مستقل الأعراب ليسلم من اللحن و القباحة والتقعير،وهذا النص إشارة واضحة إلى ظاهرتي التقديم والتأخير وكيفية توظيفهما أسلوبيا في عملية التراكيب المختلفة للجملة الواحدة.

أما قدامة بن جعفر337 فهو يجعل التأخير والتقديم " عيب من العيوب التي تلحق الشعر وتهجنه، ولم يذكره في كتابه " نقد الشعر " كوسيلة أسلوبية تستخدم لتحسين الكلام وتنميقه،بل اكتفى بفعل الاستهجان، وجعل تلك الظاهرة عيبا من عيوب الأسلوب والتركيب لقول ابن قدامة، أن تكون أوضاع الأسماء والأفعال والمؤلفة منها وهي الأقوال،على ترتيب ونظام لم يظهر الوزن إلى تأخير ما يجب تقديمه،و لا إلى تقديم ما يجب تأخيره منها ".

أما أبو هلال العسكري فقد فصل القول في التقديم والتأخير دون أن يعين له فصلا خاصا في كتابة الصناعتين، حيث بدأ بالحديث عن أخطاء المعنى وعلتها بقوله: والمعاني بعد ذلك على وجوه

منها ما هو مستقيم حسن كقولك: قد رأيت زيدا، ومنها ما هو مستقيم قبيح نحو قوله: أي قد استقام الكلام تركيبا و سلم من الناحية اللغوية من حيث التزامه بقوله على التركيب ،لكنه قبحه من ناحية المعنى والدلالة،و قد رد العسكري ذلك إلى التقديم والتأخير بقوله،لأنك أفسدت الكلام بالتقديم والتأخير أي نظام المعنى أو التركيب.

وهنا نجد أن العسكري يضع قاعدة معنى التراكيب أي توظيف النحو من الوجهة البلاغية وهذا ما سوف يستدركه عبد القاهر الجرجاني في مؤلفة دلائل الإعجاز،فالعسكري يحكم الذوق في الحكم على سلامة المعنى،بعيدا عن البنى النحوية التركيبية ويقول العسكري:" وينبغي أن ترتب الألفاظ ترتيبا صحيحا، فتقدم منها ما كان يحسن تقديمه ،و تؤخر منه ما كان يحسن تأخيره،و لا تقدم منها ما يكون التأخير به أحسن ،و لا تؤخر ما يكون التقديم به أليق"[1] ، وهنا إشارة واضحة من العسكري إلى ضرورة استخدام الكلام على النسق المعتاد ،أو ما ألفته العرب، أي ضرورة التقييد بعادات اللغة والأسلوبية عند العرب، يقول:" فتقدم منها ما كان يحسن تقديمه ،فالمبتدأ مقدم والفاعل مقدم وصاحب الحال مقدم عليهما، وتلك هي أوجه الكلام الفصيح فلا حاجة إلى التقعيد والألغاز في التركيب باستخدام التقديم والتأخير".

...أما في قضية النظم أو ما يسمى حسن الوصف وسوءه فنجد أن العسكري يقول: "وحسن الوصف أن توضع الألفاظ في مواضعها وتمكن في أماكنها، ولا يستعمل فيها التقديم والتأخير، والحذف والزيادة ،إلا حرفا لا يفسر الكلام ولا يعني المعنى، ويضم كل لفظة منها إلى شكلها وتضاف إلى لفقها، وسوء الوصف تقديم ما ينبغي تأخيره منها وصرفه عن وجوهها ، وتغيير صيغتها، ومخالفة الاستعمال في نظمها" [2]، هذا النص يؤكد أن النقاد القدامى وعلى رأسهم العسكري قد تطرقوا إلى ظاهرة التقديم والتأخير ودورها في إضفاء جمالية على النصوص ويجعل حسن النظم أن تأتي الألفاظ التي تكون التركيب على النسق المعهود نحويا وضرورة الالتزام بالقواعد التركيبية

1 - قدامة بن جعفر: نقد الشعر ، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1958، ص 100.

2 - المصدر نفسه، ص 102.

التي وضعها النقاد العرب،و لا يستعمل فيها في أي تقديم أو تأخير أو حذف أو زيادة إلا بشروط معينة، كعدم إفساد الكلام.

إن ظاهرة الجمالية تتولد من خصوصيات يمتاز بها البناء اللغوي ، حيث في الحقل الأدبي يتم التركيز على مستويات اللغة: الصوتي والتركيبي والأسلوبي، والإيقاعي والدلالي، وبذلك تتحقق تلك المستويات من خلال بنية خاصة، وسياقات محددة، وذلك عبر الأثر، حيث يتم دمج التركيبة في عملية أسلوبية كالايجاز والحذف والخبر والإنشاء أما على مستوى التركيب فيقع انزياح دلالي للألفاظ، وتتعدد تلك المعاني الجزئية، لتصل إلى المفهوم العام عبر بنيوية موضوعاتية[1] .

تأطير وضعية النص:

يقول الغزالي: "إذا دهمتك شدة تخاف منها على كيانك كله، فما عساك تصنع؟ تدع الروع ينهب فؤادك، والعواصف الجائحة ترمي بك في مكان سحيق، أم تقف مطمئنا، وتحاول أن تتلمس بين هذه الضوائق مأمنا يهديك إليه الفكر الصائب"[2].

هذا النص يفاجئنا بجماليته التعبيرية و الصورية، وهو بناء مفتوح على الدلالة، النص ابتدأ ولما ينتهي كحركة وفضاء. إن قراءة متأنية للنص تشكل عملية ضرورية لمقاربة أي نص، وأن الكشف عن الدلالة النصية، لا تكون إلا من خلال بنى وعلامات، وتنشأ من خلال وحدات دلالية يمكن التقاطها في كل وحدة أو جملة ، أو بين الوحدات الصغرى والكبرى، وعلى مختلف المستويات.

إن الكشف عن العلامات الجمالية تتحقق في مستوى دراسة العلائقية مع علاقة تعارض وتضاد إضافة إلى تراكيب تحمل تلميحات وتضمينات[3].

1 - نبيل أيوب، الطرائق إلى نص القارئ المختلف، دار الأهلية، بيروت، ط1، ص65.
2 - محمد الغزالي: جدد حياتك، ط2، دار النهضة، مصر، القاهرة، 2004، ص 24.
3 - ينظر : نبيل أيوب، (مرجع سابق)، ص 66.

وإذا أردنا أن نتوقف عند ظاهرة التنسيقات الصوتية والهندسيات الموسيقية والتوازيات والدلالات النامية والتكرارية والترجيع والتداخل والتكثيف اللفظي لتطلب منا ذلك عدة دراسات.

و يمكن أن مقارنة النص السابق من خلال مقاربة لسانية بنيوية التي تتميز بغياب العناصر عند حضور عنصرها.

والتحليل الألسني البنيوي يركز على العلاقات الترابطية و الاستبدالية الأولى ذات طبيعة أفقية حضورية، والثانية ذات طبيعة عمودية غيابية ، والغياب هو الذي يوحد بين الأجزاء والمعاني المتجسدة في النص والخاضعة لقانون التداعي مما يسمح للعلاقات الاستبدالية بتوليد المعاني من الفجوات والثغرات وهذا ما يطلق عليه الواحد / التعدد[1].

و قد أشار ابن خلدون[2] إلى ظاهرة الإيجاز في اللسان العربي، فقصدية اللغة تحتم على المبدع الاقتصاد في الكلام، ذلك أن تكرار العبارة هو الذي يؤدي إلى شيء للملكة اللغوية،فالدلالة يمكن أن تخلق من غير الألفاظ ، أي يمكن أن تأتي من خلال الحركات النحوية التي تحدد الدلالة الوظيفية لكلام في الجملة، و السياق أيضا يرسم لنا الدلالة فاللفظ في سياق معين يؤدي إلى معنى غير الذي وضع في سياق و مقام آخر، و كان الرسول صلى الله عليه و سلم يقول: " أوتيت جوامع الكلم و اختصر لي الكلام اختصارا"[3].

1 - انظر: نبيل أيوب: الطرائق إلى نص القارئ المختلف، دار الأهلية، ط1، ص67.

2 - ابن خلدون : المقدمة، دار التراث، القاهرة، 1975، ص 276.

3 - الإمام مسلم: الصحيح، ص 300.

فالإيجاز من خلال الحديث الشريف السابق، هو الحصول على المعنى من دون الالتفات إلى أصل اللفظ، أو كما عرفه السكاكي "هو أداء المقصود من الكلام بأقل عبارة متعارف الأوساط [1]، أما ابن الشجري فهو يري أن الحذف اختصار من أفصح الكلام العرب، لأن المحذوف كالمنطوق به من حيث كان الكلام مقتضيا له"[2] فعلة الحذف إذن الصاحبة التي يكتسبها الكلام بعده.

والواقع أن ظاهرة الإيجاز من القضايا البلاغية و الأسلوبية المعقدة التي التفت إليها النقاد المحدثين و القدامى، وذلك لارتباطها بعدة حقول معرفية كالبلاغة والنحو واللسانيات والأسلوبية ذلك أنها " لا تتعلق بالقلة والكثرة في معناها الكمي الخالص، فالقليل من اللفظ والكثير من المعنى صفتان نوعيتان ترتبطان تحديدا بخصوصية العلاقة القائمة بين مكوني العلاقة اللغوية، وهي علاقة يعد لها التضاد، ويراد منها تحقيق معادلة صعبة لا تتأتى إلا للبليغ الخبير بطرائق استثمار الطاقة الايجابية للغة، ولولا أهمية الإيجاز بما هو قاعدة مركزية حاضنة لعلاقة اللفظ بالمعنى في تصوير العرب للبلاغة الأنموذج، لما اهتم بهما الجاحظ ببالغ الاهتمام، ولما جعلهما قرينا البلاغة في عنوان رسالته البلاغة والإيجاز فكان الإيجاز لديه من أبرز مرتكزات، البلاغة[3].

والحذف يتعلق باللفظ فيه ثم حذف تخفيفا و قطع منه، في حين أن الإضمار يمس ما لم ينطق به ثم حذف و لكنه مضمر في النية، مخفي في الخلد[4]، كما يجب أن نحدد أضرب الإيجاز التي حددها القزويني بضربين: "الإيجاز القصر و ما هو ما ليس بحذف كقوله تعالى:" ولكم في القصاص حياة"، فإنه لا حذف فيه مع أن معناه كثير يزيد على لفظه، لان المراد به أن الإنسان إذا علم أنه متى قتل قتل... ذلك داعيا له قويا إلى أن لا يقدم على القتل، فارتفع بالقتل، الذي هو القصاص، كثير

1- السكاكي: مفتاح العلوم، ضبطه وكتب هوامشه و علق عليه زرزور، دار الكتاب، ط2 ، بيروت 1987، ص 277.
2 - المصدر نفسه، ص 278.
3 - أحمد الورداني: قضية اللفظ و المعنى و نظرية الشعر عند العرب دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2004، ص798.
4- المرجع نفسه، ص 799.

من قتل الناس بعضهم لبعض، فكان في ارتفاع القتل حياة لهم ، ثم الحذف والمحذوف إما جزء جملة أو جملة أو أكثر.

ومن البلاغيين من يرى أن الإيجاز الخالي من الحذف ثلاثة أقسام أحدهما إيجاز القصر وهو أن تقصر اللفظ على معناه كقوله تعالى: « إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ -أ َلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ »[1]، فقد جمع الهدهد رسالة سيدنا سليمان عليه السلام إلى بلقيس ملكة سبأ مقاصد الثلاثة:" العنوان، والكتاب والحاجة، والثاني إيجاز التقدير ،وهو أن يقدر معنى زائد على المنطوق وسمي بالتضييق أيضا، لأنه نقص من الكلام ما صار لفظه أضيق من معناه نحو: " فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىَ فَلَهُ مَا سَلَفَ"[2]، أي خطاياه غفرت فهي لا عليه، والثالث الإيجاز الجامع، وهو أن يحتوى اللفظ على معان متعددة نحو: " إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ "[3]فالعدل هو الصراط المستقيم المتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط ،مما يشير إلى جميع أنواع الواجبات في الاعتقاد والأخلاق والعبودية والإحسان هو الإخلاص في واجبات العبودية لتفسيره في الحديث بقوله: « أن تعبد الله كأنك تراه»[4] أي تعبده مخلصا في نيتك وواقفا في الخضوع .

أما ابن الأثير فهو أول من ذهب إلى الجمع بين سياق الحذف بسياق الإيجاز،كما ربط في سياق الذكر بسياق الإطناب[5]، و الجاحظ له في الإيجاز البلاغي رأي خاص، وهو يراه من خلال نموذجين أولهما: الحذف،وثانيهما الجمع والتكثيف ويتمثل في شحن الكلمات بمعان تربو على طاقتها

1- النمل 29 .
2- البقرة 275.
3- النحل 90.
4- حديث قدسي، رواه الإمام البخاري.
5- ينظر : محمد عبد المطلب، البلاغة و الأسلوبية، (مرجع سابق)، ص 7.

العادية ، دون الاعتماد في ذلك على غير الألفاظ الموجودة في النص، والقارئ مطالب بالاكتفاء بالألفاظ المعروضة عليه دون السعي إلى اكتشاف الألفاظ التي قد يظنها محذوفة أو مقدرة [1].

و الإيجاز عكس الإطالة والاستطراد وهما نوعان من التكلف والتصنع عكس الطبع ، حسب ما يرى بعض النقاد[2] في أن الإطالة في الكلام لا تتم إلا بالتكليف والصنعة كما تنص على ذلك نظرية الجاحظ نفسه، فإن القول بالإطالة يصبح مرادفا للمنقول بالصناعة في العنونة بين الإيجاز ، فيصبح معناه الطبع وعدم التكلف . وحث العرب على ترك الإطالة فيكون حينئذ مراده تحريضهم على عدم التماس الصناعة وتعاطيها [3] .

فالجاحظ إذن يضع تصورا متميزا عن علاقة اللفظ بالمعنى ، من خلال قاعدة الإيجاز مشكلة من ضدية الاقتصاد في اللفظ و الكثرة في المعنى تحقيقا للفائدة و المنفعة[4] .

إن حذف سمة، من سمات البلاغة عند العرب، هي ليست أمرا دخيلا، بل هي ظاهرة تتطلبها السجية و التورية ، و يفرضها منطق التعامل مع الألفاظ... وفن يزيد النص حسنا، يضاف إلى ذلك أنها ظاهرة تجنب الثقل الذي يسببه التقاء الساكنين أو عدم تجانس الحروف ،كما يعد الحذف ضروريا و بخاصة في حالة طول العنصر القوي ، أي طول الجملة التي تبين خللا وتكرارا ، مفيدين، كما أنه يساعد على الفهم السريع للمعنى، ويجعل القارئ في اتصال دائم بالعناصر الأخرى المكونة للجملة ، فيسهل عليه الربط بينهما، فله إذن دور مهم في الوظيفة الإبلاغية والاتصالية[5] .

1 - محمد الصغير بناني: النظريات اللسانية و البلاغة الأدبية عند الجاحظ من خلال البيان و التبيين، ص 265.

2 - المرجع نفسه، ص 265.

3 - المرجع السابق نفسه، ص 155.

4- انظر: أحمد الورداني : قضية اللفظ و المعنى و نظرية الشعر عند العرب، (مرجع سابق)، ص 791.

5- زغودو ذياب: دلالة الحرف في القرآن الكريم مجلة الأثر، ع4، جامعة ورقلة، ماي 2005، ص 126.

إن الحذف هو عملية تخييلية أيضا، وهو يأخذ أهميته من حيث أنه يجعل الذهن يتخيل ما هو مقصود ، و هذه العملية ، أيضا التخيل يؤدي إلى التفاعل بين المبدع والمتلقي، حيث يكمل هذا الأخير ما حذف من الكلام و هكذا ساهم في إنتاج المعنى.

و يجب أن لا يكون الحذف مخلا بالمعنى أو مفسدا للتركيب:« لذا لابد أن يتأكد المرسل من وضوح المحذوف في ذهن المتلقي وإمكان تخيله [1] والحذف إذن ليس خاصة أسلوبية لتنميق الكلام أو إبراز القدرة على التركيب و التألق، فالأساس العام للمعنى والحذف ينطلق من المساحة الفنية للمعبر في استخدام هذا النسق من الأداء بحيث يكون العدول عنه إفسادا له»[2].

إن ظاهرة الحذف تستدعى ملاحظة أهم العناصر التي تشكل في معظمها جزءا كلاميا مثل عناصر التركيب الذي يقع فيه الحذف والعلاقة بين العنصر المحذوف والعناصر القائمة تركيبيا ودلاليا، ثم قدرة المخاطب على إدراك العنصر المحذوف إدراكا تقديريا بقربه السياق بطبيعة الحال والمغزى المراد من هذا الحذف قصد المتكلم من الحذف أو الغرض الذي يرمي إليه من خلال هذه العملية التقنية الكلامية المستعملة، ثم أخيرا الموقف الكلامي من أي سياق أو المقام الذي يجبر صحة التركيب الواقع فيه الحذف أو عدم صحته.

وقد يتعدى الحذف كل تلك العناصر الذي ذكرها الناقد محمد الأمين خويلد في أطروحته حول الحذف في القرآن، إلى ضرورة ارتباط النسق الكلامي بالصياغة الفنية فلزوم الحذف يكون من أجل الكلام لا من حيث غرض المتكلم به، أي في صميم التركيب النحوي وذلك من أن يكون المحذوف أحد جزئي الجملة نحو قوله تعالى: « فصبر جميل »، فهنا لا بد من تقدير المحذوف فيكون

1 - فتح الله أحمد المرسلي : الأسلوبية، (مرجع سابق)، ص 137.

2 - محمد عبد المطلب : البلاغة و الأسلوبية، (مرجع سابق)، ص 313.

في تعدادها طول وسامة ، فيحذف ويكتفي بدلالة الحال، وتترك النفس تجول في الأشياء المكتفى بالحال عن ذكرها[1] .

صيانة المحذوف عن الذكر مقام معنى تشريف له: و يبرز هذا النوع في عملية إسناد الفعل إلى نائب الفعل و الاستنكاف عن إيراده في السياق اللفظي أو غيره.

كما أشار عبد القاهر الجرجاني إلى أغراض الحذف في قوله: عندما بين « أن أغراض الناس تختلف في ذكر الأفعال المتعدية يذكرونها تارة و مرادهم أن يقتصروا على إثبات المعاني التي اشتقت للفاعلين من غير أن يتعرضوا لذكر المفعولين...».

أغراض الحذف:

المقصود بأغراض الحذف عند أهل البلاغة و هي الأهداف التي من أجلها، سيعمل أهل اللغة الحذف،لأن معرفة هذه الأغراض له أثر في الوقوف على المعنى، وأغراض الحذف متعددة ، وقد يعزى الحذف في موضوع واحد أكثر من غرض، وعليه فيما يلي ذكر بعض أغراض الحذف.

الإيجاز والاختصار في الكلام: إن الحذف في التراكيب نتج عن رغبة المتكلم في الإيجاز والاختصار ذلك أن الإيجاز ، فضلا بما فيه من تخفيف يكسب العبارة قوة ....وثقل الاستطالة[2].

1.الاتساع: وهو من الحذف والاختصار، لكن ينتج عنه نوع من الإعجاز بسبب نقل الكلمة من حكم لها إلى حكم ليس بحقيقته فيها، ومثاله قوله تعالى: "وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ"[3] فالتقدير، اسأل أهل القرية، وقد فسر ابن نبي كيف يقضي هذا الحذف إلى الاتساع، لأنه استعمل لفظ السؤال مع ما لا يصح في الحقيقة سؤاله الأشخاص وأعطى نوعا من التوكيد، فظاهر النص

1 - جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، دار التراث، القاهرة، 1990، ص 225.

2 - رسالة ماجيستير بعنوان: الإيجاز في الشعرية العربية نوقشت في جامعة باتنة من إعداد الطالب يوسف بديدة و إشراف محمد منصوري، 2008 -2009.

3 يوسف 82 .

يدل على إحالة السؤال على من ليس من عادته الإجابة [1] ، لأن إخوة يوسف يريدون تثبيت قولهم بأن حتى و لو سأل أبوهم .....لا نأبه بصحة قولهم[2] .

- التفخيم و الإعظام لما فيه الإبهام: يرى السيوطي "بأن الحذف الحسن لقوة الدلالة عليه، أو تقصيد بعد تعداد أشياء".

إن ظاهرة الجمالية تتولد من خصوصيات يمتاز بها البناء اللغوي، حيث في الحقل الأدبي يتم التركيز على مستويات اللغة: الصوتي والتركيبي والأسلوبي، والإيقاعي والدلالي، وبذلك تتحقق تلك المستويات من خلال بنية خاصة، وسياقات محددة، وذلك عبر الأثر بإتاحة التركيبة في عملية أسلوبية كالإيجاز والحذف والخبر والإنشاء أما على مستوى التركيب فيقع انزياح دلالي للألفاظ، و تتعدد تلك المعاني الجزئية، لتصل إلى المفهوم العام عبر بنيوية موضوعاتية[3] .

1 - ينظر: ابن جني: الخصائص ، تحقيق محمد النجار دار الكتب، القاهرة ، 1952-1956 ، ج2، ص 273.

2 - المصدر نفسه، ص 273.

3 - نبيل أيوب : الطرائق إلى نص القارئ المختلف، مرجع سابق، ص65.

المبحث الثالث: التمثيل و الاستشهاد

ومن اللوازم الأسلوبية للغزالي الإكثار من الشواهد القرآنية والأحاديث الشريفة ومأثورة القول، وحتى الشعر الحديث ومأثورة القول وحتى الشعر الحديث،و هو يهتدي إلى كل تلك الاستشهادات من خلال عين بصيرة، وذوق رفيع حيث يضعها في سياقاتها المنافسة، فيتحقق بذلك الانسجام والجمالية والتوافق، وكانت تلك الشواهد جزء من قطعة نسيج النثر الذي يحكيه كما أنه يحسن انتقاء الشواهد القرآنية وهي تضفي على النص قوة في المعنى ، وإنما جاء في التركيب نجد ذلك في قوله رحمه الله "حسب أحدهم من هذه الأرض أن تكفل ضروراته ورفاهيته، ولا شيء بعد " أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى - أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى "[1].

وقوله: "ومع ذلك فإن الأمر اقتضى زجرا لأعداء الدعوة، وتخويفهم بما أعد الله لهم يوم اللقاء،"كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَنْ بِالنَّاصِيَةِ- نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ - فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ -سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ "[2] ثم يعلق على هذه الآيات الشريفة بقوله :"وإذا ألقينا نظرة ثانية على السورة الثانية التي نزلت من الكتاب العزيز سورة المدثر وجدنا جملة من العناصر مؤلفة على نسق آخر: العقيدة والدعوة ومعالم لمجتمع الثانية وجهاد النفس، وجهاد الناس وتحريك الحياة كلها تعمل لربها، وتستمد منه وحده وتستعد للعبادة أخيرا[3] " يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ - قُمْ فَأَنذِرْ "[4].

أما في مقام آخر فنجد أن الغزالي يحسن توظيف الحديث، يقول في مؤلفه الشهير جدد حياتك " إن نبي الإسلام لما قال للسائل عن البر: استفت قلبك وإن أفتوك الناس" لم يقدم هذا لجواب هدية لمجرم يستبيح الدماء و يغتال الحقوق، و ما أكثر الذين تتسع ضمائرهم للكبائر"[5] .

1- العلق، 13 و 14.

2 - العلق، 15.

3 - محمد الغزالي ،الدعوة الإسلامية في القرن الحالي، دار الشروق، (مصدر سابق)، ص8.

4- المدثر، 1 و 2.

5 - صحيح مسلم، ص 80.

وفي نفس المدونة نجد قوله " والظروف الباسمة أو الكالحة التي تلتف حواليك، هي وحدها الدعائم التي يتمخض عنها مستقبلك ،فلا مكان لأخطاء أو انتظار [1]، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل"[2] هذا في باب تعرضه إلى ضرورة أن يجدد الإنسان حياته، فالحياة تبلى كما يبلى الثوب وعلى المرء أن يجدد ذلك الثوب، أو تلك الحياة بالتفاؤل والأمل والعودة إليه وتجاوز السلبيات وأن يعيد بناء نفسه على أشعة من الأمل، إضافة إلى استشهاده بالنصوص الدينية والحديثة، نجد أن الغزالي استعان بمجموعة من الاستعارة وذلك وفق السياقات والمقام ويكاد يحصر مدة الاستشهادات بالشعر العربي القديم وذلك لشدة حضوره في الوجدان والأثر الذي يتركه في النفس العربية.

يقول الغزالي:" إن الدين في حظره للإسراف وحبه للاقتصاد إنما يؤمن للإنسان على مستقبله، بالأخذ من صحته لمرضه، ومن شبابه لهرمه،و من سلمه لحربه، كان سفيان الثوري من كبار التابعين، وكانت له ثروة حسنة، وكان يشير إليها ويقول لولده: لولا هذه لتمندل بنا هؤلاء- يقصد بني أمية، يعني أن غناه حماه من حكام زمنه ،فلم يحتج إلى مداهنتهم أو تملقهم والواقع أن ذلك مسلك يعين على بلوغه إحسان العيش في حدود اليوم، فإن الحاضر المكين أساس جيد لمستقبل ناجح، ومن ثم يجب نبذ القلق قال الشاعر:

شهدت أعين و نامت * * * في شؤون تكون أولا تكون

إن ربك كفاك بالأمس ما كان * * * سيكفيك في غد ما يكون

أتدري كيف يسرق عمر المرء منه؟ يذهل عن يومه في ارتقاب غده و لا يزال كذلك حتى ينقضي أجله، ويده صفر من أي خير .

1 - محمد الغزالي: جدد حياتك، دار الشروق بيروت ط 9، سنة 2004، ص4.

2 - صحيح مسلم: ص300.

ينتقد الغزالي في هذا النص النثري، استكبار بني أمية[1] وتسلطهم على العبادة وأن الإنسان عليه أن يغتنم قواه و آرائه.

من أجل ذاته ومن أجل الصالح العام، وأسلوب النص يتجلى فيه الوضوح والبساطة والكثافة، وهي كل عناصر توفر عنصر الجمالية، من جهة تترك أثرا في النفس والوجدان، وهذا هو هدف الجمالية أو الشعرية أن تترك أثر ذلك. إن النص له وظيفة إبلاغية ووظيفة جمالية، فاللغة ليست فقط هي جوهر وهي الذات ،بل هي وسيلة لإبلاغ رسالة للمتلقي ذات مضمون وقد وظف الغزالي الشعر ،فإذا كان النثر يخاطب العقل من خلال المباشرة وتحريك قوى الذهن، فإن الشعر يحرك الوجدان والعاطفة والخيال والإحساس، يقول الغزالي:" و في أدب العرب ذخائر لا تحصى من شجاعة الرجال في استقبال المحن ومن حرصهم على الخروج عنها مخرجا لا يخدش المروءة والشرف ولا ننسى أن نذكر هنا أبيات ثابت بن زهير الملقب بتأبط شرا"[2]

إذا المرء لم يحتل و قت جده *** أضاع و قاسى أمره و هو مدبر

ولكن آخر الخرم الذي ليس نازلا *** به الخطب إلا و هو المقصد مبصرُ

فذاك قريع الدهر، ماعاش حولَ *** إذا سدّ منه منخر جاس منخر

وتأبط شرا يعتقد أن شر آثاره القلق تبدده القدرة على التركيز الذهني، ففي حالة القلق تتشتت الأفكار، ويعجز العقل عن جسم تلك المشكلات واتخاذ قرار فيها، وإذا قصر الإنسان المشكلات على مواجهة أسوأ الاحتمالات، فإنه سيكون قابلية لتحمل أي نتائج، والنفاذ إلى صميم الواقع وأمكنه الخلاص منها، وذلك أن الإنسان الذي يضبط أعصابه أمام الأزمات، ويتسلح بإرادة والتبصر فيها حول ما سيحقق من نتائج ايجابية.

1 - محمد الغزالي: جدد حياتك، (مصدر سابق)، ص22.

2 - المصدر نفسه، ص 24.

و تأمل في قول شاعر آخر:

أقولها و قد طارت شعاعا *** من الأبطال و يحك لن تراع

فإنك لو طلبت بقاء يوم *** على الأجل الذي لك لن تطاع

إن هذه الأبيات تصوير فني، وهو يحوي جمالية في التركيب والإيقاع، وانتقاء الألفاظ التي تملك شاعرية والإيحاء وهو موقف ايجابي للرجولة أمام النوازل العصبية[1]

ولم يمنع تدين الغزالي من الاستعانة بآراء فلاسفة الغرب في معظم كتاباته و هي سمات الفكر المتنور العقلاني، يقول الغزالي:" و قد نقل لنا "ديل كارينجي" هذه النصائح أعدوا أنفسكم لتقبل الحقيقة فإن التسليم لما حدث هو الخطوة الأولى في التغلب على المصائب وهذه الحكمة لوليام جيمس فسرها الفيلسوف الصيني: لين يوتانغ لقوله:إن الطمأنينة لا تأتي إلا مع التسليم بأسوأ الفروض، ومرجع ذلك من الناحية النفسية أن التسليم يحرر النشاط من قيوده"[2] .

شعرية اللفظ في نصوص الغزالي:

تحمل مفردات اللغة طاقة ايجابية،ذات دلالات متنوعة، تترك في نفس القارئ أثرا فنيا ايجابيا أو مثل اللذة كما عبر رولان يارث، حيث تتحول المفردة في النص النثري إلى مفردة شعرية،لها من الإيحاءات و الظلال و المجاز كأنها في مقطوعة شعرية، و تقدم للمتلقي رسالة الكاتب النثرية في سياق شعري.

ومن هنا بدأت الأجناس الأدبية تتداخل فيما بينها وتواصل الشعر مع النثر، ولم يعد ذلك التمايز الذي عهدناه في النظرية الكلاسيكية للأجناس الأدبية، وأصبح النص النثري يحمل مفردات

1 - انظر: محمد الغزالي : جدد حياتك، (مصدر سابق)، ص 25.

2 - أنظر محمد الغزالي: جدد حياتك، (مصدر سابق)، ص 26.

ولغة هي أقرب للشعر ، سواء من حيث الأثر النفسي أو الدلالة التي يوظف المبدع لغة في نصه من خلال أسلوب التكثيف والمجاز والاستعارة فقليل من المفردات ولكن اتساع في المعنى.

واللغة في النص النثري عند الغزالي ، تأخر معاني متسعة ودلالات متنوعة ويحمل الكاتب انفعاله وتجربته،و هذا يؤدي إلى تجلي الشعرية في المفردة ، حيث تكون الدلالة مستوحاة من خلال السياق، وتؤدي الوظيفة التي أرادها المبدع.

ونلاحظ ذلك في كتابات الغزالي من خلال عتبة العنوان فالعنوان عنده جاء بمثابة المفتاح الذي يفك شفرات النص فالعنوان يشكل العتبة الرئيسية لفهم النص.

ومن عناوين الكاتب، نصه المعنون بـ فن الذكر " والدعاء عند خاتم الأنبياء"، حيث يشكل العنوان الخطوة الأولى لفهم ما جاء في النص المدونة فالعنوان الذي تبنى به نموذجا للمقاربة، تحمل دلالات متعددة، حيث يبدأ المتلقي برسم صورة شاملة عن المدونة، ذلك أن العنوان يعبر عن أحاسيس المبدع وتجربته، كما يخمن عن أهم التساؤلات التي تجرى في ذهن المتلقي عن ذلك العنوان؟ ما هي تلك الركائز، وما هي حقيقة الإيمان؟ وما علاقته بالعقل وما دور القلب في تحصيل ذلك الإيمان، أنها مجموعة الأسئلة التي تدور في ذهن القارئ؟.

فالعنوان إذن كان حافزا في شحذ ذهن المتلقي وبكل تلك الإيحاءات والصور والتساؤلات وتلك الأسئلة تجعله مشاركا ايجابيا في إنتاج دلالات ذلك النص، فالمبدع يطرح عنوانا عن قصدية وليس اعتباطية، أنه ينتقي الألفاظ التي تحمل دلالة وأثرا وإيقاعا في نفسية المتلقي، فالمتلقي أصبح له دور في عملية إنتاج المعنى أصبح متشاركا في خلق النص ذاته.

و يمكن القول أن الغزالي جعل للعناوين فاعلية كبيرة في صنع المعنى، فنجد أن العنوان عنده، يتخذ طابعا متميزا يمكن أن نطلق عليه طابع التحفيز، ذلك الطابع يقود القارئ لكي يستثمر في ذلك النص،فتكون عملية القراءة المتعددة ثانية في الإبداع آخر للنص.

ومن عناوينه الأخرى نص هموم داعية، وهنا نجد أن العنوان يكتسب سيميائية خاصة، حيث أصبح يكشف عن نفسية الكاتب و همومه و أن الموضوع زاخر بطابع الجدية والصراع.

ذلك أن الدعوة إلى الرسالة أو الفكرة، تقتضي مواجهة الآخرين، وأن ثمة عقبات في نشر تلك الرسالة، و أن ثمة هموم و آلام في طريق تلك الرسالة وتلك الأفكار، فالعنوان يوحى لنا بكل تلك الدلالات و التصورات التي يجمع بين مقصدية الدعوة وأهدافها، وأن طريقها هو طريق هموم وأشواك،و هنا نجد أن العنوان يخلق تواصلا حميميا بين النص والمتلقين بل قل تعاطفا مع النص أو صاحب النص.

فلفظة هموم تحمل عدة دلالات متعددة مثل الحركة والقلق، والألم، والداعية كلمة يوحى لنا بكل معاني السمو والخير والرفعة، وجاء العنوان إذن بهذه المفارقة العجيبة، حيث يجمع بين ضدين أولهما يدل على القلق والألم واللفظة الثانية تدل على الوقار والسكينة والتفاؤل، وهذا يدل دلالة واضحة على الصراع والاضطراب الذي يشعر به الكاتب، أن العنوان معبر كل التعبير عن تلك الأزمة النفسية التي يعيشها والاضطراب الموغل في الألم ،فالعنوان إذن كان صادقا في التعبير عن ما يدور في خلج الكاتب.

و في اعتقادنا أن الكاتب أراد من خلال وضعه لهذا ومن خلال وضعه لهذا العنوان لكي يشارك المتلقي في تجربته و تصوراته.

إن تخصيب العنوان، كما جاء في المدونة عند الغزالي هدية المتلقي لكي يصل إلى دلالات النص الشعرية وتلك أهم شفراته، ليصل إلى إنتاج معاني متعددة من جهة ومن جهة أخرى استنطاق النص وتعريته من الداخل، وذلك للوصول من أجل التصريح عن مكنوناته الداخلية، وتفجير ما يجول في نفس المبدع ويضعه أمام المتلقي لكي يشاركه انفعاله وإحساسه ومشاعره، ومن هنا جاء دور المتلقي الايجابي الذي يعمل على إنتاج النص فوق نص فيصبح مبدعا آخر للنص وقد يعبر العنوان

عن رؤية مكنونات في نفس المبدع، فتكون بمثابة الاستشراف للمستقبل والتهيب له، ونجد ذلك في عنوان نصه.[1]

ومن الإيحاءات التي تصل إلى الذهن، أن العنوان السابق، جاء تحميل معاني الناس والحزن والآلام،حيث يكشف لنا الكاتب الرغبة في تجاوز ذلك اليأس وكأنه حتمية عن طريق الدعوة إلى الله تعالى لابد أن يكون محفوفا بالآلام و الصعاب و الألم، وكذا هي طريق الأنبياء والقدسيين والصالحين.

كما نعتقد أن العناوين التي كان يختارها الغزالي لنصوصه أو خواطره تتخذ طابع الاسمية، والتي تتنوع بين المفرد والمضاف والصفة والموصوف ، و من المعروف أن الاسم يتخذ صفة السكون والثبات بعيدا عن الحركة والاضطراب والتغيير[2]، ولكن في تصورنا أن المؤلف كان يميل إلى التشاؤم أكثر من التفاؤل، وطريق الدعوة لابد للسالك فيه أن يتزود بالتقوى والتفاؤل والألم، ومن ذلك لم يحسن الغزالي اختيار كثير من العناوين، فجاءت أحيانا ساكنة توحي بالتشاؤم واليأس وهي انعكاس لتجربته المريرة في مواجهة السلطة الظالمة آنذاك.

إنّ النص النثري له شعرية وخصوصية كما للنص الشعري، والمقاربة التي تقارب بها المتلقي تلك النصوص تستدعي معرفة وإدراك القيم الفنية والجمالية والشعرية التي تمكن أن تتجلى في ذات المتلقي أي الأثر التي تتركه الشعرية والجمالية في نفسية المتلقي.

إن المبدع قد حملها أبعادا متنوعة، وسمات جديدة، تجعلها أكثر رونقا وكأنها في نص شعري موزون ومن ذلك قوله رحمه الله:«كان في الناس من لا يعرف الله أصلا، فأنار محمد صلى الله عليه وسلم بصيرته، وقاده من ضميره إلى مولاه. وكان هناك من يعرفه معرفة فاسدة يظن له ولدا يشفع، أو

1- انظر : تامر إبراهيم المصاورة: شعرية النص النثري،كتابات عابد الحريزان نموذجا، 14 أيلول، ص 20.
2 - انظر المرجع نفسه، ص21.

شريكا ينفع فجاء محمد عليه الصلاة والسلام، يقرر عقيدة التوحيد المطلقة، وينفي أن يكون لله ابن أو ابنة أو ند أو ضد، شبيه في العظمة أو معقب له في الحكم »[1].

نلاحظ من النص السابق أن الغزالي استطاع من خلال انتقاءه لمفردات معينة ذات شحنة إيحائية مثل ولد يشفع، أو شريك ينفع ،... شبيه في العظمة ...لاستخدام ظاهرة السجع والجناس،يشفع ،ينفع، ...ضد .. وكلها كلمات لها جرس موسيقي أعطى للنص إيقاعا متميزا "كنت في الجزائر فشاهدت جبلا يشبه حرف الألف،كأن صخرة شاهقة يرتد الطرف عن قمتها، وتوهمت كأنه يريد أن ينقض .."

إن النص النثري له قيمة جمالية وفنية وشعورية، وهذه الخاصية تخرجه عن الجنس النثري الذي يخلو من الأثر الفني والجمالي، ولا يهدف إلا إلى طرح قيم معرفية أو علمية لذلك ينحو المبدع فيه منحى المباشرة وإلغاء كل المظاهر الجمالية والفنية كالمجاز والاستعارة، لأنه يهدف إلى الحقيقة وحدها.

وكلما استعمل المبدع في الجنس النثري قيم جمالية أو بلاغية من مجاز وغيره فانه يلج بذلك إلى عالم الشعر والشعرية، وذلك لما له من قيم، وما نجده عند المفكر الغزالي، حيث تكتسب المفردة الشعرية عنده قيمة فنية وجمالية.

وفي اعتقادنا أن ذلك هو الفرق الوحيد بين النص النثري والنص الشعري، وليس الإيقاع الذي جعل منع بعض النقاد السمة الخاصة للتفريق بين الشعر والنثر، فخصومة المفردة داخل النص، وما لها من إيحاءات ودلالات متعددة في سياقات متنوعة هي التي تحدد الجنس الأدبي[2].

وتبرز جمالية اللفظ في السياق، في تصور الألوف المؤلفة من الشموس والنجوم الدوارة في الفضاء البعيد "إنها كشمسنا المألوفة تشرق وتغرب ونحن أيقاظ أو رقود، قد تبلغ مليارات من

1 - محمد الغزالي : في الذكر و الدعاء عند خاتم الأنبياء، ص10.

2 - انظر: المصدر السابق، ص24.

الكواكب تجري غير متوقفة ولا متبعثرة ، هي كما وصفها الله [1]" وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا - وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا - وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا - فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا - فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا " [2].

نلاحظ من النص السابق أن الغزالي جاء بمفردات من عالم الطبيعة شمس، نجوم الفضاء، الكواكب،...تجري... غير متوقفة ولا متبعثرة ...يسبح وكلها تندفق معها روعة المشهد وصفات البركة والعظمة التي أراد الكاتب وصفها، لكن تأخذ ملامح وأبعاد الطبيعة المتحركة في نص نثري يتغلغل بالشعرية الخاصة لكل مفردة من مفردات ذلك النص، كما أنه نجح في توظيف الطبيعة في معظم نصوصه النثرية، وقد أضفى عليها سمات الحركية والحيوية والشعور، والحياة الأبدية بدلا عن السكون والركود. لقد جاءت نصوص المبدع في قوالب ذات قيمة شعورية وجمالية مما أبعده عن ملامح النثرية التقديرية[3].

1 - محمد الغزالي:قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة في دار الشروق بيروت ،د. ت، ص13.

2 - النازعات ، 05.

3 - انظر: تامر إبراهيم : المحاورة، (مرجع سابق)، ص 25.

الخاتمة

خاتمة:

حاولت من خلال هذه الدراسة المتواضعة أن أتعقب أهم روافد الممارسة النصية للغزالي، لنكتشف أبعاد المسافات التي تربط بين نصوصه النثرية والخلفيات المعرفية والدينية التي وجهت ممارسة هذا الأخير في ذاك الاتجاه دون سواه. حيث تأسست عليه إجراءات معرفية وأيديولوجية، كرست هي الأخرى تراكما نصيا أسست عليه فيما بعد وجهات نظر قائمة بذاتها .

وقد اكتشفنا ونحن ندرس النص النثري عند الغزالي أن الروافد المعرفية التي نهلت من خلفيات تراثية كان لها بالغ التأثير في توجيه الأداء النصي للشيخ الغزالي، والتي شكلت هاجسا ملفتا للنظر، مع حضور كبير لتأثير النص القرآني والحديث في تأسيس جمالية تلك النصوص النثرية التي حفلت بها مدونات الشيخ الغزالي.

وقد استأنس الغزالي رحمه الله وهو الداعية إلى الإسلام والأخلاق بالتجربة الغربية وضرورة الاستفادة الواعية من عناصرها الايجابية.

إن المتأمل للمسار الكتابي للشيخ الغزالي على مدى أكثر من نصف قرن يقف على كم هائل من الممارسات النصية التي حددتها ثقافة الكاتب ،كرستها التجربة الإبداعية المتراكمة.

ومن خلال هذا البحث الذي حاولنا فيه إستكناه جمالية النص النثري عند الغزالي ، فقد وجدنا أن هذا النص يتماهى والبعد الديني الدعوي إلى درجة عدم التمايز في كثير من الأحيان، فلم تكن هذه الجمالية الأسلوبية لتغفل المضمون الرسالي والدعوي لهذا المؤلف. والذي شكل الحمولة الفكرية للشيخ الغزالي.

فالفعل الإبداعي الذي يعني الخلق والإبداع لم يكن ليجد معاناة مع اللغة التي ضلت محدودة و قاصرة عن البوح بكثير مما يدور في الذهن، ما استدعاه أحيانا لتوظيف الرمز.

إن النصوص لدى الغزالي مستقرة لا تعرف الحركة فرغم تمكنه من أداة اللغة والأساليب التعبيرية إلا أنها ليست في حركة دائمة من خلال تأويلها، كما هو الشأن عند التوحيدي ، أو ابن عربي أو النفري.

إن خطاب الغزالي من وجهته الأدبية لا يظل محافظا على مسار واحد وهو الإطار الفني الملازم للصورة البيانية البلاغية فحسب، وإنما يبتعد ليصل إلى تلك الأساليب القائمة على مبدأ الإقناع والإمتاع. فهو يستخدم كل الأدلة والحجج العقلية والنقلية لإقناع المتلقي.

إن الخطاب الفكري والدعوي في حاجة ماسة إلى لغة تخاطب عالم العقل والوجدان معا للولوج إلى مكامن علم النفوس المختلفة ، وللإقناع نجد الغزالي يستعمل لغة العقل القائمة على المنطق والفلسفة بصورها المختلفة، والتجربة البشرية المتنوعة والمتعددة على أن يكون الإمتاع قائما على مبدأ الذوق والتصوير الفني المبدع الذي يشخص المفردات المجردة ويجسمها لتختلف فيها الحركة والصورة و الظلال، ولقد كان من ثمار هذا النوع من التمازج بين لغة الخطاب الديني الدعوي ولغة الخطاب الأدبي أن برع الغزالي بكل ما يملك من زاد معرفي وعلوم شرعية وبلاغية وعقلية.

لقد طور الغزالي الخطاب الأدبي الدعوي من خلال توظيف جمالية التلقي وحقق بذلك شرط التواصل البلاغي القائم على الإقناع و الإمتاع.

قائمة المصادر و

المراجع

قائمة المصادر :

1. ابن أبي الأصح، تحرير التجيير، تحقيق: حفني محمد شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1963م.
2. ابن المعصوم المدني، أنواع الربيع في أنواع البديع، تحقيق: شاكر هادي، مطبعة النعمان، الطبعة الأولى، النجف، 1968م.
3. ابن جني، الخصائص، ت محمد النجار، دار الكتب، القاهرة، 1965م.
4. ابن خلدون عبد الرحمن: المقدمة، دار التراث، القاهرة، 1975م.
5. ابن رشيق القيرواني: العمدة، ت محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، الطبعة الخامسة، بيروت، 1981م.
6. ابن مسكويه، الهوامل والشوامل، ت داوود القاضي، دار الثقافة، 1973م.
7. ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف القاهرة، (د.ت).
8. أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، دار التراث، القاهرة، 1995م.
9. أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، بيروت، 1989م.
10. الجاحظ، عمرو بن بحر، الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، دار المعارف، مصر، الطبعة الثالثة، 1996م.
11. الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، مصورات جامعة الكويت، 1985م.
12. الرماني: النكت في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد زغلول ومحمد خلف الله، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الرابعة، 1980م.
13. الزمخشري، أساس البلاغة، دار الكتاب العربي، 1998م.
14. السكاكي أبو يعقوب، مفتاح العلوم، ضبط زرزور محمد، دار الكتاب، الطبعة الثانية،1987م.

15. السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، دار التراث، القاهرة، 1980م.

16. الشريف الجرجاني، التعريفات، مكتبة لبنان، بيروت، 1985م.

17. عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق: هنري ريتار، مكتبة المتنبي، بغداد، 1979م.

18. قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1958م.

19. يحيي بن حمزة العلوي، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، مطبعة المقتطف، القاهرة، 1994م.

20. مؤلفات الشيخ محمد الغزالي:

- أزمة الشورى في المجتمعات العربية والإسلامية، الطبعة الأولى، القاهرة، دار الشرق الأوسط للنشر، 1990م.
- الإستعمار أحقاد وأطماع، الطبعة الثالثة، القاهرة، دار الكتب الإسلامية، 1983م.
- الإسلام في وجه الزّحف الأحمر، بيروت، صيدا، منشورات المكتبة العصرية، (د.ت).
- الإسلام والطاقات المعطّلة، باتنة، الطبعة الجزائرية الأولى، الزيتونة للإعلام والنشر، 1987م.
- تأملات في الدين والحياة، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1951م.
- تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، الطبعة الثانية، فرجينيا، المعهد العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن، 1991م.
- التعصّب والتسامح بين المسيحية والإسلام، الطبعة الثالثة، القاهرة، دار الكتب الحديثة، 1965م.
- الجانب العاطفي من الإسلام، باتنة، الجزائر، دار الشهاب، (د.ت).
- جدد حياتك، الطبعة الثالثة، قسنطينة، دار البعث، الطبعة الجزائرية الأولى، 1986م.
- جدد حياتك، الطبعة الثانية، دار النهضة، مصر، القاهرة، 1997م.
- جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج، الطبعة الأولى، الجزائر، دار الكتب، 1987م.
- حصاد الغرور، باتنة، الجزائر، دار الشهاب، 1986م.

- حقيقة القومية العربية، القاهرة، دار مكتبة العروبة، (د.ت).
- خلق المسلم، باتنة، الجزائر، دار الشهاب، 1986م.
- دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، الجزائر، دار الكتب، 1988.
- دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، مطبعة النهضة، مصر، 1993م.
- الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر، الطبعة الأولى، عين مليلة، الجزائر، 1988م.
- الدعوة الإسلامية في القرن الحالي، دار الشروق، القاهرة، م1975.
- دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، الطبعة الخامسة، القاهرة، دار نهضة مصر، 1996م.
- دور المسلم ورسالته، طبعة دار الفكر، دمشق، 1984م.
- ركائز الإيمان بين العقل والقلب، الطبعة الأولى، مكتبة رحاب، 1988م.
- سرّ تأخر العرب والمسلمين، الطبعة الأولى، القاهرة، دار الصحوة، 1985م.
- السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، الطبعة الأولى، بيروت، القاهرة، دار الشروق، 1989م.
- السنة بين أهل الفقه والحديث، دار الحديث، القاهرة، 1995م.
- صحية التحذير من دعاة التنصير، الطبعة الأولى، الجزائر، دار الانتفاضة، 1992م.
- الطريق من هنا، الطبعة الأولى، القاهرة، دار البشير للطباعة والنشر، 1987م.
- ظلام من الغرب، الطبعة الأولى، دار نهضة مصر، (د.ت).
- عقيدة المسلم، باتنة، الجزائر، دار الشهاب، 1985م.
- عقيدة المسلم، طبعة دار القلم، دمشق، 1979م.
- علل وأدوية، الطبعة الثانية، باتنة، الجزائر، دار الشهب، 1986م.
- الغزو الثقافي يمتد في فراغنا، الجزائر، دار الكتب، 1987م.
- الغزو الثقافي يمتد في فراغنا، دار الصحوة، القاهرة، 1987م.

- فقه السيرة، دار الكتاب المينياوي، القاهرة، 1952م.
- فنّ الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء، باتنة، الجزائر، دار الشهاب، (د.ت).
- في موكب الدعوة، الجزائر، دار الكتب، 1990م.
- قذائف الحق، الطبعة الثانية، بيروت، منشورات المكتبة العصرية، (د.ت).
- قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، الطبعة الأولى، الجزائر، دار الانتفاضة للنشر والتوزيع، 1992م.
- كفاح دين، الطبعة السادسة، مكتبة رحاب، 1988م.
- كيف نتعامل مع القرآن؟، الطبعة الأولى، الجزائر، دار الانتفاضة للنشر والتوزيع، (د.ت).
- كيف نفهم الإسلام، الجزائر، دار الكتب، 1987م.
- كيف نفهم الإسلام؟، الجزائر، دار الكتب، 1987م.
- مائة سؤال في الإسلام، القاهرة، دار ثابت للنشر، 1984م.
- المحاور الخمسة للقرآن الكريم، القاهرة، دار الصحوة، 1989م.
- مستقبل الإسلام خارج أرضه كيف نفكّر فيه؟، الجزائر، دار الكتب، 1987م.
- مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، الطبعة الأولى (سلسلة كتاب الأمة –رقم 1)، الدوحة، رئاسة المحكم الشرعية والشؤون الدينية بدولة قطر، 1982م.
- مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، بيروت، 1979م.
- مع الله: دراسات في الدعوة والدعاة، الطبعة الخامسة، القاهرة، المكتبة الإسلامية، 1981م.
- معركة المصحف في العالم الإسلامي، الجزائر، مكتبة رحاب، (د.ت).
- من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث، باتنة، الجزائر، دار الشهاب، (د.ت).
- من هنا نعلم، دار النهضة، القاهرة، الطبعة الأولى، 1997م.
- نظرات في القرآن مؤسسة الخانجي، القاهرة، 1958م.
- نظرات في القرآن، باتنة، الجزائر، دار الشهاب، 1986م.

- نماذج من التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، الطبعة الأولى، الجزائر، وزارة الشؤون الدينية، منشورات المركز الثقافي الإسلامي، 1987م.
- هذا ديننا، الطبعة الثانية، القاهرة، دار الكتب الحديثة، 1965م.
- هموم داعية، باتنة، الطبعة الأولى، الشهاب، (د.ت).
- واقع العالم الإسلامي في مطلع القرن الخامس عشر، الطبعة الأولى، القاهرة، دار ثابت للنشر، 1983م.

قائمة المراجع

1. إبراهيم خليل، الأسلوب ونظرية النص، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، بيروت، 1997م.
2. أبو الحسن علي الحسني الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، الجزائر، مكتبة رحاب، 1987م.

3. أحمد الخديري، النص والجنس الأدبي، دار الفكر العربي المعاصر، 1998م.

4. أحمد الورداني، قضية اللفظ في نظرية الشعر عند العرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2004م.

5. أحمد حجازي السقا، دفع الشبهات عن الشيخ محمد الغزالي، الطبعة الأولى، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، 1990م.

6. أحمد طلعت، الوجه الآخر للديمقراطية، الجزائر للنشر والتوزيع، 1990م.

7. أحمد كمال أبو المجد، حوار لا مواجهة، الطبعة الأولى، القاهرة، بيروت، دار الشروق، 1988م.

8. أنور الجندي، الفصحى لغة القرآن، بيروت، دار الكتاب اللبناني، الطبعة الأولى، 1982م.

9. أنيس المقدسي، تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، مكتبة النهضة، القاهرة، 1985م.

10. برهان غليون، بيان من أجل الديمقراطية، دار يوشان، الطبعة الرابعة، 1990م.

11. بسام بركة وآخرون، مبادئ التحليل النصوص الأدبية، الشركة المصرية العالمية، القاهرة، 2002م.

12. بن عيسى بطاهر، الشيخ محمد الغزالي، الداعية الأديب، دار النهضة، مصر، القاهرة، 1998م.

13. تامر إبراهيم المصاورة ، شعرية النص النثري :كتابات عابد الحزيران أنموذجا ، (د.ت.) ، طبعة ثانية

14. جابر عصفور، الصورة الفنية، بيروت، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية، 1992م.

15. جمال البنا، الحساسية الدينية، الطبعة الأولى، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، 1987م.

16. جمال الدين الأفغاني، الأعمال الكاملة، ت محمد عمارة، دار الكتاب للطباعة، القاهرة، 1968م.

17. جودت سعيد، حتى يغيّروا ما بأنفسهم، الطبعة الأولى، الجزائر، المطبعة العربية، 1990م.

18. حسن البنا، مجموعة الرسائل، الإمام الشهيد، مكتبة رحاب، الجزائر، (د.ت).

19. حسن البنا، مجموعة رسائل الإمام البنا، الطبعة الجزائرية الأولى، دار الشهاب، (د.ت).

20. حسين جمعة، جمالية الخبر والإنشاء، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005م.

21. حلمي محمد فودة وعبد الله صالح الله، المرشد في كتابة الأبحاث، الطبعة الرابعة، جدة، دار الشروق، 1983م.

22. زكي نجيب محمود، حياتنا العقلية، (د.ط)، بيروت، دار الشروق، 1979م.

23. سيد قطب، التصوير الفني، دار الشروق، القاهرة، 1968م.

24. سيد قطب، المستقبل لهذا الدين، القاهرة وبيروت، 1981م.

25. سيد قطب، في ظلال القرآن، الطبعة الحادية عشرة، دار الشروق، المجلد الأول، 1985م.

26. سيد قطب، معركة الإسلام مع الرأسمالية، دار الكوثر، (د.ت).

27. شكيب أرسلان، لماذا تأخّر المسلمون؟ ولماذا تقدّم غيرهم؟، بيروت، دار مكتبة الحياة، 1975م.

28. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، دار المعارف، الطبعة الحادية عشر، (د.ت.)

29. صبحي صالح، الإسلام ومستقبل الحضارة، الطبعة الأولى، بيروت، دار الشورى، 1982م.

30. صلاح شادي، الشهيدان حسن البنا وسيد قطب، الجزائر، دار الشهاب، (د.ت).

31. صلاح عبد الصبور، قصة الضمير المصري الحديث بين الإسلام والعروبة والتغريب، بيروت، دار إقرأ، (د.ت).

32. صلاح فضل، الأسلوبية، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع، القاهرة، 1997م.

33. طه حسين، في الأدب الجاهلي، مطبعة الفاروق، القاهرة، 1972م.

34. طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتحديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الثانية، 2000م.

35. عباس السيسي، الذوق سلوك الروح، الطبعة الأولى، الإسكندرية، دار الطباعة للنشر والصوتيات، 1988م.

36. عباس محمود العقاد، الإسلام دعوة عالمية، بيروت وصيدا، المكتبة العصرية، (د.ت).

37. عباس محمود العقاد، حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، بيروت وصيدا، المكتبة العصرية، (د.ت).

38. عبد الحليم عويس وعماد الدين خليل ومحفوظ عزّام ورمضان عبد التواب، الشيخ محمد الغزالي؛ صور من حياة مجاهد عظيم ودراسة لجوانب من فكره، الطبعة الأولى، القاهرة، دار الصحوة، 1993م.

39. عبد الرحمان الرافعي، في أعقاب الثورة المصرية، الطبعة الأولى، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1949م.

40. عبد الرزاق قسوم، نزيف قلم جزائري، (د.ط)، الجزائر، دار الأمة للطباعة والترجمة والنشر، 1996م.

41. عبد العزيز الرفاعي، الديمقراطية والأحزاب السياسية في مصر، القاهرة، دار الشروق، 1977م.

42. عبد العزيز بن باز، نقد القومية العربية على ضوء الإسلام والواقع، (د.ط)، بيروت، المكتب الإسلامي، 1980م.

43. عبد العزيز بن حموده، المرايا المحدبة، سلسلة عالم المعرفة 231، الكويت، أفريل 1998م.

44. عبد العزيز رفاعي، الديمقراية والأحزاب السياسية في مصر الحديثة والمعاصرة، (د.ط)، القاهرة وبيروت، دار الشروق، 1977م.

45. عبد الله بن خفاجي، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1982م.

46. عبد الله عبد الجبار، الغزو الفكري في العالم العربي، الطبعة الأولى، مكة المكرمة، رابطة العالم الإسلامي، (د.ت).

47. عدنان بن دويل، النص والأسلوبية بين النظرية والتطبيق، إتحاد الكتاب العربي، 2000م.

48. عز الدين إسماعيل، الأسس الجمالية في العقد العربي، دار الفكر العربي، القاهرة، 1992م.

49. علاء الغزالي، السيرة الشخصية للشيخ محمد الغزالي، عمان، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، مكتبة الأردن ومؤسسة آل البيت، 1996م.

50. علي عبد الرازق، الإسلام وأصول الحكم، بيروت، دار مكتبة الحياة، (د.ت).

51. عمر التلمساني، قال الناس ولم أقل، دار الطباعة والنشر، الطبعة الأولى، (د.ت).

52. فتحي حسن ملكاوي وآخرون، العطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي (حلقة دراسية)، (د.ط)، عمان، المعهد العالمي للفكر الإسلامي وجمعية الدراسات والبحوث الإسلامية والمجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، 1996م.

53. فريد عبد الخالق، الأخوان المسلمون في ميزان الحق، الجزائر، دار الانتفاضة، الطبعة الأولى، 1991م.

54. فهمي هويدي، القرآن والسلطان، الطبعة الأولى، بيروت، دار الشروق، 1981م.

55. قطب عبد الحميد قطب، محاضرات الشيخ محمد الغزالي، في إصلاح الفرد والمجتمع، الجزائر، مكتبة رحاب، (د.ت).

56. قطب عبد الحميد قطب، محاضرات الشيخ محمد الغزالي في إصلاح الفرد والمجتمع، الجزائر، مكتبة رحاب، 1995م.

57. كمال ماهر، الجمال والفن، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 1957م.

58. مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، الطبعة الرابعة، دمشق، دار الفكر، 1984م.

59. محسن محمد، من قتل حسن البنا؟ الطبعة الأولى، القاهرة وبيروت، دار الشروق، 1987م.

60. محمد أبو زهرة، التوجّه التشريعي في الإسلام، بيروت، منشورات المكتبة العصرية، 1972م.

61. محمد أحمد خضر، الإسلام وحقوق الإنسان، الطبعة الأولى، بيروت، مكتبة الحياة، 1980م.

62. محمد البهي، الفكر الإسلامي في تطوره، مكتبة وهبة القاهرة، 1981م.

63. محمد الحسن، المذاهب والأفكار المعاصرة في التصور الإسلامي، دار الثقافة، الدوحة، 1986م.

64. محمد الحسن، المذاهب والأفكار المعاصرة في التصور الإنساني، الطبعة الأولى، الدوحة، دار الثقافة، 1986م.

65. محمد الصغير بناني، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ، (د.ط)، (د.ت).

66. محمد جلال كشك، الشيخ محمد غزالي بين النقد العاتب والمدح الشامت، القاهرة دار مكتبة التراث الإسلامي، 1990م.

67. محمد حسنين هيكل، السلام المستحيل والديمقراية الغائبة، بيروت، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، 1988م.

68. محمد حسين، التيارات الوطنية في الأدب المعاصر، الطبعة السابعة، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1984م.

69. محمد رشيد رضا، تفسير المنار، الطبعة الثانية، بيروت، دار المعرفة، (د.ت).

70. محمد شلبي، الشيخ الغزالي ومعركة المصحف في العالم الإسلامي، الطبعة الأولى، القاهرة، دار الصحوة، 1987م.

71. محمد شلبي، الشيخ محمد الغزالي ومعركة المصحف في العالم الإسلامي، دار المنار، بيروت، 1980م.

72. محمد عبد العزيز الخولي، الأدب النبوي، بيروت، دار المعرفة، 1982م.

73. محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية،

74. محمد علي الصابون، صفوة التفاسير، (د.ط) دار مكتبة جدة، المجلد الأول، 1986م.

75. محمد عمارة، التراث في ضوء العقل، الطبعة الأولى، بيروت، دار الوحدة، 1980م.

76. محمد عمارة، الشيخ محمد الغزالي: الموقع الفكري والمعارك الفكرية، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992م.

77. محمد عمارة، الغزو الفكري وهم أم حقيقة، الطبعة الأولى، القاهرة وبيروت، بيروت، دار الشروق، 1989م.

78. محمد فتحي عثمان، دولة الفكرة، الطبعة الأولى، القاهرة، دار مكتبة وهبة، (د.ت).

79. محمود شلتوت، الإسلام عقيدة وشريعة، الطبعة العاشرة، القاهرة وبيروت، دار الشروق، 1980م.

80. محمود محمد سفر، دراسة في البناء الحضاري: محنة المسلم مع حضارة عصره (سلسلة كتاب الأمة)، العدد رقم 21، (د.ط)، الدوحة، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بدولة قطر، 1989م.

81. مريم جميلة، الإسلام في النظرية والتطبيق، الطبعة الأولى، الكويت، مكتبة الفلاح، 1978م.

82. مسعود فلوسي: الشيخ محمد الغزالي، غصن باسق في شجرة الخلود، دار الريحانة 1999م.

83. مصطفى الفقي، حوار الأجيال، الطبعة الأولى، بيروت والقاهرة، دار الشروق، 1994م.

84. مصطفى القط، النثر الفني، ونقده عند العرب من الشفاهية إلى الكتابة، دار التراث العربي، القاهرة، (د.ت).

85. مصطفى صادق الرفاعي، إعجاز القرآن، دار الكتاب العربي، بيروت، 2005م.

86. مصطفى صادق الرفاعي، إعجاز القرآن، دار الكتاب العربي، بيروت، 2005م.

87. منير شفيق، الإسلام وتحديات الانحطاط المعاصر، الزهراء للإعلام العربي، الطبعة الثانية، 1987م.

88. مهدي هلال، درس الألفاظ ودلالتها، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1980م.

89. موريس أبو ناصر، الألسنية والنقد الأدبي، دار النهار والنشر، بيروت، 1979م.

90. نبيل أيوب، الطرائق النص القارئ المختلف، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1980م.

91. نصر الدين لعرابة، الشيخ محمد الغزالي، حياة وآثار، شهادات ومواقف، دار الأمة، 1998م.

92. همّام عبد الرحمن سعيد، قواعد الدعوة إلى الله، الطبعة الأولى، باتنة، الجزائر، دار الشهاب، 1985م.

93. وليد قصاب، مناهج النقد الأدبي الحديث، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية، 2007م.

94. وهبة الزحيلي، الفقه الإسلامي وأدلته، الطبعة الأولى، دمشق، دار الفكر، 1984م.

95. يوسف القرضاوي، الشيخ محمد الغزالي كما عرفته رحلة نصف قرن، الطبعة الأولى، القاهرة، دار الوفاء، 1995م.

96. يوسف القرضاوي، ثقافة الداعية، الطبعة الرابعة، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1981م.

المجلات والدوريات والصحف والندوات والمحاضرات:

1. إبراهيم نويري، "الشيخ محمد الغزالي أديب الدعوة وداعية الاعتدال"، المجلة العربية السعودية، العدد 215 (ذو الحجة 1415 هـ، مايو 1995 م)

2. إبراهيم نويري، "خواطر في الوحدة الإسلامية"، مجلة الحرس الوطني، السعودية، العدد 132(صفر 1414 ، أغسطس 1993م).

3. إبراهيم نويري، "ضرورة مراجعة مصطلحات الخطاب الإسلامي المعاصر"، مجلة الحرس الوطني السعودية، العدد 110 (ربيع الثاني 1412 هـ، أكتوبر 1991م)

4. أبو الأعلى المودودي، "نظرة عابرة على حقوق الإنسان الأساسية"، مجلة المسلم المعاصر، العدد الافتتاحي (شوال 1394 هـ، نوفمبر 1974م)

5. أحمد عيساوي، الغزالي، فارس الدعوة الإسلامية في العصر الحديث، مجلة الوعي الإسلامي، العدد 489، (د.ت).

6. إسحاق فرحان، "المبادئ الموجهة للتجربة الغزالية" حلقة نقاش للعطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي، د .ط، عمان، المعهد العالمي للفكر الإسلامي و مؤسسة آل البيت وجمعية الدراسات الإسلامية، 1416 هـ ، 1996 م.

7. بلاغة الإيجاز، رسالة ماجستير، جامعة باتنة، إعداد: يوسف بديدة وإشراف محمد منصوري، 2000م.

8. جابر قميحة، وقفة نقدية مع محمد الغزالي، الأديب، الشاعر، الأدب، المكتبة الأدبية (مقال من الأنترنيت).

9. الشروق العربي (جريدة أسبوعية جزائرية) العدد 255 (من 26 مارس إلى 02 أفريل 1996)

10. الشعب (جريدة يومية تصدر بالجزائر)، العدد الصادر يوم الثلاثاء 12 مارس 1996م.

11. طه جابر العلواني "شيخنا محمد الغزالي وصفحات من حياته"ن مجلة إسلامية المعرفة، ماليزيا، العدد 07 (1417 هـ ، يناير 1997 م)

12. العالم الإسلامي (جريدة أسبوعية تصدرها رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة)، العدد الخاص برحيل الشيخ الغزالي (صدر بتاريخ 20 ذو القعدة، 08 أفريل 1996م).

13. عبد الحليم محمد أحمد، "خواطر حول أزمة العقل المسلم المعاصر"، مجلة المسلم المعاصر، العدد الافتتاحي (شوال 1394 هـ ، 1974م).

14. عبد القادر نور، "الشيخ محمد الغزالي يهدي أحاديث الاثنين) ، مجلة المجاهد الأسبوعي الجزائرية، العدد 1481 (الجمعة 23 ديسمبر 1988م).

15. عبد الله بن عبد المحسن التركي، "تحديد مفهوم الغزو الثقافي"، محاضرة ألقاها بملتقى الفكر الإسلامي التاسع عشر، (الغزو الثقافي والمجتمع الإسلامي المعاصر)، بجاية، (شوال 1405 هـ، يوليو 1985م)

16. عزة بدر، "رحلة في أعماق التاريخ، :رحلة شامبليون"، مجلة العربي الكويتية، العدد 449 (أفريل 1996 م).

17. علاء محمد الغزالي، "السيرة الشخصية للشيخ محمد الغزالي"، حلقة نقاش للعطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي، الطبعة الأولى، عمان، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ومؤسسة آل البيت وجمعية الدراسات الإسلامية (1416 هـ ، 1996م)

18. علي جمعة، " الشيخ محمد الغزالي ورؤيته المنهجية للفكر الإسلامي والإنساني" ، حلقة نقاش للعطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي، الطبعة الأولى، عمان، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ومؤسسة آل البيت وجمعية الدراسات الإسلامية (1416هـ ، 1996م)

19. عمار طالبي ، "الشيخ الغزالي كما عرفته في الجزائر"، مجلة إسلامية المعرفة، ماليزيا، العدد 07 (رمضان 1417 هـ ، يناير 1997 م).

20. فهمي هويدي، "الفارس الذي ترجل"، مجلة النور الكويتية، العدد 137 (يونيو 1996م).

21. محمد رجب البيومي "رحلة في الذاكرة ..الشيخ محمد الغزالي "مجلة المنهل السعودية ،العدد 532 (محرم 1416ه ،يونيو 1995م)

22. محمد رميحي، "الميراث المر ..الأيديولوجية العربية إلى أين ؟ "مجلة العربي الكويتية ،العدد 448 (مارس 1996م)

23. محمد عمارة "الإمام المتنور .. والتجديد بالإسلام "مجلة العربي الكويتية، العدد 454 (سبتمبر1996م)

24. محمد مراح "الدين وفلسفة التاريخ "مجلة الحرس الوطني السعودية، العدد161 (شعبان 1416ه،1996م)

25. يوسف القرضاوي "الغزالي رجل الدعوة " العطاء الفكري للشيخ الغزالي، الطبعة الأولى، عمان، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ومؤسسة آل البيت وجمعية الدراسات الإسلامية، (1416ه/1996م)

فهرس الموضوعات

شكر

إهداء

مقدمة .....أ

مدخل 06

الفصل الأول: الغزالي ... الإنسان والعصر

المبحث الأول: خطوط عامة عن المجتمع المصري.....43

المبحث الثاني: نشأة الغزالي ومراحل حياته.....65

المبحث الثالث: صفات شخصية الغزالي وأهم العوامل المؤثرة في تكوينه ...124

الفصل الثاني: البعد الديني والأدبي في فكر الغزالي في فكر الغزالي

المبحث الأول: أدبية النثر عند الغزالي 142

المبحث الثاني: ملامح الشعر والشاعرية في شخصية الغزالي 156

المبحث الثالث:الغزالي والدعوة الإسلامية.....171

الفصل الثالث: مقاربة أسلوبية في النصوص النثرية عند الغزالي

المبحث الأول: المستويات الجمالية في أدب الغزالي 184

المبحث الثاني: جمالية التقديم والتأخير 195

المبحث الثالث: التمثيل والاستشهاد 205

الخاتمة 215

قائمة المصادر والمراجع 218

فهرس الموضوعات 233